
إكتورآباد فاسيولينسي
الشرق يبدأ
في القـاهرة
ترجمة: محمد الفولي
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

إكتور آباد فاسيولينسي

الشرق يبدأ في القاهرة

ترجمة: محمد الفولي



محمد الفولي/ مترجم وصحفي وقاص مصري، مواليد القاهرة عام 1987، حصل على درجة الليسانس في اللغة الإسبانية وأدبها من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا محررًا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية. ينصبُّ اهتمامه الأساسي على المزج بين الترجمة والكتابة الرياضية والأدب. ظهرت ترجماته ونصوصه بعدد من وسائل الإعلام المصرية والعربية

....

الشرق يبدأ في القاهرة

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيداع: 2017/1853

الترقيم الدولي: 1-049-821-977-978

الناشر

محمد البعلي

اخراج فني

علاء النويهي

This is a full translation for the book: Oriente empieza en El Cairo

© Héctor Abad Faciolince, 2002

"هذا العمل نُشر بدعم من وزارة التعليم والثقافة والرياضة الإسبانية".

بترجمة: محمد الفولي





دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

الشرق يبدأ في القاهرة

المحتويات

إلى رفيقتيَّ الرحلة (آ) و(ك)

"السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضَى نهمته فليعجل إلى أهله".

النبي محمد، حديث شريف (صحيح البخاري).

"لكن المسافرين الحقيقيين هم من يرحلون فقط

من أجل الرحيل

بقلب مضيء وخفيف كالهواء

لا يهربون من أقدارهم

ودون معرفة السبب يقولون دائمًا:

هيا! لنرحل!".

شارل بودلير، قصيدة "الرحلة".

كلمة المترجم

ينتمـي هـذا الكتـاب إلـى أدب الرحـلات ويأخذنا فيـه مؤلِفـه الكولومبي إكتـور آبـاد فاسيولينسـي ليـس فقـط فـي رحلـة عبـر المـكان، وهـو فـي هـذه الحالـة مصـر وتحديـدًا القاهـرة، بـل أيضًـا عبـر نهـر الزمـان ليُحدثنـا فيـه عـن ماضيهـا وحاضرهـا وتجربتـه الشـخصية فيهـا. كانـت هـذه الفكرة أول مـا جذبنـي كقـارئ وبعدهـا كمترجـم: كيف ترانـا عينا أحـد أهم أدباء كولومبيـا وأمريـكا اللاتينيـة المعاصريـن؟

كثيـرة هـي كُتـب الرحالـة التـي تناولت مصـر الماضي والحاضـر وأغلبها- سـواء تُرجمـت للعربيـة أم لا- كانـت بأقـلام أوروبيـة تعاملـت فـي أغلـب الأحـوال بنظـرة الرجـل الأبيـض المتعاليـة لمـا يـراه مـن غرائبيـات الشـرق، لكـن الكتـاب الموجـود مـع القـارئ الآن لـه ميـزة مختلفـة وهـو أن هـذه هـي المـرة الأولـى التـي يصـل فيهـا إلـى يديـه عمـل من هـذه الفئـة صِيغ بقلـم أحـد أبنـاء أمريـكا الجنوبيـة؛ ذلـك المـكان الـذي رغمًـا عـن بعـده يحمـل داخـل مجتمعـه خصائـص مشـتركة كثيـرة مـع نظيـره المصـري.

لـم يكـن إكتـور آبـاد خـلال شـهرين تقريبًـا قضاهما فـي مصر هما ديسـمبر 1999 ويناير 2000 مسـافرًا عاديًـا داخـل حيـزي الزمـان والمـكان، فعبـر قراءتـه تجهـز جيـدًا للرحلـة- أو هكـذا ظـن- وعلـى

أرض الواقع وطوال رحلته بات يحدثنا عن الصدمة والخلاف بين "مصر الكتب ومصر الواقع" أو "قاهرة المخُيلة وقاهرة الواقع". كان جريئًا في تجاربه وزار أماكن ربما لم تطأها أقدام بعض المصريين، مثل سوق الجمال القديم بإمبابة أو مساكن الفقراء في المقابر ضمن مغامرات أخرى.

شاركه في هذه الرحلة زوجته آنا وأخته كلارا، واللتان سيشير إليهما طوال الكتاب بوصف "زوجتيّ"، في حالة غريبة خلقها داخل النسيج الأدبي للعمل لتعكس فكرة الأحكام المسبقة الموجودة دائمًا لدى أغلب المسافرين عن مسألة تعدد الزوجات في المجتمعات المسلمة وبالأخص ذلك المصري، الذي أخضعه عبر رحلته وتجاربه على المقاهي وفي الشوارع والمطاعم الفخمة والمتوسطة ومع النصابين والتجار بل وأحيانًا اللصوص لتشريح حالفه فيه التوفيق بصورة كبيرة.

لكل هذه الأسباب أغرمت بالكتاب وشرعت في ترجمته دون الاتفاق مع ناشر أو التواصل حتى مع وكلاء المؤلف، الذي حصل مؤخرًا على الجنسية الإسبانية، وكان أكثر ما جعلني أتمسك بإنهاء هذه المهمة هو أن الكاتب نفسه أبدى في أحد الفصول قناعة شبه تامة بأن هذا الكتاب لن تصدر له ترجمة بالعربية، لذا أخذت على عاتقي خوض هذا التحدي متعدد الأوجه.

بعدما أنهيت مهمتي بدأت الخطوات التي كان يجب عليّ اتخاذها في البداية، أي التواصل مع الكاتب ووكلائه والبحث

عـن ناشـر لكـي يـرى هـذا الكتـاب النـور، لهـذا أرغـب فـي توجيـه الشـكر للزميـل مـارك جمـال علـى يـد العـون التي قدمهـا لـي فـي التواصـل مـع وكلاء المؤلـف، والناشـر محمـد البعلـي مديـر دار "صفصافة" على تحمسـه للفكـرة وحصولـه علـى حقـوق النشـر بالعربيـة، وبالمثـل كل من شـجعني أثنـاء عمليـة الترجمـة وبعدهـا وعلـى رأسـهم زوجتـي والشـاعر والكاتـب ياسـر عبـد اللطيـف، وأصدقائـي طـه زيـادة وطـه محمـد وأسـماء جمـال عبـد الناصر.

محمد الفولي

ما لم تَرَه

أحيانًـا- فـي قصـص ألـف ليلـة وليلـة الطويلـة- تأسـر فكـرة زيـارة بلدان بعيـدة لـب أحد الأشـخاص، لـذا يجهز خيامـه ويحمِّل جمالـه وبغاله ويترك وزيـرًا مسـئولًا عـن شـئونه، ثم يجمـع القافلة ويبـدأ رحلته، دائمًـا ما يكون لديـه ذلـك الشـك، هـل يأخـذ زوجاتـه معـه ويعرضهـن لخطـر الطريـق؟ أم يتركهـن فـي عنايـة الخصيـان والمخادعيـن، تحـت رحمـة رجـال ليسـوا أقـل خطـرًا؟ يوجـد ثمـة حل وهـو اصطحـاب زوجتيـن وتـرك الأخريين من الأربعـة اللائي سـمح لنـا بهن العلـي القدير، فكمـا تقول الحكمة السـامية، لا تضـع البيـض كلـه فـي سـلة واحدة.

نحـن أيضًـا نحتضـن حلم تغييـر حياتنا، أو علـى الأقل حشـوها بمادة أقل تَفَتُّتًـا مـن حطـام الأيـام، عبـر الرحيل مـن هنا، نشـعر بحنين غريـب نحو ما لـم تـره أعيننـا، حنيـن نحـو كل الأماكـن باسـتثناء مكاننـا، كمـا قال شـيزاري بافيـزي[1] فـي مـرة، "المـرء يحتـاج إلـى وطـن، حتـى ولـو كان فقـط ليرحل عنـه"، هـذه هـي المشـاعر الموجـودة هنـا، رغبـة فـي الرحيـل، رغبـة فـي الاسـتراحة من الجماعات المتمردة وشـبه العسكرية، ورغبة في التوقف عن

1- أحـد أهـم أدبـاء إيطاليـا فـي القـرن العشـرين وتنوعـت أعمالـه بين الشـعر والروايـة والنقد والترجمة.

مشـاهدة حماقات الحكومة ومجازر الأشـرار وحـالات الاختطاف والاعتداءات والسـرقة واختـلاس أمـوال البؤسـاء، نرغـب فـي الرحيـل، حتـى ولـو لوقـت قصيـر، وفـي النهايـة نرحل بـ"عقل مشـتعل وقلـب مليء بالأحقـاد والرغبات المُـرة، و... سـعداء بالهـروب من وطن سـيئ السـمعة"!

لكـن- وقبـل أي شـيء- إلـى أي مـكان تتوجـه هـذه الخطـوات؟ نحـو الغـرب؟ أم الشـرق؟ مـن بيـن كل المُسَـلمات التـي تقسّـم العالـم لا يـزال يوجـد حائـط خيالـي لـم يسـقط بعـد، الشـرق والغـرب، ولأننـي أظـنّ أننـا مـن الغـرب (غربيـة هـي اللغة التـي أكتبهـا والثقافـة التي اسـتعمرت هذه البقعـة مـن الأمريكتيـن، غرناطـة الجديـدة، أو الأرض التـي أصبحـت اليـوم كولومبيـا)، فمـن الأفضـل إذن السـفر فـي رحلـة نحـو مـا يقـال عنـه إنـه مختلـف، المشـكلة هـي التمكـن مـن معرفـة أيـن ينتهـي الغربـي الـذي يخصّنـا؟ وأيـن يبـدأ ذلـك الشـرقي البعيـد؟

المسـافر الفضولـي جوسـتاف فلوبيـر[2] أخبرنـا منـذ حوالـي قرنيـن: "الشـرق يبـدأ فـي القاهـرة"، وبمـا أننـا لا نسـتخدم الجيـاد أو الجمـال، أو نسـافر فـوق الحميـر أو نبحـر علـى هـوى الأمـواج، قررنـا شـراء رحلـة نحو للقاهـرة.

2- روائي فرنسي شهير توفي عام 1880 ومن أشهر أعماله رواية "مدام بوفاري" وله شهرة كبيرة في الشرق الأوسط بسبب زيارته لمصر ومراسلاته الشهيرة عنها.

يبـدأ السـفر قبـل الرحيـل بوقـت طويـل، إنهـا مخيّلـة الرحلـة، مـا نقـرأه ومـا نتخيلـه، أول مـا قرأتـه كانـت الصفحات التي يقـصّ فيهـا فلوبير رحلته إلـى مصر فـي خطـاب لوالدتـه فـي 14 ديسـمبر 1849 فـي بدايـة رحلـة ستسـتغرق أكثـر مـن عـام، يقـصّ فلوبيـر أنه قـرر ألّا يهـذب لحيتـه: "تنمو لحيتـي مثـل حشـائش السـافانا فـي الأمريكتين".

لكـي أوفّـر الكثيـر من الوقت ولكـي أبدو مثل الصـورة النمطية الموجودة لـديّ عـن الشـرقيين، قـررت تقليـد فلوبيـر، لـو لـم أكـن لأتمكـن مـن القيام عبـر الكتابـة، فعلـى الأقـل سـأقلده فـي تصرفه، لذا قـررت ترك لحيتـي تنمو. بمـرور الأيـام بـات التغييـر علـى وجهـي ملحوظًـا، وبـكل تأكيـد إذا مـا تغير الوجـه فهـذا يعنـي أن الرحلـة بـدأت، توقفـت عـن رؤيـة صديـق لفتـرة ثـم اتفقنـا علـى أن نلتقـي فـي حانـة، يبـدو أنـه لـم يرنـي حينمـا وصـل حيـث مـرّ بنظراتـه مـن أمامـي، فـي النهايـة ركـز بصـره ونظـر إلـي بشـك، ثـم قال مندهشًـا: "لـم أعرفـك باللحيـة، تبـدو أكبـر سـنا!"، هـذا هـو مـا يـدور حوله الأمـر، ألا يتعـرف عليـك أحـد، لهـذا السـبب توجـد الرحـلات، عقـب عودتـه بعـد 20 عشـرين عامًـا من معارك في الأسـرة والسـاحات وتأثيـر ذلك التحول الرهيـب الـذي يفرضـه الزمـن علينـا، لم يتعرف أحد على أوديسـيوس، سـوى الكلـب الأعمـى أرجـوس (عمـر الرائحـة أطـول مـن عمـر قسـمات الوجـه) والمرضعـة العجـوز يوريكليـا التـي رأت الندبـة التـي تركهـا خنزيـر جبلـي محفـورة فـي سـاقه إبان شـبابه.

يتضمـن السـفر حلمًـا مزدوجًـا، ألا يعرفونـك حينما تذهـب، وألا يتعرفون عليـك حينمـا تعـود، أن تصبـح بلا اسـم، تسـافر غامضًـا لتصبح شـخصًا آخر، وتتـرك خلفـك مـا كُنْتَـهُ، كفافيـس[3]- الشـاعر اليونانـي والمصـري المولـود فـي الإسـكندرية والمسـافر بيـن لنـدن وأثينـا والقاهـرة- حذرنـا مـن أن حلـم السـفر الـذي يغيـرك خـادع، "لـن تجـد أراضي أخـرى أو بحـورًا أخرى؛ سـتصحبك المدينـة أينمـا ذهبـت"، ولكـن هـذا درس لا تتعلمـه، هـذا درس منسـي، سـأعود إلـى ميدييـن حتـى ولـو سـافرت معهـا وسـأكون كمـا أنـا تقريبًـا، ولكـن علـى الأقـل سـأكون قـد سـافرت وأدركـت، لأن ذلـك الـذي لا يذهـب لا يـرى شـيئًا مـن الأسـاس.

3- قسـطنطين بتـرو كفافيـس. أحـد أعلام الشـعر اليوناني ويحـاول دائمًا في أعمالـه التعبير عن التلاقي بين اليونان الكلاسـيكية والشـرق الأوسـط القديم.

رحلة إلى القاهرة

"اشترينا رحلة إلى القاهرة"، كان هذا هو ما قلته ومن الأفضل أن أفسره، سبب استخدام الجمع هو أنني سافرت مع زوجتَيَّ (آ) و(ك)، الرحلة تتضمن السفر بالطائرة بكل تأكيد وبرنامجًا طويلًا، من ميديين إلى نيويورك مع شركة (أفيانكا)، ومن نيويورك إلى بوسطن مع (أمريكان) ومن بوسطن لمدريد مع (سابينا)، ومن مدريد للقاهرة مع (مصر للطيران)، دول ومطارات وشركات العالم الأول دائمًا ما تحتفظ بمفاجأة لمواطني العالم الثالث، ليست الطائرات المتهالكة بسبب عامل الزمن أو المواعيد المتغيرة بسبب الفوضى أو الفقر أو الإهمال، كل هذه الأمور تعمل بطريقة شبه مثالية في دول العالم المتقدم، تكمن مشكلة مواطني العالم الثالث- أثناء السفر نحو القارات الثرية- في التأشيرات الرعب المبجل الذي يسمح لهؤلاء الهنود- أي نحن- بالدخول لأرض الأطهار، تعاملنا هذه المرة بشكل جيد مع مسألة الدخول لأراضي أمريكا الشمالية، وبما أن الولايات المتحدة لا تسمح بتعدد الزوجات (أحد أسباب الملاحقة الدينية للمورمون والمسلمين)، دخلت هناك كزوج لـ (آ) فقط، ولم نواجه مشكلات كبرى، فدائمًا ما يكون الزواج على طريقة آدم أحد أسباب الاحترام.

بعد استجواب أقصر من المتعارف عليه، والاشتمام المرهق والمعتاد للكلاب التي تبحث عن الكوكايين في مناطقك الحساسة، تمكنًّا من المرور، ولكن الأمريكيين لا يحبون النساء اللواتي يسافرن بمفردهن، خاصة إذا ما كن سمراوات صغيرات في السن وجميلات مثل (ك).

كنت أنا و(آ) قد أخذنا حقائبنا وجلسنا فوقها، تحدثنا في قلق دون أن نتجرأ على العبور للجمارك، لم تكن (ك) خرجت بعد من قسم الهجرة، في النهاية وبعد نصف ساعة وصلت متعرقة وشاحبة وغير مهندمة، ارتعشت شفتاها وهي تقص كيف احتجزوها في غرفة مكتب صغيرة مع توجيه مصباح بقوة "400 وات" نحو عينيها، كيف تحسسوا جسدها بالكامل بحثًا عن المخدرات، بل وأنهم أخضعوها لتحقيق متعدد يخص المجرمين، إذا كانت جاءت من أجل العمل؟ أو إذا كانت تعرف تجار مخدرات؟ أو تنوي الزواج في الولايات المتحدة؟ ولماذا سافرت من كولومبيا؟ وإذا كانت ترغب في الدراسة؟ أجبروها على إظهار ما معها من دولارات، قالت إنهم لم يتركوها إلا لسبب واحد، بطاقة الائتمان وتذكرة الذهاب والعودة.

مع الوصول لبروكسل، ثاني محطات الترانزيت نحو مدريد، جاءت العقبة الثانية، عرفنا أننا لن نتمكن من أن نخطو فوق هذه الأراضي المقدسة، أشار شرطي الحدود بطريقة قاسية وتقليدية نحو البوابة قائلا: "مع عبور هذا الباب، ستخطون على أراضي

دولـة شـينجين، ليـس لديكـم التصريح الملائم لكـي تخطوا هنـا، وبالتالي لن يسـمح لكم بالعبور، يجب أن ترسـلكم شـركة الطيران لسويسـرا، إنها ليسـت دولـة شـينجين، ومـن هناك سترسـلكم إلى مدريد بشـكل مـا"، تعاملت (ك) بشـكل حـاد مـع موظف الحدود، أشـارت له نحـو الصالة المواجهـة له حيث بـدأ المسـافرون نحـو مدريد في الاصطفاف مـن أجل دخول النفق والسـفر، سـنخطو سـتة أمتـار فقـط فـوق أراضـي الـ"شـينجن" المقدسـة- حاولـتْ أن تشـرح لـه- وسـنعود دون أن نكسـرها أو نلطخهـا، كان الأمـر بـلا فائـدة مـع جـوازات سـفرنا الكولومبيـة، مـن المسـتحيل أن تعبـر عبـر هذا البـاب وهذا الـرواق لتدخـل فـي هـذا النفـق. إذا لـم يحضـروا ختمًـا صالحًـا وصـادرًا من قنصليـة مـا، فـإن كفّـار جنـوب العالـم لا يمكنهـم أبـدًا أن يضعـوا أقدامهـم فـوق أراضي الفلمنـك السـهلية والمطيرة.

فـي الموعـد بالضبـط- ولكـن عقـب عـدة سـاعات- سـافرنا أكثـر نحـو الشـرق، زيـورخ، لنعـود نحـو الغرب فـي مدريد، ولكـن بعد وصولنـا لمدريد كانـت رحلـة (مصـر للطيـران) قـد خرجـت- بصـورة تثيـر الفضـول- نحـو القاهـرة فـي موعدهـا، اضطررنـا للنـوم فـي مدريـد، لكـن بسـبب تغييـر شـركة الطيـران فـإن أيًّـا مـن (سـويس إير)، التـي سـافرنا على متنهـا في آخر مسـار، و(سـابينا) التـي أطالـت نزهتنا نحو زيـورخ، لم تتحمـل التكلفة، قمنا بهـز أكتافنـا وابتهجنـا بـأن إسـبانيا لـم تطلـب منـا تأشـيرة، تعاملنا مـع الأمر كأنـه حفـل، أمطـار نبيـذ ريوخـا المسـائية سـتكون مفيـدةً لتحمـل الجفـاف الكحولـي لأسـابيع رمضـان الثلاثـة التـي كانـت تنتظرنـا، وهـي الأولـى فـي

الرحلـة، قضينـا الليلـة فـي غرفتين بنُـزل صغير بشـارع موراتيـن، يدعى (نزل برونيـا)، كانـت الغرفـة المزدوجـة التـي أقمـت فيهـا مـع (آ) مـزودة بـدورة ميـاه، قضـت (ك) الليلـة فـي غرفـة بسـيطة غير مـزودة بدورة ميـاه، طرقت بابنـا عـدة مـرات ليـلا لكـي تلبـي نـداء الطبيعـة، ولكـن لـم أسـمع صـوت سرسـوب الميـاه الطبيعـي فـي المرحـاض، شـعرت (آ) بالاسـتياء حينمـا أتت (ك) للمـرة الثالثـة وقالـت لـي فـي غضـب: "لا أعـرف مـا الـذي يحـدث لها؟ بهـذه الطريقـة لـن نتفاهم".

حاولـت تهدئتهـا ووعدتهـا بالحديـث مـع (ك)، لحسـن الحـظ فـإن الرحلة نحـو القاهـرة كانـت سـتقلع مـع حلـول المسـاء ولـم تكـن هنـاك حاجـة للاسـتيقاظ مبكـرًا، نمنـا- مثـل الإسـبان- حتـى الظهيـرة، فـي منتصـف اليـوم وأثنـاء تناولنـا نحـن الثلاثـة طبـق بائيـلا[4] مخصص لأربعـة أفـراد نهضت (آ) للحظـة اسـتغللتُها للحديـث مـع (ك) لإخبارهـا بأنـه فـي الليالـي التـي سـتقيم فيهـا بغرفـة بـدون دورة ميـاه، فعليهـا اسـتخدام تلك الموجـودة في الطرقـة، لـم تجـب (ك) بشـيء فـي البداية، ثـم قالت بصـوت منخفض وهي تمصمـص عظمـة أرنـب، "لـم أكـن آتـي بسـبب حاجتـي للتبول، كنت أشـعر بالخوف".

4- طبـق إسـباني شـهير يقـدم يتكـون مـن الأرز والخضـروات والأسـماك أو اللحـوم الحمـراء أو الدجـاج، يقـال إن أصولـه عربيـة وتعـود لحقبـة الأندلـس وأن كلمـة "بائيلا" مشـتقة مـن كلمة "بقيـة" أي بواقـي الأقـل مـن أرز وخضـروات وسـمك أو لحـوم التـي كانـت تضاف علـى بعضها لصنـع طبـق غـداء اليـوم التالي.

فوبيا الطائرات

طائـرات (ٍسـابينا) و(سـويس إيـر) و(مصـر للطيـران) كلها من النـوع ذاته، (دي سـي10-)، لكنهـا بـكل تأكيـد ليسـت مـن الموديـل ذاتـه، علـى الرغـم مـن أن جميعهـا نـوع واحـد، إلا أن طائـرة (مصـر للطيـران) تبـدو أكثـر قربـا لـ(أفيانـكا)[5]، كلتاهمـا تبـدو عليهـا علامـات الزمـن، أكثـر مـن عشـرين عامًا مـن التشـغيل تبـدو ظاهـرة، بلاسـتيك ممـزق وآثار صـدأ واهتـزازات مزعجة، عيـوب صغـرى ومصابيح لا تضيء أو لا تطفأ، الشـيب والتجاعيد وآلام الركبة، حينمـا تنتهـي الـدول الثريـة مـن اسـتخدام طائراتهـا وصـولًا لحالة الاسـتنفاد الكهربائـي والمعدنـي، فإنهـا قد تسـمح لشـركات العالم الثالـث بتأجيرها أو شـرائها، شـيخوخة الطائـرات مثـل شـيخوخة الجسـد؛ تمتلـك نقاطًـا حرجـة، يبـدو الأمـر جليًـا فـي المراحيـض حيـث تتسـرب الميـاه، وأيضـا مخـارج الطـوارئ التـي يتسـرب منهـا الهـواء البـارد، وإذا أوقع الحـظ أحدهـم في هذا المـكان فإنـه يتجمـد، أعـرف هـذا لأنـه فـي الرحلـة نحـو القاهـرة، كان مـن نصيـب (ك) الجلـوس علـى مقعـد بجانب مخـرج الطوارئ وكانت تشـكو من البـرد، كنـت أجلـس بعدهـا بصفيـن مـع (آ) وذهبت لــ(ك) ببطانيـة مقلمة وحينمـا بـدأت في الشـعور بالدفء سـمعتها تتحدث بحماس مع إسـبانيتين

5- الخطوط الجوية الكولومبية

جالستين بجانبها حول الموضوع التقليدي الذي دائمًا ما تتحدث عنه، الرقص الشرقي.

كانت هناك محطة توقف في رحلة (مصر للطيران) بلشبونة، أثناء تحليقنا فوق المتوسط كانت (آ) تتعافى من نومها السيئ في الليلة الماضية مستندة برأسها فوق كتفي، وتذكرت مأساة وقعت مؤخرًا لطائرة أخرى تابعة للشركة ذاتها، أدركت قبلها أنني رأيت الشعار الذي يميز (مصر للطيران) كغراب متشائم، مرسومًا أكثر من مرة فوق التوابيت القديمة في المتحف المصري بتورينو، إنه الطائر الذي يرافق الأموات في رحلتهم الطويلة نحو العالم الآخر، لا أدري إذا ما كان حورس الذي يعبر السماء فوق مركب الشمس؟ أم أنه سوكر الصقر الذي يجلب فألا مجهولًا؟ أهو بساط ريح الشرق الساحر؟ أم كنا على متن مقبرة؟ يبدو هيكل الطائرات مع نسيان أجنحتها أشبه بتابوت، بتابوت مصري في هذه الحالة.

تعد عملية قراءة وصف الحوادث، بالنسبة لمن يعانون من فوبيا الطائرات، مبهرة كقراءة رواية رعب، حينما يعثر الغواصون في النهاية على الصندوق الأسود (ولونه في الحقيقة مائل للبرتقالي) ويستخرج الخبراء آخر الكلمات المسجلة في القمرة، نقرأ باهتمام بالغ محاولات الطيارين البائسة والأخيرة للنجاة، تلك العبارة الأخيرة للاستغاثة بنداء الأم أو الرب ثم ضجيج تلك الضربة القوية وبعدها صمت تام، هكذا تكون نهايات الرواية، النهاية التامة.

الخوف والإحباط والأنفاس الأخيرة، تلك الكلمات التي نقرأها هي نفس ما يتعرض له من يعانون من فوبيا الطائرات مع كل فراغ أو تغير ضئيل في صوت المحركات، يوجد وقت بالكاد للوداع والنطق بعبارة، بذكرى، لأكثر من نحبهم في هذه الحياة، "لقد فقدت حياتي هنا، يا للأسف!"، أعرف أن أي ذعر يعد سخيفًا (بالنسبة لمن لا يشعرون به) وأنه ربما نواجه أخطارًا أكبر في سيارة الأجرة التي ستقلنا من المطار بعد رحلة الطيران، لكن المخاوف غير العقلانية لا يمكن مكافحتها بأطروحات عقلانية، المخاطر الحقيقية كان يتعرض لها مسافرو الماضي، الذين عبروا البحار في علب ثقاب صغيرة والصحاري المملوءة بقطاع الطرق سيرًا على الأقدام، وحدها فوبيا الطائرات هي ما يمنح صبغة من المغامرة لرحلات الطيران، الآمنة والتقنية والتقليدية للغاية.

تجمع مأساة طائرة (بوينج 767) التابعة لـ (مصر للطيران) كل المكونات اللازمة لصنع حبكة سينمائية، محاولا تهدئة نفسي، قررت أن أقص على (أ) ما حدث منذ وقت ليس بالبعيد على متن هذه الرحلة بالقرب من لونج آيلاند؛ المنطقة التي أصبحت مثلث برمودا الجديد، ليس لأسباب مجهولة، بل لكونها واحدة من أكثر المناطق في العالم تلوثًا في مجالها الكهرومغناطيسي، مكان تغزوه القواعد وعمليات الطيران والبحرية الأمريكية، شهدت هذه المنطقة، التي تحظى باهتمام عسكري والواقعة بالقرب من مطار (جيه إف كيه)، حوادث مأساوية لم يفصلها سوى عدة

شـهور وأسـفرت عن سـقوط المئـات من القتلـى، كانت تخص ثـلاث رحلات، (سـويس إيـر 111) و(تـي دابليـو إيـه 800) و(إيجبت إيـر 990).

توجـد فـي حادثـة (مصـر للطيـران)، التـي كانـت تسـيطر علـى عقلـي، مجموعـة مـن المصالح المتعارضـة، حيث إن كل من الشـركة وجميع طياري العالـم بأكملـه يرغبـون فـي اسـتبعاد عامِـل- لـن نقـول الخطـأ البشـري بـل الجنـون البشـري- والـذي وفقـا للبعـض سـيطر على مسـاعد الطيـار المصري جميـل البطوطـي ودفعـه لتحطيـم الطائـرة فـي المحيـط الأطلسـي، علـى الجانـب الآخـر يفضـل العسـكريون الأمريكيـون (الذيـن أمطـروا بإشـارات اللاسـلكي والـرادار المجـال الكهرومغناطيسـي للمنطقة، وفي بعـض الأحيان تسـببوا في ماسـات كهربائية بالطائـرات المدنية) هـذه الفرضية، التي تصب أيضًـا فـي مصلحة الشـركة المصنعـة، لأن الفرضية الأولى التي تمت دراسـتها كانـت تقـول إن السـبب وراء الحـادث هـو خلـل في جهـاز الدفع العكسـي، لنقـل إن إغـلاق التحقيـق بالقـول بـأن الطائـرة كان علـى متنها مسـاعد طيار مختـل، قـرر حصـد أرواح أكثـر مـن 200 شـخص مـن أجـل الانتحـار (ولكـي تحصـل عائلتـه علـى تأميـن بقيمـة 100 ألـف دولار) لم يكن ملائمًا بالنسـبة لشـركة الطيـران، لكـن فـي الوقـت ذاتـه ليـس مـن الملائـم بالنسـبة لهـا القـول إن وراء الأمـر عطـلًا فنيًـا قـد يرجـع إلـى عيـوب فـي الصيانـة، أكثـر مـا يصـب فـي مصلحة الشـركة هـو إرجاع الأمـر للأمطـار الكهرومغناطيسـية بالمنطقـة (مسـئولية العسـكريين الأمريكييـن) أو في النهاية لاعتداء يسـمح

بإلقـاء اللـوم علـى مسـئولي الأمـن بمطـار نيويـورك والمتطرفين الإسـلاميين أو اليهـود.

بالنسـبة لــ (بوينـج) لا يصـب فـي مصلحتها إرجـاع الأمـر إلـى خلـل أدى لعمـل المكابـح فـي غيـر توقيتهـا، فيمـا أن بقيـة طيـاري العالـم بـكل تأكيد لـن يحبـوا أن يأتـي أحدهـم ليقـول إن بينهـم مرضـى نفسـيين مسـتعدين للانتحـار بسـلاح معمـر بالمسـافرين، بعـد كل الفحوصـات الطبية والنفسـية التـي يخضعـون لها.

تفضـل (آ) حبكـة الانتحـار مثلـي، فرضيـة إقـدام رب عائلـة علـى التضحية بنفسـه لأن ابنتـه تعانـي من مـرض الذئبة الحمامية ولأنه على وشـك التقاعد (هـذه كانـت آخـر رحلة لـه) وفي ظـل عدم وجـود معاش ملائـم ومال كاف لعـلاج الطفلـة هـي الأكثـر إبهـارًا، علـى الرغم مـن عـدم كونها الأكثـر قابلية للتصديـق، وأكثـر مـا نحـب هضمـه نحن البشـر ليـس ما يبـدو الأكثـر صدقًا وصحـة، بـل الأكثـر أسـرًا للألبـاب، افتراضية الأمطـار الكهرومغناطيسـية التي تصيـب أجهـزة المراقبـة بالجنـون وتـؤدي لماسـات كهربائيـة تنتمـي لأرض المسـتقبل والخيـال العلمي، سـتكون هذه هـي القصة التي سـيفضلها أبنائي وإن كنـت أشـك أيضًـا فـي كونهـا الأكثـر صحـة، الروايـة التـي قصّوهـا علينـا هـي الأكثـر بقـاء فـي الذاكـرة لأنها إنسـانية وليسـت فنية.

قصصـت علـى (آ) مـا حـدث وبالمزيد مـن التفاصيل، يخـرج الطيار الأساسـي للحظـة مـا متوجهًـا نحـو دورة الميـاه ويترك التحكـم في يد مسـاعده، ينطـق الأخيـر كلمـات تبـدو سـحرية بالنسـبة لأي غربـي:

"توكلـت علـى اللـه"، ثـم يفصـل الطيـار الأوتوماتيكـي ويهبـط بالطائـرة نحـو الأطلسـي، يعـود الطيـار الأساسـي راكضًـا مـن دورة الميـاه وينجح فـي تعديل وضـع الطائـرة للحظـة، ارتفعـت قليـلا ولكن مسـاعده يهبـط مجـددًا بأجنحة الذيـل، لسـنا متأكديـن من أن هـذا هو ما حدث بالفعل، هـذا أمر مفروغ منه، لكننـا انبهرنـا بتخيـل المشـهد، لأنـه يوجـد صندوق أسـود أقـل إحكامًـا ولكنه أكثـر قتامـة مـن ذلـك الذي يخـص الطائـرات، صنـدوق أسـود نرغـب جميعنا فـي فتحـه وقراءتـه وتفهمـه وربمـا سـماع تسـجيلاته، هـذا الصنـدوق الأسـود يسـمى العقـل وهـو محاط بعظـام الجمجمة الهشـة، قصصت هـذا الأمر على (آ) وهـي نصـف نائمـة لكنهـا كانـت تفهـم مـا أقـول ونحـن نعبـر المتوسـط وكل فـراغ داخلـي يقنعنـي بأن جنون أي مسـاعد طيـار بائس قد يتكـرر، أقول هـذا أيضًـا لأن جنـون العربـي الـذي ينتحر هـو الفرضيـة التقليدية فـي العالم الأول ضـد العالـم الثالـث، عبـارة "البطوطـي" ليسـت غامضة بالمـرة ويكررها المصريـون مئـات المرات يوميًـا، وقراره بفصـل الطيار الأوتوماتيكـي ربما كان صحيحًـا إذا مـا حدث تداخل كهرومغناطيسـي أصاب أجهـزة التحكم بالجنون، لـم يكن مسـاعد الطيـار هو المجنون، مـن أصيب بالجنون هـو الكهرباء، على أي حـال وصلنـا هـذه المـرة في صحة وسـلامة للقاهرة، لم يعمـل جهاز الدفع العكسـي قبـل موعده، ولـم تصب أجهزة التحكـم الأوتوماتيكـي بالجنون، ولم يتخـلّ الطيـاران عن اسـتخدام عقليهمـا أو أقدما على الانتحـار بالطائرة، وككل مـن يعانـون من فوبيا الطائرات حينما خطوت فوق الأرض شـعرت بنشـوة من عـاد للحياة مـن جديد.

العربية

إنها الحادية عشر، عبرنا الصحراء والبحر دون رؤيتهما أو الشعور بهما، سابقًا كان المسافرون يكافحون الأمواج على متن قوارب شراعية هشة ويتخطون البيادي في قوافل مهددة من قبل البدو، لكننا وصلنا دون أي مغامرات أو مخاطر (باستثناء المخاطر الذهنية الناجمة عن ذعر سخيف) إلى قلب مصر نفسها، المحطة الأخيرة في هذه الرحلة، يجعل سحر الطيران قصة علاء الدين حقيقية، طلبتُ من جني المصباح السحري أن ينقلنا إلى مدينة المساجد والمآذن وقبل أن نتمكن حتى من التفكير جيدًا وجدنا أنفسنا هناك، وبما أننا في أراضٍ مسلمة تمكنت من الظهور مع زوجتيَّ دون أي مخاوف، أخذت جوازي سفرهما وتأبطت ذراع كل منهما وأثناء انتظارنا في الصف قصت علينا (ك) أنها تعرفت على إسبانية تنظم فصولا للرقص الشرقي في القاهرة، تأسفتْ؛ ففي بعض الأيام لن تخرج معنا لزيارة المعالم السياحية، لأنها سجلت نفسها بالفعل في هذه الفصول ولا يمكن لأحد إقناعها بالتخلي عنها.

كل المطارات متشابهة، كل الموظفين الذين يراجعون الوثائق متشابهون، كل الشكوك متشابهة وأيضًا كل الإجراءات الجمركية التي نخضع لها، ما يتغير هو ربما نوع التهريب الذي يتطلبه ويريده ويخشاه كل مكان، هناك قول مأثور في

مدينتـي هـو "لا تذهـب بالحطـب إلـى الجبـال"، ولهـذا لا يذهـب أحـد بماريجوانـا لكولومبيـا أو بحواسـب للولايـات المتحـدة أو بجبـن لفرنسـا أو بنبيـذ لإيطاليـا أو بثيـران لإسـبانيا، بـل بالكوكاييـن لـكل هـذه الـدول باسـتثناء الأولـى، مـا الـذي يمكـن جلبـه للقاهرة؟ اكتشـفنا هذا الأمـر فورًا، صديقـة (ك) الجديـدة، الإسـبانية، والتـي ترافـق مجموعة مكونة من عشـر فتيـات أتيـن لدراسـة دورة مكثفـة فـي الرقـص الشـرقي أُجبـرت علـى فتح حقيبتهـا، لـم تجلـب معهـا أوشـحة أو "تِرتِـر"، وأيضًـا ليـس ماريجوانـا أو كوكاييـن، بـل إن حقيبتهـا كانـت ممتلئـة حتـى الحـواف بهواتـف خلويـة، بـدأ النقـاش بصـوت مرتفـع ثـم نظـرتُ بغضـب إلـى (ك) ولكزتُهـا بكوعـي لكـي تتحرك.

أثنـاء ابتعادنـا عـن حناجـر رجـال الشـرطة بـدأ ذلـك مـا نصفـه في الإسـبانية بكلمـة ذات أصـول عربيـة أصبحـت تحمـل معنـى مسـيئًا وهـي algarabía، اللغـة العربيـة فـي الإسـبانية عبـارة عـن ضوضـاء سـيئة، وحدهمـا الجهـل والأحـكام المسـبقة المعادية للإسـلام هما ما جعـلا هـذه اللغـة الجميلـة تصبح- بالنسـبة لآذاننـا الحمقـاء وعديمة الخبـرة- مرادفًـا للضوضـاء، أعـرف أنـه طـوال شـهر كامـل سـترافقني تلـك الـ"خـاء" القويـة وتلـك الــ"لام" المُلحـة فـي ظـل سـيطرة كبيـرة لحـرف الـ"ألـف" كموسـيقى تصويريـة لا أفهمهـا، حينمـا نقلـد صوت العربيـة فـي كولومبيا نقول عبارة بسـرعة كبيرة مرتيـن متتاليتين هي

"باخالاخاولاخايمي، باخا-لا-خاولا-خايمي"[6].

هـذا كان تقريبا مـا سـمعت أن شـرطي الجمـارك يقولـه حينمـا أوقفنا، لاحـظ المصريـون أن (ك) كانـت تنظـر للإسـبانية بتعاطـف ولهـذا اضطـرت (ك) أيضًـا أن تفتـح حقيبتهـا، لـم تجلـب (ك) معهـا هواتـف محمولـة، ولكنهـا أحضـرت معهـا أدلـة كثيـرة علـى أكبـر هوسـين لديهـا، العنايـة بالبشـرة والتماريـن الرياضيـة، هـز رجـال الشـرطة رءوسـهم فـي دهشـة حينمـا شـاهدوا كميـة الكريمـات والمراهـم وسـوائل الغسـول ومسـتحضرات التجميـل والمنعمـات والمرطبـات وكريمـات الأسـاس الموجـودة فـي الحقيبـة ثم سـألوها: "هـل تفكرين فـي بيعهـا؟"، أظهرتْ لهـم أن كلهـا مفتوحـة ومسـتخدمة وكان هـذا هـو مـا أنقذنـا، مـا لـم يتمكنـوا مـن تصديقـه هـو أن (ك) أحضـرت معهـا جهـازًا، شـرحت لهـم (ك)- وكانـت هـذه أول مـرة نـدرك فيهـا نحـن هـذا الأمـر أيضًـا- أن هذه الأنابيـب السـوداء تكـون جهـاز شـبه منحـرف تمارس بـه تماريـن البطن، كانـت (ك) مسـتعدة للقيـام بشـرح فعلـي علـى المـلأ للتدريبـات، لكـن- لحسـن الحـظ- كانـوا قبلهـا بالفعـل قـد طلبـوا منـا الانصـراف.

قبلهـا أخـذ موظـف بيـن يديـه جـواز السـفر الخـاص بــ (ك)

6- Bajalajaulajaime. Baja la jaula jaime .. عبـارة بالإسـبانية ليـس لهـا مغـزى وترجمتهـا الحرفيـة "اخفـض القفـص يـا خايمـي"، ولكنهـا تسـتخدم كمـا قـال الكاتـب لمحـاكاة أصـوات أحـرف يـرون فـي كولومبيـا أنهـا تتكـرر كثيـر في العربيـة، مثل تلك العبـارات التي قد تسـتخدم هنـا عبـر نطقهـا السـريع لتحسـين الإنجليزيـة بـل وحتـى العربيـة مـع الأطفـال وصغار السـن.

وأخـرج لسـانه وبلـل بـه طابعًـا صغيـرًا مـرة تلـو الأخـرى ثـم ألصقـه فـي داخلـه، لكـن كان الطابـع مبلـلا للغايـة باللعـاب لدرجـة أن تلـك الورقـة بجـواز سـفر (ك) سـتظل مجعـدة للأبـد، كذكرى رطبـة ومموجة يسـتحيل محوها.

لـم نعـرف مـا هـو القـرار الـذي اتخـذوه بخصـوص الهواتـف المحمولة الخاصـة بالراقصـة التـي بقيـت فـي الخلـف، لا نـدري إذا مـا كانوا أسـالوا لعابهـم علـى إحـدى أوراق جـواز سـفرها كرمـز للاعتذار؟ أم أنهـم ألصقوا بلعابهـم طابـع الترحيـل؟ خرجنـا وبعدهـا بدقيقـة اسـتُبدِل ضجيـج الجمـارك بضجيـج عمـال الحقائـب وسـائقي الأجـرة، القاهرة، نعـم، أخيرًا وحقًـا أصبحنـا فـي القاهـرة.

المسافر الساكن

مدينة القاهرة الحبيبة، كنت أحب وجهك أكثر قبل أن أراه، عن جسدك، لا يمكنني التفوه بشيء حتى الآن، لأن رداء سميكًا وقاتمًا من الغبار يخفيك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، لكن ما زلتُ أرغب في الوصول والنظر إلى عينيك ونزع أحجبتك وتمرير يدي الفضولية فوق ظهرك الذهبي والتحدث عنك أو معك، أفضل العودة للماضي وتذوق قضمة أخرى من زمن الليالي التي تسبق العيد، فتلك أفضل من يوم العيد نفسه، فرهبة الاشتياق أكثر لذة من الاحتفال ذاته، مدينة القاهرة الحبيبة، دعيني أنزع أحجبتك واحدًا تلو الآخر.

كثيرة هي كلمات الغزل التي كتبت في القاهرة منذ قرون، فخصص لها الرحالة ابن بطوطة في زمن السلطان الناصر بالنصف الأول من القرن الرابع عشر هذا المديح: "أم المدن، سيدة الأرياف العريضة والأراضي المثمرة، لا حدود لمبانيها الكثيرة، لا نظير لجمالها وبهائها، تمتد كموج البحر بما فيها من خلق بالكاد تسعهم"، ولكن أشهر وأكثر ثناء تكرر لوصفها في كتاب (ألف ليلة وليلة): "من لم يرَ القاهرة لم يرَ شيئًا، أراضيها من ذهب، ونيلها معجزة، ونساؤها مثل حور العين، ومنازلها قصور، وهواؤها عليل، عبيرها أقوى من الصندل، تأسر القلب،

وبأي شكل آخر يجب أن تكون؟ القاهرة هي أم الدنيا".

يقـول المعلقـون إن ثنـاء الأمـس ربمـا يصبـح رثاء اليـوم؛ أو بالأصح أن أم الدنيـا تحولـت إلـى زوجـة أب عجـوز منفـرة، لكـن يمكـن قـول شـيء فـي صالحهـا، روعـة هـذه البقعة من الأرض هـو أنها في انهيار منذ خمسـة آلاف عـام إلا أنهـا لا تتوقـف عـن الإبهار.

قبـل السـفر كان المـكان لا يـزال وهمًـا؛ كأنـه خيـال يسـكنه هـوى بـلا جسـد، هـذا الهـوى كان يتغـذى بذكريـات الدراسـة القديمـة، قوائـم ممزقـة ومرقعـة عـن آلهـة ومعابـد وأهرامـات وأسـر حاكمـة وفراعنـة فـي دروس التاريـخ، تصـورات مشوشـة عـن نهـر يقطـع الصحـراء كنخلـة طويلـة خضراء فـي دروس الجغرافيـا؛ صواعـق الذاكرة فـي ليالي النسـيان، المماليك، محمد علـي، كليوباتـرا، صـلاح الدين، كتـاب الموتى، القـرآن، قناة السـويس، عايدة، الباشـوات، موسـى، ناصر، السـادات، دول عدم الانحياز، الإخوان المسـلمون، محفـوظ، قطـع متفرقـة مـن لغـز متسـع للغاية يصعـب حله علـى عقل غيم عليـه ضبـاب النسـيان وظـلام عـدم المعرفة.

كان حريـق- أو حرائـق- مكتبـة الإسـكندرية الكبـرى، مسـتودع كل المعرفـة القديمـة، واحـدة مـن أسـوأ المآسـي الثقافيـة فـي تاريـخ الإنسـانية، لأنهـا فـي عـام 300 قبـل الميـلاد، وفقًـا لبعـض الحكايـات، كانـت تضـم مـا يزيـد علـى سـبعمائة ألـف مخطوطـة، لكـن لحسـن الحـظ لـم تتعـرض كل المكتبـات للدمـار بفعـل الحروب أو الشـياطين الدينيـة، ومنهـا (المكتبـة العامـة) الموجـودة بذلـك الركـن المحطـم

فـي أمريـكا الجنوبيـة الـذي فكرنـا فيـه في بـدء الرحلـة، كان لا بـد أن يوجد هنـاك شـيء عن القاهـرة والمسـلمين ومصر القديمـة والحديثـة ودول عدم الانحيـاز والحـروب الخاسـرة أو تلـك التي انتهـت بالتعادل مع إسـرائيل، تبدأ الرحلـة مـع الكتـب التـي تتحدث عـن مكان الرحلـة، هناك وجـدت أندريس أولجيـن[7] وتويـن[8] وفولنـي[9] وفلوبير وكيبلينـج[10] وثاكري.

اكتشـفت- بـكل سـعادة- أن الكثيـر مـن المسـافرين إلـى مصـر كانـوا مـن المؤلفيـن الذيـن أسـروا أفـكاري، كل شـيء اصطبـغ بسـحر الكلمـات، كلمـات تخبرنـا عـن الغيـر، الكثيـر مـن المسـافرين الآخريـن والمغامريـن الحقيقييـن والفاتحيـن والمحاربيـن الذيـن وجهـوا خطواتهـم نحـو الأرض ذاتهـا التـي يمكـن وصفهـا بكلمـة واحـدة: "الهيراطيقيـة"! الهيراطيقـي هـو كل مـا هـو مقـدس وغامـض ومهيـب ويصعـب فـك رمـوزه، كل لغـز أشـبه بمغناطيـس؛ مصـدر جـذب قاتـل لا يمكـن مقاومتـه، يوجـد شـيء لا نعرفـه ولكـن هنـاك معنـى لـه، شـيء يسـجن سـرًا يمكـن فـك رمـوزه بالفطنـة والثبـات؛ الهيروغليفيـة علـى سـبيل المثـال، لكن أيضًـا الأحجبـة التي تغطي

7- شاعر ومترجم ودبلوماسي وناقد كولومبي من أبناء مدينة ميديين كان قد سافر إلى مصر وألف عنها كتابًا بعنوان "مذكرات مصرية" صدر في 1982.

8- مارك توين: كاتب أمريكي اشتهر بأسلوبه الساخر، فضلا عن زيارته لمصر في القرن التاسع عشر وكتابته عن الرحلة.

9- كونستانتين فرانسوا فولني: فيلسوف ومؤرخ ورحالة ومستشرق فرنسي ومن ضمن أعماله "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام".

10- روديارد كيبلينج: كاتب وشاعر بريطاني ومن أشهر أعماله "كتاب الأدغال" وزار مصر في عام 1929 وكتب أيضا عن هذه الرحلة.

جسـد النسـاء الهيراطيقـي الـذي لا يمكـن أن تنتهكـه حتـى العيـون، الأكثـر إحكامًـا هـو الحجـاب الآخـر، الثقافـي، الـذي يجب استكشـافه، وإلا سـنعود بنفـس العمـى. أسـر لغـز الهيروغليفيـة وديانـات مصـر القديمـة الجميـع، هيـرودوت وأفلاطون والإسـكندر الأكبر ويوليوس قيصـر وماركوس أنطونيوس ونابليـون، المـؤرخ والفيلسـوف والفاتـح الغـازي، كلهـم أرادوا الوصـول لتلك الأرض المبهـرة والإعجازيـة أو الاسـتيلاء عليها، غـزو الأرض النائية في ثقافتها لكـي تصبح قريبـة جـدًا علـى الخريطـة، حالـة شـاذة، وادي ضيـق أخضـر رطـب وخصـب فـي وسـط الصحـراء، أكبـر واحـة علـى وجـه البسـيطة، لأنها تنتصـب علـى أرض لا تمطـر فيهـا أبـدًا، جـرح غائـر مـن الشـمال للجنـوب، طعنـة مسـتقيمة مـن الخضـرة والميـاه، ندبـة طويلـة فـي أرض سـمراء لا تلتهمهـا رمـال الصحـراء الحمـراء التـي تهـب ببخرهـا المُجـدب.

ومـا السـبب وراء تلـك الحالة الشـاذة الرائعـة؟ تيار لا يتكرر؛ شـيء يتدفق منـذ سـنوات كثيـرة تسـبق مصـر القديمـة؛ ينبـوع ميـاه لا ينضب؛ نهـر مثل الإنسـانية ذاتهـا ولـد في قلب أفريقيا واسـمه النيـل، هكـذا وبالطريقة ذاتها التـي لا تـزال توجـد بهـا تسـاؤلات بـلا أجوبـة حول أصـل الإنسـان- حتى ولو كان معروفًـا أن الـرد: هنـاك فـي أفريقيا- فإنـه طوال آلاف السـنين ظل أصل النيـل لغـزًا، هنـاك قـول شـائع كان يُقـال فـي روما للسـخرية من أي شـخص يسـعى وراء أمـر مسـتحيل وهـو "إنه يبحـث عن أصـل النيل".

ربما لهذا السبب استدعى يوليوس قيصر، الذي لم يندم أبدًا على زيجاته المتعددة، أكوريوس أكثر رهبان مصر حكمة بعد أن استقر مع كليوباترا في قصر الإسكندرية ليسأله "وأين يولد النيل إذن؟"، كان هذا الراهب عالمًا أيضًا، لذا فقد تجنب الرد على ما يجهله، تجنب السؤال بقول ما هو معروف وما هو مجهول: "في أي بلد يولد، هذا أمر يتجاهله العالم، لم تقدر الشعوب على معرفة النهر طفلا، عن النيل يا قيصر ما يمكن قوله هو التالي، حينما يوجد عطارد في السماء بالنقطة التي تلتقي فيها كوكبة الأسد مع كوكبة السرطان، فإن مياه النهر لا تتوقف عن الارتفاع وتفيض في أوديتنا".

لا يهم كثيرا أين يولد النيل ولا أصله، بل كيف يتصرف، وما يميز هذا النهر أنه بخلاف البقية لا يرتفع منسوبه في الربيع أو الصيف بل في أكثر شهور الصيف حرارة، حينما تكون الأيام أطول من الليالي "ويتوقف ارتفاع منسوبه حينما تُساوي كوكبة الميزان العادلة بين طول النهار والليل"، بكلمات أخرى، وبالنسبة لروح عملية وعلمية، فالمهم هو معرفة أن منسوب النهر يرتفع بين يونيو وأكتوبر حينما تفيض مياهه ليزيد من خصوبة حقول الوادي ويُغرق الأراضي المنخفضة ويملأ القنوات ثم يعود بعد ذلك لمنسوبه، هذه هي المعلومة التي كانت مهمة حقًا بالنسبة لحياة المصريين اليومية، ولهذا فإنه في تلك السنوات التي لا يرتفع فيها منسوب مياه النهر، بناء على رغبة الآلهة أو كعقاب منها، فإن الفيضانات لم تكن تكفي، وكان المصريون يعلمون

أنـه سـتأتي شـهور مـن الجفـاف والجـوع، كمـا نعيـش نحـن اليـوم وأعيننـا معلقـة بعقـارب السـاعة، فـإن المصرييـن القدمـاء- وأيضـا المحدثيـن- كانوا يراقبـون مقيـاس النيـل، تلـك السـاعة المائيـة التـي تقيـس مسـتويات المياه بـدلا مـن الوقـت، فحينمـا يتصـرف النهـر كعادتـه، كريمًـا فـي مياهـه التـي يجلبهـا معـه مـن الجبـال الاسـتوائية النائيـة، يأتـي عـام آخـر مـن الحصـاد والوفرة.

بعـد زيارتنـا للمكتبـة بعـدة أشـهر سنسـير أنـا و(آ) حتـى مقيـاس النيـل بجزيـرة الروضـة؛ عمـود مـدرج بطـول 16 ذراعًـا يتوسـط بئـرًا عميقـة، كان المصريـون القدمـاء يمتلكـون مقاييـس النيـل الخاصـة بهـم - يمكـن رؤيـة بعضهـا فـي الأقصـر وأسـوان- لقيـاس مسـتويات فيضـان النهـر سـنويًا لإعلان إذا مـا كان هـذا سـيصبح عام البقرات السـمان؟ أم العجـاف؟ كانت الضرائب تفـرض وفقًـا لحجـم الفيضانـات، مقيـاس النيـل فـي الروضة عمـل أقرب في التاريـخ ويعـود لحقبـة الفتـح العربـي لمصـر فـي القـرن التاسـع، وإن كان السـبب وراء حالتـه الحاليـة هـو أنـه لـم يتعـرض لصيانـة منـذ ما يقـرب من مئـة عـام، حينهـا كان لا يـزال ذا فائدة، بل واسـتُخدم أيضًا أثنـاء فترة الهيمنة الإنجليزية، أما الآن فهذا لا يحدث، حيث إن بوابات ضبط التدفق التي كانت تسـمح بدخـول الميـاه من فتحـات مختلفة أغلقت تمامًا، فمنذ إنشـاء السـد العالـي فـي أسـوان- المعروف أيضًا باسـم (هـرم ناصر الكبير)- فإن مسـتوى ميـاه النيـل لـم تعد تحـدده الطبيعـة، ويتم الإبقـاء عليه مرتفعًا طـوال العام لضمـان موسـمي حصـاد علـى الأقل، تسـتخدم كل ميـاه النيل تقريبًـا في ري

الأرض السـمراء، لكـن حتـى الآن لـم تكتمـل رغبـة نابليـون: "إذا مـا كنـت إمبراطـورًا علـى مصـر، لـن تهـدر قطـرة مـاء واحـدة مـن النيـل فـي البحـر المتوسـط"، نيـل مـا قبـل الرحلـة أصبـح الآن تيـارًا ثابتًـا، سـابقًا، كان مثـل القلـب، ينقبـض وينبسـط، يمـلأ القنوات ويفيـض في الحقول ثم تأتي شـهور تقـل فيهـا وفـرة الميـاه، حينهـا كانـت تجمـع المحاصيـل وكان يجـب إخراج الميـاه بالسـواقي وأنظمـة أخـرى.

كانـت هنـاك مصيبتـان تهـددان مصـر القديمـة، كثـرة المياه مـع الفيضان الزائـد وقلتهـا مـع ذلـك المنخفـض، ولكـي لا تحـدث هـذه الطامـة كانـت هنـاك الكثيـر مـن الصلـوات والتضرعـات لإلـه كان تشـخيصًا للنهـر نفسـه، حابـي صاحـب اللحيـة والنهديـن الكبيريـن في الوقـت ذاته، لكـن النيل كان غالبًـا مـا يلتـزم بموعده السـنوي ويأتي بالكميـة المرجوة، ما لـم يكن يعرفه القدمـاء بدقـة هـو أن خصوبـة أراضيهـم لـم تكـن فقـط بسـبب الميـاه؛ بـل إن أرمـدة إثيوبيـا البركانيـة التـي تعرضـت للتعريـة لملايين السـنين على يد النيـل هـي ما أكسـبت أرض الدلتا وضفاف النهر السـمراء عمقهـا وخصوبتها، عديـدة هـي القصائـد التـي كتبـت في النهـر؛ ففي أربعـة مـن أوراق البردي واثنتيـن مـن لوحات الكتاب المصريين القدماء وصل لنا نشـيد النيل الشـهير ضمـن مخطوطـات الدولـة الحديثة؛ أي أنه بمعنى آخر يعـود إلى ثلاثة آلاف أو ثلاثـة ألاف وخمسـمائة عـام، يقـول النشـيد في أحـد أجزائه:

"أيهـا النيـل يـا مـن تـروي عطـش الصحـراء البعيـدة عـن الميـاه، يـا مـن تـروي الحقـول التـي خلقهـا رع لتجعـل الماشـية تحيـا، سـيد الأسـماك يا من تجعـل طيـور المـاء تركـب تيـارك، يـا مـن تنتـج الشـعير وتلـد القمـح لكـي ترتـدي المعابـد زي الحفـلات، إذا مـا تكاسـلت تنسـد أنوفنـا ويصبـح الـكل مسـاكين؛ يقـل خبـز الآلهـة ويمـوت ملاييـن البشـر، إذا مـا قسـوت أصـاب الرعـب كل الأرض وانتحـب الكبـار والصغـار. حينمـا تفيـض تبتهـج كل البلاد ويسـعد الجميع، تبتسـم الأفواه وترى الأسـنان لامعة، رسـول الطعام وميسـر الأغذيـة، خالـق كل شـيء جميـل، السـيد الكريـم طيـب المياه تباركـت كلما جئـت، يـا مـن تطعم الماشـية بالعشـب، يا من تمـلأ الصوامع، يـا من تعطي الفقـراء، يـا مـن باركـت الأشـجار بطولهـا لتخلـق السـفن بقوتهـا، لأنهـا لا يُمكـن أن تُصنـع مـن الحجـارة، حينمـا تفيض يصبـح الحزين سـعيدًا ويغتبط الجميع".

القـراءة مثـل السـراب، أقصـد أن الكتـب والبيانـات القديمـة لا تتحـدث عـن قاهـرة اليـوم؛ قاهـرة اليوم سـراب؛ أو تنقصهـا المياه وهو الشـيء ذاته، فالنيـل مـن النظـرة الأولـى لـه من بيـن غمامـة القاهـرة المدخنـة، ليس هو نهـر الكتـب الرائـع، يبـدو قاتمًا ومرهقًـا وربما مهزومًـا أمام ملاييـن وملايين الأشـخاص الذيـن يشـربون منـه ويسـتحمون بـه ويـردون الجميـل بجـزء جيـد مـن فضلاتهـم، لكـي نـرى نيـل الكتـب سـنضطر للانتظـار عـدة أيـام حينمـا تأخذنـا الرحلـة ضـد التيـار نحـو الجنـوب، حيـث لا يـزال النيـل كمـا كان، هنـا لا، لـم نشـعر أبـدًا بالحنيـن إلـى الميـاه فـي حياتنـا، كمـا كان عليـه الوضع في

القاهـرة، هنـا تصبـح الحاجـة للخضـرة خانقـة، والاشـتياق للأمطـار هائـلًا، الأمطـار التـي تبلـل الحقـول وتنظـف الهـواء وتغسـل التـراب وتزيـل الرمـال وتبـدد الدخـان.

القاهـرة لا تـزال ناجيـة بفضـل النيـل، لكـن النهر مجـرد تيار وليس رشاشًـا للميـاه، الأمطـار هـي رشـاش المياه وكل شـيء هنا ينقصه الاغتسـال، لا تقدر المبانـي علـى الاسـتحمام بالانغمـاس فـي النهـر ولا الشـوارع ولا الأرصفـة، فـكل شـيء مغطـى بالتـراب والرمـل، لـذا فإن كل شـيء يحتـاج إلـى "دُش"، هـذا هـو الانطبـاع الأول، هنـا لا تمطـر مياهًـا بـل ترابًـا، ورائحـة الهـواء دون دُش الميـاه المنظـف هـي دخـان المصانـع وعـوادم السـيارات، يعيـش مـا يقـرب مـن 17 مليـون نسـمة- ربمـا تكـون البيانـات الديموغرافيـة غيـر دقيقـة، حيـث يتـراوح التعـداد بيـن 16 و19 مليونًـا، وفقًا لطريقة الحسـاب- يعيشـون هنـا بـكل دخّانهـم وقماماتهـم ودون المياه التي تطهر، أول شـعور تملكنـي كان فظيعًـا، قاومـت رغبتـي فـي التنفـس، رفـض جسـدي هـذا وانسـدت أنفـى وبقـت رئتـاي فـي منتصـف الطريـق، وعانيت فـي كل الأيام التاليـة لـي بالقاهـرة مـن حالـة ربو نفسـية، لأنني لـم أرغب فـي تنفس هذا الهواء.

بالنسـبة للمصرييـن فالأمـر مختلـف تمامًـا، فـإن مناخهـم الجاف الخالـي مـن الأمطـار لم يكـن عيبًا بل بركـة، فالأمطـار عندهم كانت مجـرد نـزوة أخـرى قـد تتركهـا الآلهـة فـي أي لحظـة، هـذا هـو مـا عرفـه هيـرودوت منهـم منـذ ألفين وخمسـمائة عـام، حينما سـمعوا

أن كل أرض اليونـان كانـت رطبـة بفعـل الأمطـار قالـوا: "سـيأتي اليـوم الـذي يشـعر فيـه اليونانيـون بالإحبـاط مـن أملهـم الضخـم، وحينهـا سيشـعرون بمأسـاة الجـوع الكبيـر"، أي كأنهـم قالوا: "إذا ما توقف الـرب يومًا عن ضمان الأمطـار لليونانييـن وفـي المقابل ضربهـم بجفاف كبير فإنهم سـينمحون من علـى وجـه البسـيطة بفعـل الجـوع والجفـاف لأنهـم لا يمتلكـون شـيئًا آمنـا يمكنهـم الوثـوق بـه إلا أمطـار جوبيتـر، وليـس لديهـم مصـدر آخـر للمـاء"، اعتبارهـم أن تيـار النيـل مصـدر ميـاه أكثـر اسـتمرارية وضمانًـا مـن أمطارنـا لـم يـأت من فـراغ.

فـي إحـدى الليالـي حينمـا كنـا نتنـزه فـي شـارع كورنيـش النيـل الجميـل، حدثـت المعجـزة الاسـتثنائية، بـدأت قطـرات بسـيطة وخفيفـة مـن الميـاه فـي التسـاقط، ارتجلـت (ك)- بـكل حبهـا المعـروف للتمايـل- رقصـة وهـي تقفـز وتـردد كلمـات أغنيـة "الغنـاء تحت المطـر"، لتـرد (آ) بابتسـامة مليئة بالشـك "المطـر فـي القاهـرة"، توقـف بعـض الأشـخاص لمشـاهدة (ك) التي تظاهـرت بحمـل مظلـة وأشـاروا إليهـا ثـم ضحكـوا، لم يسـتمر سـقوط رذاذ السـماء سـوى دقيقـة واحـدة، كانـت مجـرد قطـرات هزيلـة مشـتتة تتبخـر بمجـرد سـقوطها علـى الأسـفلت، لـم يصـدق القاهريـون حتـى سـقوطها، نظـروا بـلا مبـالاة إلـى سـمائهم القاحلـة، التـي تعـد انعكاسًـا لصحرائهـم، حيـث كانـت تمـر سـحابة بيضـاء تحملهـا الريـاح، خاضعـة بيـن القلـق والعجـز، لا توجـد بالوعـات فـي شـوارع القاهـرة لصـرف ميـاه الأمطـار، فهـي فـي الأسـاس غيـر ضروريـة لأنهـا لا تسـقط أبـدًا، بـل إن بيـوت النوبـة

(جنوبًا) ليست بها حتى أسقف، لأن الأمر الوحيد الذي يسقط من السماء الزرقاء هو بريق النجوم، وما من شيء قد يؤدي للشعور بالبلل والاستياء، لا يوجد أي مكان للمعاطف أو المظلات في مصر، هذا الرذاذ الخفيف، الذي لا يجعل الجسد حتى يبتل؛ ذلك الندى الذي مس أنف (ك)، ذكرني بموطني الذي قد تمر فيه شهور وشهور دون أن يأتي يوم واحد يخلو من الأمطار، تذكرت "تشوكوه"، وهو أحد أكثر الأماكن رطوبة على وجه البسيطة، والذي تبلغ فيه كمية الأمطار التي تسقط في دقيقة واحدة ربما ما يسقط بمصر طوال عام كامل.

إنهما عرضان متناقضان، الغابة الرطبة بشلالات الأمطار التي قد تتركك خضلا في ثوان قليلة، والصحراء بزرقتها سمائها الحادة في الأعالي وصفرة رمالها على الأرض؛ ذلك الجفاف الذي لا تكسره سوى قطرات العرق، عرضان متنافران جعلاني أظن في لحظة أنني تواجدت في كوكبين مختلفين، الصحراء وتشوكوه!

إذا لم تذهب لن ترى

ما إن وصل فلوبير إلى القاهرة، حتى شعر بالرغبة في العودة إلى نورماندي، كان يرغب في التخلي عن عيش الرحلة ليبدأ في رواية كل هذا، مساوئ السفينة وقسوة امتطاء الحمير وغبار الصحراء والرياح الرملية وشمس المتوسط العمودية عديمة الرحمة، الفوارق بين شرق المخيلة والرغبة، والشرق الحقيقي هائلة، والإحباط هو واجهتها، لم يعترف بهذا الأمر مباشرة في خطاباته، لكن رفيق الرحلة وصديقه المصور ماكسيم دو كامب يقص الأمر دون كلمات منمقة:

"منذ أيامنا الأولى في القاهرة، لاحظت إرهاقه وضجره، هذه الرحلة التي داعبنا حلمها زمنًا طويلًا والتي بدا تنفيذها مستحيلًا، لم تكن الآن ترضيه، كنت واضحًا معه وقلت له، إذا ما كنت ترغب في العودة لفرنسا سأترك الخادم لكي يصحبك، ولكنه أجاب: لا، لقد بدأتُ الطريق ويجب عليَّ خوضه حتى النهاية، تولَّ أنت مسئولية خط الرحلة وسأتبعك، لم أعد أبالي إذا كنا سنذهب يمينًا أم يسارًا".

أعترفُ بتدفق مشاعر النفور والرفض وربما وجود رغبة داخلي في الهرب عند وصولي، لم أكن أرغب في التواجد هنا وسط الغبار والأدخنة والضوضاء وكل هؤلاء الفقراء، بل كنت أرغب في

الرحيـل! القاهـرة صعبـة وقاسـية لدرجـة جعلتني أشـعر بأمر لم ألمسـه من قبـل وهـو اشـتياقي لميدييـن، يـرى أحـد نقـاد العجائبيـة أن الشـرق أشـبه بحلـم بالنسـبة لنـا، ولكنـه حينمـا يتحقـق قـد يتحـول إلـى هـراء، بـدلا مـن الرحيـل أقنعتنـي عبـارة سـمعتها فـي (غـدًا سـيحدث)[11]، أحـد أكثـر الأفـلام الإيطاليـة المحببـة لـي وتقول: "إذا لم تذهب لن ترى"، سـيكون أسـوأ شـيء أن تذهـب وتعود دون أن ترى شـيئًا، لهذا قلت لنفسـي أنـا أيضًا: "لقد بدأت طريقًـا وسـأخوضه حتـى النهايـة، إذا لـم تذهـب لـن تـرى"، نظـرتْ زوجتاي إلـيَّ، بذلـك التفـوق الأنثـوي الـذي يتخطـى كل المسـاوئ ويتحمـل جميـع الآلام بشـكل أفضـل، وهمـا لا تصدقـان أنني أشـكو مـن الهواء الذي أتنفسـه وهـذه الضوضـاء المزعجـة أو تلـك الرائحة النتنـة أو مرارة الحلـق، تضحكان لأجـد فـي ضحكتهمـا أن كل الأمـور أقـل خطـورة مـن ظنـون البدايـات، وأن المـرء بإمكانـه الاعتيـاد علـى أي شـيء، بـل وأنـه- بعيـدًا عـن الانطباعـات الأوليـة- يمكنـك أن تذهـب لمـا هـو أعمق، وخلـف ضحكهما انغمسـتُ في الحياة.

القاهـرة ليسـت مدينـة رتيبـة ولكنهـا بـكل تأكيـد أحاديـة اللـون، وصفهـا فلوبيـر بأنهـا "لا ترحـم الأعيـن"، حينمـا تشـاهدها مـن بعيـد فـإن كل الأشـياء تبـدو بألـوان متطابقـة، النـاس والمنـازل والمبانـي والأهرامـات والجبـال، إنهـا خليـط مـن الأتربـة، التراب الأسـود للأرض الخصبـة وتـراب الصحـراء المائـل للحمـرة، وهمـا السـبب وراء ذلـك

11- اسم الفيلم بلغته الأصلية هو Domani accadrà

الشحوب الدائم في مظهر الناس وواجهات المنازل، أرضها لا تخلو مطلقًا من الغبار وكذلك النوافذ التي لا تشف أبدًا عن شيء، شوارعها مضطربة وفواكهها ذابلة وأشجارها القليلة تعاني من المهانة، لا تسقط أمطار تنظفها من الرياح الرملية التي تهب عليها، لكن على الرغم من هذا، فإن لها بريقها في الصور، كما سبق وتحققت قبل السفر في الكتب وكما تحققت لاحقًا في صوري حينما عدت من الرحلة، كنا في فصل الشتاء وكان مناخ القاهرة مقبولًا، البرد ليس قارسًا ليلًا والحرارة معتدلة في أغلب ساعات النهار، استخدمت نظارة شمس للحماية من الضوء، الذي يعد أكثر من اللازم بالنسبة لشخص مثلي قادم من مناخ استوائي في غياب غيوم تعمل على كسر حدته، وسترة خفيفة مناسبة لهواء الليل، أثناء الساعات الأولى من الصباح والمساء تكون الحرارة جيدة، في منتصف اليوم تبدأ تُخمن كيف يبدو فرن الصيف الحقيقي، وتهب بعض دوامات الرياح التي ترفع التراب والقمامة وتجعلك تفهم العذاب الذي يجب أن تكون عليه "الخماسين"، أو تلك العواصف الترابية التي تهب في الربيع.

جاءت أيام الدوسنتاريا التي لا يمكن تجنبها، "اركض قبل أن ألحق بك"، هكذا نُعرف الأمر في بلادنا، ذلك الإسهال الذي يصعب إيقافه والذي يأتي مصحوبا بتقلصات مؤلمة في البطن تجبرك على تغيير طريقك مجددًا بكل بؤس نحو الفندق، كم من سائح شوهد يتسابق ليطلب مفتاح غرفته بصوت هامس متحشرج يعرفه موظفو الاستقبال أجمعون، أو وهو يستدعي

المصعد ضامًا ساقيه خائفًا وعلى وجهه ترتسم نظرة بؤس بالغ كأنه يحتضر! ترى السماء وتشعر بالحرية حينما تتخلص من ثقل كارثة تلك الفضلات السائلة القاتمة، يحدث الأمر ذاته في المكسيك وكوبا والهند ونابولي، بل وفي كولومبيا نفسها بالنسبة للغرباء؛ فكل دولة تمتلك عالمها الخاص من البكتيريا في خضرواتها ومياهها، الأمر ليس قاتلًا ولكنه ببساطة يهاجم الأجسام التي لا يعرفها، هي تأشيرة ضرورية يجب أن تحصل عليها، وقد يستغرق استخراجها يومًا أو اثنين، حالة من التأقلم الإجباري للجسد التي يسدد ثمنها عبر الألم والضيق والروائح الكريهة، بعد تخطي هذه العقبة التي لا يمكن تجنبها؛ عملية التطهير الحادة التي تحرك من كل ما هو قديم داخل أمعائك وتجعلك مستعدًا لهذا العالم الجديد وتأقلم وتثري معدتك بعالم بكتيري مختلف، وعقب انخفاض كراهية النظرة الأولى الموجود في عينيك، تبدأ في تأمل الروعة والكنوز المخفية بين الحشود والغبار، يجب أن تنفض الغبار والرمال من على الآثار والمباني والشوارع ذاتها، كمن ينظف منزله بعد شهور من الغياب، يجب على من يرغب في هذا الأمر، داخل تلك المدينة المتسعة، أن يتحلى بالخيال، حينما تنفض عن القاهرة الرمال التي تغزوها وتغطيها، تبدأ في نزع أحجبتها، لتظهر الروائع، هكذا بدأنا تأقلمنا.

كان فلوبير قد ترك لحيته تنمو وقرر قص شعره بالكامل، وبالنسبة لي اكتفيت بتقليد الأمر الأول فقط، ولكن بالنسبة للمظهر العام فقد تعرضت لشيء مطابق حكاه بنفسه، "الشمس

قـررت فـي النهايـة تـرك بصمتهـا علـى بشـرتي، أصبـح لونـي برونزيًـا (وهـو مـا أعجبنـي) وازداد وزنـي (وهـو مـا أزعجنـي)، وأصبحـت أنـام 10 سـاعات متتاليـة دون اسـتيقاظ".

البطـن الممتلـئ واللـون القمحي واللحيـة والجلابية، ذلك الـرداء التقليدي لرجـال ونسـاء العالـم العربـي، كلهـا أمـور كانـت يجـب أن تمنحنـي مظهـر أحـد الباشـوات، ولكـن لاحظـت أن اللحيـة وبقيـة التنكـر كلهـا أمـور لم تعد علـيَّ بالنفـع، أنـا مجـرد سـائح آخـر، ذلـك المسـافر الأحمـق الذي يسـتطيع الـكل تمييـزه مـع رغبـة فـي محاولـة اصطيـاده ببضائعهـم الرخيصـة، اللّحية لـم تعـد شـائعة فـي القاهـرة ولهـذا أطلقـوا علـي اسـم سـاخر، "علـي بابا!"، يفضـل المصريـون بشـكل عام قـص اللحية؛ فاللحيـة الزائدة عـن الحد مثيرة للشـبهات، وأكثـر شـيوعًا بيـن الأصولييـن وهو الأمـر الذي قد يكلفك شـكوكًا وأسـئلة مـن قبـل الشـرطة، يميـل الأصوليـون لحلـق شـعر رأسـهم بالكامـل وإطالـة اللحية، شـيء شـبه متوحـش، يرتـدي الأصوليون الملابـس التي تعود لحقبـة رحلـة فلوبيـر، ولكـن فرضيـة الخلـط بينـي ومتشـدد مصـري صعبـة للغايـة، فـكل التفاصيـل أظهرتنـي كأجنبـي والجميـع جعلنـي أدرك هـذا، بالنسـبة لفلوبيـر فإن اسـتخدام ملابسـه الغربيـة كان مظهرًا لفـرض الاحترام، حاليًـا الأمـور هكـذا وعكسـها فـي الوقـت ذاته.

أصـررت فـي مـرة علـى ارتـداء قبعـة صغيـرة فـوق رأسـي ولكن الأمـور سـاءت، حيـث إن النتيجـة التـي تمخـض عنهـا الأمـر هـي

مظهـر يهـودي، كانـت ترجمتـه البصـق المتكـرر أمامـي كلمـا سـرت فـي الشـارع، كان يجـب التخلـي عـن حلـم آخـر وهـو أن أكـون شـاهدًا مجهـولًا، كان يجـب نسـيان الرغبـة المسـتحيلة في أن تمـر دون أن يلحظك أحد، هذا الأمـر ليسـت فـي قائمة الاحتمالات هنا بالنسـبة لأي شـخص غريب المظهر، يـراك المصريـون ولا يتجاهلونـك ثـم ينظـرون إليـك وينادونـك ويداعبونـك ويعرضـون عليـك المسـاعدة بـدون رغبـة حقيقيـة وأيضًـا يضيعـون وقتـك، يجذبونـك مـن ذراعـك ويحدثونـك عـن قـرب (سـتلاحظ أنفاسـهم، أنفـاس رمضـان القويـة) ثـم سـيبتكرون حيـلًا لإدخالـك فـي أحـد المتاجـر، كنـت أظـن أن سـفري مـع امرأتيـن فـي القاهرة لـن يجعلنـي أبدو بمظهـر غريـب، افترضـت عبـر جهلـي البريء أن هذا الأمر هو الأكثر شـيوعًا هنـا، مثل هؤلاء الرهبـان الكاثوليكييـن الذيـن يصبحـون إنجيلييـن بيـن يـوم وليلـة ليتمكنـوا مـن التـزوج وتجنـب التبتـل، هكـذا كنـت قـد قـررت- علـى الرغم مـن عدم كونـي شـخصًا متدينًـا- أن أظهـر كمسـلم لكـي أزهـو بتلـك الجائـزة، هاتيـن الزوجتيـن، إنهـا حماقـات، تعـدد الزوجـات هنـا، كما شـرح لي سـليم بعدها بأيـام يمـارس فقـط مـن قبـل الفلاحيـن البسـطاء والمليونيـرات المتعصبيـن وبعـض المرفهيـن والكثيـر مـن الرجـال الطيبيـن. هـؤلاء الرجـال الطيبـون هـم مـن أحيانـا يتزوجـون بزوجـات أشـقائهم بعد ترملهـن (لا يفعلـون هذا لأسـباب جنسـية، بـل للتضامـن وتوفيـر متطلبـات المنزل دون أن يمسسـهن حتـى)، أو ربمـا بقريبـة عزبـاء فقيـرة يمكنهـا المسـاعدة في أعمـال المنزل، ولكـن بوجـه عـام فـإن رخصـة تعـدد الزوجـات الموجـودة فـي الإسـلام

لا تمارس هنا بشكل كبير.

حينما كنت أسير في الشوارع بصحبة (آ) و(ك)، كان المصريون يسألونني مرة تلو الأخرى وهم يشيرون إليهما بعلامة النصر ليتردد ذلك السؤال الرقمي الذي سمعته بكل اللغات "اتنين؟Two? Dos? Due? Deux?"، وحينما أجيبهم بالتوكيد أو "أيوة" كما يقولونها، كانوا يعرضون عليّ على سبيل المزاح شراء إحداهن، لأسمعهم لاحقا يقولون إن رجل واحد شيء قليل جدًا بالنسبة لامرأتين، وهذا أمر لا يمكنني معارضتهم فيه.

تأتي لحظة يتخلى فيها المرء عن مقاومته المبدئية، وبشكل ما يبدأ في التأقلم على مساوئ التواجد في مكان مختلف عن ذلك المعتاد، إنه ذلك الهجر السعيد، نفس ذلك الإحساس الذي شعر به فلوبير: "أعيش مثل النبات، أعتمد على الشمس والضوء والألوان والهواء العليل وتناول الطعام، هذا هو كل شيء، لاحقًا سيجب علي هضم كل هذا وهذا هو أهم شيء"، لم يتحول الحلم وهضم الشرق في النهاية إلى خراء، يقول فلوبير في خطاباته لوالدته: "ترغبين في معرفة إذا ما كان الشرق على مستوى توقعاتي؟ هو على هذا المستوى وتخطى سعة افتراضاتي، وجدت ما كان بالنسبة لي أمورًا ضبابية مرسومًا بكل وضوح، الأفعال حلت محل الأفكار، لدرجة أنه في بعض الأحيان يبدو الأمر كأنني وجدت نفسي مجددًا مع أحلامي القديمة". بالنسبة لي كانت الأمور مختلفة، فإن سراب الكتب أصبح السراب الأكثر واقعية للقاهرة، لم يدم انتقام توت عنخ آمون وقتًا طويلًا، لا يجب أن أكون شاهدًا عن بعد، بل يجب أن

أتعـرف علـى مصرييـن معينيـن، بـدأت فـي الاتصـال بصديـق صديـق لـي كان معـي رقـم هاتفـه، إنـه حامـد أبو أحمـد، ولكـن أجابتني سـيدة، تحدثنا بالإنجليزيـة وكانـت الإجابـة، "أبـو حامـد ليـس فـي المنـزل"، ولكنّها سـتترك له رسـالتي.

الفنادق

أدلتـي السـياحية قديمـة بعـض الشـيء؛ هـي بوجـه عـام كتـب رحـلات تعـود للقـرن التاسـع عشـر، ولهـذا وصلـت للقاهـرة منتويًـا المبيـت- لليلـة واحـدة لـو كان الأمـر باهظًـا- في فنـدق (شـيبرد)، أكثر الفنـادق التي أوصى بهـا رحالتـي، كنـتُ قـد شـاهدتُ صـورًا قديمـة لقاعاتـه المغطـاة بالسـجاد الفارسـى ولسـيدات جميـلات دون حجـاب يتجاذبـن أطـراف الحديـث مـع رجـال بعمائـم فـي بهـوه الخارجـي الواسـع؛ لنراجيـل وسـجائر مشـتعلة وكئوس مليئة بالكونياك وأجسـاد واعدة تكتسـي بفسـاتين من أقمشـة التُل؛ لرجـال إنجليـز وقوريـن متنكريـن فـي هيئـة مستكشـفين؛ وأخـرى لشـرفته المذهلـة وسـقفه العالـي وأثاثـه الفاخـر، كل رفاهية الشـرق، التـي يحلم بها الغـرب، والمبتكـرة عمـدًا كأحـد أسـباب الجـذب الإضافيـة، فـي الحقيقـة لم أكـن أتوقـع أن أجـد شـيئًا مشـابهًا، لأن الواقع لا يبـدو أبدًا مثـلا الصور، ولأن قرنًـا مـن الزمـان هـو قـرن مـن الزمـان، ولكـن كنـت أتوقـع بقـاء شـيء مـن أجـواء المسـتعمرين الإنجليـز والأفلام الصامتـة بالأبيض والأسـود، ولهذا أثناء وجـودي فـي المطـار، وفي لحظة سـريعة بين ضوضـاء بالعربيـة هنا وأخرى هنـاك، حجـزت غرفتين بفندق (شـيبرد) وحـددت إقامتنا هنـاك لليلة واحدة بسـبب سـحرهما الباهـظ، ليلـة مـن الملـذات الشـرقية، هكذا قلت لنفسـي، ولكـن حينمـا وصلـت للمـكان وجـدت أن الفنـدق لـم يعـد كمـا كان، لا

يتعلـق الأمـر بأنـه تدهـور؛ هـذا كان ليصبـح أمـر جيـدًا وطبيعيًا، بـل إن كل مـا تبقـى مـن الفنـدق الإنجليـزي القديم بـكل بسـاطة كان هو اسـمه فقط، تلـك النسـخة الجديـدة مـن (شـيبرد) كانت بـكل تأكيـد أكثر راحـة ورفاهية ممـا كان عليـه الأمـر منـذ قـرن، ولكنهـا كانـت نسـخة أخـرى، مبنـى حديث متعـدد الوظائـف مرتفـع وبـارد ونظيف مثـل المستشـفيات، بعدمـا أصبحنا فـي الغرفـة (المطابقـة لـكل تلـك الموجودة على مسـتوى العالـم في فنادق الخمـس نجـوم الجيـدة بجميـع مهامهـا الوظيفيـة)، وعقـب ممارسـة (ك) لتمريـن البطـن 300 مـرة ودهـان كريماتهـا الـ17 علـى كل أركان ومخابـئ جسـدها الأسـمر، أخرجـت كتابًـا أحدَث بعض الشـيء عن القاهـرة، ووجدت السـبب وراء الأمـر، يـوم السـبت الأسـود، الـذي اكتسـب هـذا الاسـم بسـبب اللـون الـذي اصطبغـت بـه السـماء ضمن عـدة أشـياء أخرى.

تلـك المظاهـرات الشـعبية الكبيـرة التـي وقعـت فـي 26 ينايـر 1952، وأضرمـت فيهـا جمـوع مـن القاهريين النيران فـي كل البنايـات ذات الصيت الإنجليـزي أو الغربـي، وذلـك بعـد وقـت قليـل مـن قتـل الإنجليـز، الذيـن كانـوا يحتلـون بـكل تعسـف قنـاة السـويس، لــ50 شـرطيًا مصريًا فـي مدينة الإسـماعيلية، تصاعـد التمـرد ومعه غضب آلاف ممن شـعروا بالـذل والمهانة ولجـأوا لأعمـال النهـب والإحـراق والتخريـب، ليوم واحـد اتحد الجميـع معًا، الشـيوعيون والإخـوان المسـلمون والقوميـون والشـعب المحبـط، أضرمـوا النيـران فـي كل شـيء داخـل واحـد مـن حمامـات الـدم واللهـب والتنفيـس عـن الضيـق التـي ترتكبهـا الجمـوع فـي كل الـدول حتـى ولـو لمـرة واحدة،

كان الأمـر مثـل أحـداث الـ"بوجوتاثـو"[12] أو الـ"كاراكاثـو"[13] أو التمرد الكبير الـذي شـهده فلوبيـر قبلها بقرن في باريـس، حيث اسـتيقظ القاهريون وهم يرغبـون فـي قتـل كل الأجانـب وإحـراق كل مـا يبـدو متأثـرًا بالغـرب، دور السـينما والمسـارح ومتاجـر الموضـة والمقاهي وشـركات الأعمـال والتجارة، وبـكل تأكيـد فنـدق الإنجليـز (شـيبرد)، الذي كان تحـول إلى ملجـأ لموظفي وضبـاط الأسـطول الاسـتعماري البريطاني، لحقـت أضرار خطيرة بـدار الأوبرا الكبيرة، التي أمر إسـماعيل باشـا بتشـييدها احتفالا بتدشـين قناة السـويس، والتـي كانـت سـتُفتتح بعـرض أوبـرا (عايـدة) التـي تـم تكليف فيردي أشـهر موسـيقار حينهـا بتلحينهـا، ولكـن الإيطالـي لـم يتمكن مـن إنهـاء العمل في الوقـت المناسـب لتعـرض بعدهـا بعـام، تمكن رجـال الإطفاء، الذيـن لا يزال مقرهـم المركـزي يقع على بعد عدة مربعات سـكنية مـن المكان، من إخماد النيـران التـي كانـت سـتلتهم الهيـكل الخشـبي، لـن يمـر وقت طويل- عشـر سـنوات تقريبـا- ليصبـح هـذا المبنـى بعدهـا عبـارة عن رمـاد وبـات الموقع اليـوم يحتـوي علـى واحـد مـن تلـك التماثيـل الحديثـة المُنفـرة ذات معايير الجمال القبيحة، وشـيء غربي للغاية مثل المسـرح، مرآب سـيارات من عدة

12- مظاهرات تخللها أعمال شغب وعنف وقعت في العاصمة الكولومبية بوجوتا في التاسع من أبريل عام 1948 واستمرت قرابة 10 ساعات لكنها أسفرت عن خراب نصف المدينة تقريبا.

13- احتجاجـات وقعـت فـي العاصمة الفنزويليـة كاراكاس في 27 فبراير 1989 واسـتمرت لمدة أسـبوع واشـتملت علـى أعمـال نهـب وعنف وقتـل واغتيـالات كان أغلـب تلك الأخيـرة على يد قـوات الأمـن والعسـكريين وكانـت الشـرارة وراء اشـتعال الأحـداث إصلاحات اقتصاديـة فرضتها الحكومـة تضمنـت زيادة أسـعار الوقـود والنقل.

طوابـق، لـم يفكـر أحد في إشـعال هـذا المبنى لأنه وبشـكل مثيـر للفضول، يُنظـر للأوبـرا كشـيء غربي أما السـيارات الحبيبـة فهي ليسـت كذلك، يوجد كيـان غاضـب آخـر يهـدم دون تفرقـة كل مـن البنايـات القبيحـة والرائعـة وهـو الزمـن، ولكـن يبـدو أن الإنشـاءات الكبـرى لقدمـاء مصـر كانـت أكثـر مقاومـة لهجومـه، لـن أتحـدث الآن عن الأهرامـات أو المعابـد أو المصاطب أو المقابـر ومقاومتهـا التـي لا تنكسـر لآلاف السـنين، حيـث يجـب علـي أن أواصـل قصـة فنـادق (شـيبرد) و(شـيراتون) أو المنـازل الخياليـة بـل المقابر المؤقتـة التـي نعيـش فيهـا نحن معشـر المسـافرين.

فـي الصبـاح التالـي، وبعدمـا اتضـح أن مـا قرأتـه عـن فندق (شـيبرد) كان مجـرد شـرح أسـفل صـورة فـي كتـاب قديـم، قررنـا الانتقـال بحلـم ملذاتنـا الشـرقية نحـو القصـر الـذي بـدأ إسـماعيل باشـا[14] فـي تشـييده عـام 1863 كحريـم لاحتضـان ثـلاث مـن نسـائه الــ14 (كمـا يقـول البعـض)، أو كقصـر ضيافـة لاسـتقبال أوجينـي إمبراطـورة فرنسـا أثنـاء احتفـالات افتتـاح قنـاة السـويس فـي 1869، يقـع القصـر حاليًـا في وسـط فنـدق ماريـوت ومدخله وحدائقـه كفيلـة بإثـارة كل أحـلام ومخيـلات الشـرق، فكمـا يكتُـب الكثيـر مـن مؤلفـي أمريـكا اللاتينيـة نمطًـا مسـتهلكًا مـن الواقعيـة السـحرية[15] وسـط أجـواء اسـتوائية سـاخنة لصالـح القـراء السـائحين، فإنهـم في الشـرق

14- يقصد الكاتب الخديو إسماعيل

15- إحدى التقنيات الروائية التي تشتهر بها أمريكا اللاتينية والتي يمتزج فيها الواقع مع الخيال ومن أشهر كتابها الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز.

يشيدون قصورًا تشبه وتطابق الصور الموجودة لدينا في أوهامنا الشرقية.

بعدها بعدة أيام أعادنا التقشف المستبق من الكتب إلى أرض الواقع، ولكن خلال هذا الوقت استمتعنا بتمثيلية الثراء الصامت؛ لذا، ولكي نتمكن من تحمل تكلفة البقاء لأطول وقت ممكن في هذا المكان المترف مكثنا أنا وزوجتاي في غرفة ثلاثية، كانت التجربة جديدة وخشيت الأسوأ ليلًا، ولكن على العكس من هذا نامت (آ) و(ك) كقديستين قريرتي العين، كأن أحد أشكال التحالف النسائي قد وُلد ضدي، سيطرتا بشكل كامل، لدرجة أن (آ) التي كانت حادة للغاية بخصوص دهانات وتمارين (ك)، بدأت في وضع الكريمات وممارسة تدريبات البطن.

شعرت (ك) بالسعادة لأنها عادت لمقابلة جماعة الراقصات الإسبانيات، وفي كل صباح من العاشرة وحتى الثانية كانت تتركنا وتبتعد تمامًا عن الجولات السياحية وتذهب لتتعلم هز الوسط على يد سيدة مصرية، كبيرة في السن وضخمة وسمينة، اعتزلت الرقص أو ربما لم تمارسه من الأساس، ولكن يفترض أنها خبيرة في تعليم حركاته، ترتدي سروال الفهد المرقط وخلف قميصها يقبع نهدان ضخمان، كانت هذه السيدة تدعى راقية وقالت (ك) عنها إنها أستاذة رائعة وتعرف كيفية تعليم تحريك الأرداف على الرغم من عدم كونها راقصة عظيمة، حاولت (ك) إقناع (آ) بالذهاب معها للدروس، فبعد هز الوسط بخصور عارية وأفخاذ

رجراجـة، هنـاك أيضًـا الحمـام التركـي، بـل وأنـه فـي نهايـة الـدورة كعنصـر إضافـي يمكنـك طلـب جلسـات تدليـك وأقنعـة وجلسـات علاجيـة بأنـواع صحيـة مـن الطمـي وأي شـيء أخـر، يبيعـون شـرائط للموسـيقى العربيـة ويذهبـون بـك إلـى متاجـر كبيـرة حيـث يمكـن شـراء بـدلات كاملـة للرقص الشـرقي، قبلـت (آ) الذهـاب لمـدة يـوم واحـد، لأشـعر بكونـي محطمـا أكثر مـن كونـي وحيدا في شـوارع القاهرة، فالنسـاء المحليات لـم ينظرن إلي، بل الرجـال الذيـن كان هدفهـم الدائـم هو السـعي وراء بيعي بعـض التذكارات، لهـذا كمحاولـة منـي للبحـث عـن اتصـال بشـري لا يحمـل أغراضـا تجاريـة، عـاودت الاتصـال بحامـد أبـو أحمـد، ولكـن نفـس الصـوت النسـائي أجابنـي بأنـه لـن يكـون موجـودًا فـي القاهـرة لمـدة يوميـن أو ثلاثة.

كان هنـاك شـيء لـم يُسـمح لنـا بـه فـي قصـر الباشـا وهـو تنـاول الطعام مـع المصرييـن، فكلمـا حاولنـا تنـاول الإفطـار (الطعـام الـذي يقدمونـه فـي الخامسـة مسـاء فـي رمضـان) فـي القاعـات المحيطـة بالحديقـة كان يتـم منعنـا، كنـا نشـاهد مجموعـة مـن المسـئولين الكبـار (ببطونهـم الكبيـرة وهواتفهـم الخلويـة وزوجاتهـم اللواتـي تضاعفـت أوزانهـن مـن الذهـب الـذي كان يغطـي أعناقهـن وأرسـاغهن بذلك الوجـه البيروقراطـي الذي يميز أجنحـة الدولـة العليـا) وهـم يحتفلـون مـع عائلاتهـم بالإفطـار، كنـا نرغـب فـي شـغل مائـدة بالقـرب منهـم لمعرفة ما الـذي يأكلونـه؟ وكيـف يأكلونه؟ وكيـف يتحدثـون ويبتلعـون الطعام ويتصرفـون؟ ولكن الأمر لم يكـن ممكنًا، فـكل المسـاحة كانـت محجـوزة لهـم، أمـا نحـن الأجانـب أو "الخواجـات"،

كان يجـب علينـا مراقبتهـم عـن بعـد، تمكنَّـا لاحقـا مـن الدخول بعـد رحيل المصرييـن ولكـن نحـن لم نأت القاهـرة لمشـاهدة اليابانيين وهـم يبتلعون حسـاء الميسو.

يشـكل النيـل- لدى مـروره في القاهـرة- جزيرتين كبيرتيـن، واحدة قديمة وتسـبق الفراعنـة وهـي جزيـرة الروضـة، وأخرى شـكلتها رواسـب أكثـر قربًا فـي الزمـن ولـم تكـن موجـودة منذ ثلاثـة قـرون وهي جزيـرة الزمالـك، يقع (ماريـوت) فـي جزيـرة الزمالـك، وخـلال الأيـام الأولـى بدأنـا أنـا و(آ) فـي استكشـافها، بينمـا أصـرت (ك) المسـتمتعة العنيـدة التـي تتسـلى بالرقـص أكثـر مـن الواقـع، علـى مواصلـة تعلـم هـز الوسـط. الجزيـرة حـي للطبقـة العليـا، حيـث توجـد قصـور ضخمـة وبعـض السـفارات والكثيـر مـن بيـوت القاهرييـن ميسـوري الحال، يحتل وسـطه نادي (الجزيرة سـبورتينج كلوب)- تلـك المسـاحة الخضـراء الشاسـعة (التـي تـم تحقيقهـا عبـر الـري)- والـذي كان يرغـب الإنجليـز مـن خلاله في نسـخ ريفهـم البريطانـي أو ربما ملاعب الجولـف فـي أراضي الهند المطيرة، كان النادي فـي البداية مخصصًا للإنجليز لممارسـة رياضاتهـم المفضلـة مثـل الجولـف والبولـو والتنـس؛ وبعيـدًا عـن العائلـة الملكيـة (التـي فـي الحقيقـة لـم تكـن مصريـة بـل تركيـة)، لـم يكن يُسـمح لأي مصـري بالحصـول علـى العضوية.

فـي الوقـت الحالـي، لـم يعـد ملعـب الجولـف يحتـوي علـى 18 حفـرة، فيمـا أن أعضـاءه الذيـن لم تكـن أعدادهم في الزمـن الجميل

تتعدى 300 شخص، يُقدرون في الوقت الحالي على ما يبدو بعشرات الآلاف، حاولت الدخول متأبطًا ذراع زوجتي الأولى بناء على استنباطاتي بأنه لم يعد ناديًا حصريًا مثلما كان عليه الأمر في الماضي في ظل زيادة عدد مشتركيه، ولكن الحراس طلبوا منا بطاقة العضوية، من الممكن أن يدخل الكثيرون، ولكن ليس أي أحد، على العكس من هذا. سمحوا لنا بدخول مكتبة مبارك في الجزيرة مقابل أن نترك وثائق هويتنا والكاميرات، تقع المكتبة في قصر قديم مرمم مكون من ثلاثة طوابق، يحتوي القبو على مجموعة أدبية موسعة، أما في أعلى الطوابق فتتزاحم عدة كتب عن القاهرة على الأرفف، قضيت هناك مساءين وأنا أطالع بعض الكتب التي أشرت إليها هنا، ثقافة القراءة عبارة عن طاعون؛ أقرأ بدلا من المشاهدة وأرى عبر عدسات غيري ممن جاءوا (الذين لم يروا أيضًا بل قرأوا)، ثقافة القراءة عبارة عن طاعون، ولكن بما أن هذا هو الأمر الذي نحبه، أعتقد أن القاهريين الذين يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية، بإمكانهم العثور هنا على كل ما لم يسمح شيوخ الأزهر بترجمته للعربية، فالمكتبات التي تُعد بالنسبة للمسافرين مجرد إلهاء غير واضح الملامح، قد تمثل بالنسبة للسكان منفذًا للهواء الطلق.

يوجد بعض البنايات الأخرى التي تجدر الإشارة لها في الجزيرة، المجمع الذي تبرع به اليابانيون بمسرح جديد للأوبرا، ومتحف الفن المصري الحديث، وكلية الفنون الجميلة، المتحف عبارة عن بناء هندسي رائع ولكن محتواه لا يثير الإعجاب دائمًا

بنفـس الدرجـة؛ فهـو عبـارة عـن خليـط كبيـر مـن بعـض الأعمـال منخفضـة القيمـة مـع أكثـر الدلائل الملموسـة على تدهـور الفن المصـري، حيث يبدو أن تحريـم كل أشـكال الفـن التشـخيصي وغيـاب التجسـيد الذيـن تتضمنـه العقيـدة الإسـلامية، أثـر بشـكل كبيـر في إفقـار الرسـم بمصر الحديثـة. على الرغـم مـن هـذا، هنـاك بعـض المنحوتـات الجيـدة واللوحـات التي تسـتحق التواجـد منفـردة بـدون الصحبـة الكريهـة لعشـرات مـن الرسـوم السـخيفة، ربمـا يعـد كل مـا يتعلـق بمسـألة التحريـم مجـرد سـوء فهـم، حيـث يقـول الطاهـر بـن جلـون[16] إن الفكرة الموجـودة لدينا بخصوص التحريم الإسـلامي للفـن التشـخيصي تعـد خاطئة.

"هـذه الفكـرة ليسـت موجـودة فـي أي مـن أجـزاء القـرآن، ولكـن علـى العكـس مـن هـذا، فحقيقـي أن الإسـلام يمنـع تجسـيد النبي محمد وبشـكل طبيعـي فكـرة الـرب، تجسـيد خاتـم الأنبيـاء والمرسـلين سـيعني عـدم تفهم فكـرة الإسـلام حـول النبـوة، تمثيله سـيعني تقليصه بشـكل غير ضـروري إلى صـورة منقوصـة وكاذبـة، النفس شـيء جوهري فـي القرآن، فهي الـروح التي تسـتقبل الرسـالة ولهذا كيف يمكن تخيل هذه الفكرة المجردة والمقدسـة؟ مـن الأفضـل تـرك الأمـر دون أي محاولـة لإعادة الإنتـاج، ومن هنا فـإن المنع ليـس منعًـا للصـور، بـل لصـورة واحـدة فقـط، تلـك التي تحـاول إعطـاء وجه وملامـح ونظرة لرسـول المسـلمين".

16- كاتب فرنسي من أصول مغربية تتميز أعماله بالطابع الفولكلوري والعجائبي.

لـن أحـاول إذن تفسـير أسـباب انهيـار فـن الرسـم فـي مصـر. علـى بعـد أقـل مـن كيلومتـر من متحـف الفن الحديـث يقع بـرج القاهرة، وهـي بناية تحمـل طابعًـا خاصًـا بالنسـبة للقاهرييـن، ليـس بسـبب هيئتهـا، بـل القصـة التـي تحيـط بهـا؛ فهـو أثـر قائـم ضـد الرشـوة والابتـزاز، فبعدمـا رفضـت الولايـات المتحـدة تمويـل السـد العالي بأسـوان، لجأ ناصر لدعم السـوفييت لأنـه لـم يجـد صـدى لمطالبه فـي الغـرب، حـاول الأمريكيـون إصـلاح الأمور مـع الزعيـم ولهـذا الغـرض عرضت الـ(سـي آي إيـه) هدية مُقّنعـة في صورة تبـرع لتجديـد الـزي الموحـد لحرسـه بقيمـة ثلاثـة ملاييـن دولار، لـم يرفض ناصـر الغاضـب النقـود ولكنـه بـدلًا مـن وضعهـا فـي حسـاب بسويسـرا كما فعـل الكثيـر مـن حـكام العالـم الثالـث (والأول)، قـرر بعـد تلقـى رشـاوى الإمبراطوريـة، اسـتخدام ذلـك "التبـرع" لتشـييد هـذا البـرج الشـامخ لكـي يتمكـن القاهريـون مـن مشـاهدة مدينتهـم مـن علـو، البـرج ليسـت لـه فائـدة، مجـرد بنـاء هـش ومرتفـع يحتـوي علـى مصعـد داخلـه ومنطقـة رؤيـة دائريـة فـي قمتـه؛ مجـرد رمـز للاعتـزاز، فنـار منتصـب كأحـد أشـكال التحذيـر، صعـدت مـع (آ) و(ك) حتـى منطقـة الاسـتطلاع الدائريـة وهبطت (آ) فـورًا بعـد أن انتابهـا شـعور بالـدوار أمـا (ك) فبـدأت فـي الحديـث مـع رجـل مصـري يدعـى هانـي، دعاهـا للخـروج معـه، سـيذهبان ليلا إلـى أحـد المطاعـم وقبلـت (ك) الدعـوة بعـد أن قدمتنـي لهانـي بصفتـي أحـد أشـقائها، أشـار لـي هانـي مـن بين الضبـاب نحو ذراعـي النيل والسـهل الذي تقـع عليـه القلعـة وجبـال المقطـم البعيـدة، إذا مـا نزعـت أحجبـة التلـوث

والغبـار، سـترى مـآذن المدينـة المنتصـرة تنتصـب كغنائـم، مـع العلـم بـأن البـرج ذاتـه الـذي كنـا ننظـر منـه هـو أيضًـا مئذنـة وغنيمـة.

جربنـا عـدة فنـادق مـن كل النجـوم بعـد قصر إسـماعيل باشـا، مـن نجمة واحـدة إلـى أربعـة، فـي إحـدى الليالي غامـرت أنـا و(آ) بالإقامة فـي أرخص الفنـادق، لـم ترافقنـا (ك) هذه المـرة لأنها ذهبت في رحلة إلى الإسـكندرية مـع صديقاتهـا الراقصـات، إنها امرأة سـعيدة وزوجة متحررة وربما سـيرافقها هانـي، غنيمتهـا المصريـة الجديـدة، لـم نكن أنـا و(آ) نفكر فيهـا ونحن نجر حقائبنـا بيـن تلـك الحـواري المظلمة تحت توجيهات مرشـد مرتجل يشـتهي الإكراميـات، وعدنـا بمعجـزة الـراءات الثلاثـة فـي الفنـدق المنشـود، "رائـع ورخيـص ورقيـق"، ولكـن المشـهد العمرانـي كان يصبـح أكثـر قـذارة وظلامًـا وبؤسًـا كلمـا تقدمنـا، الرائحـة أصبحـت أكثـر كثافـة وكل الكسـور الموجودة فـي الرصيـف أجبرتنـا على تسـليمه حقيبة، لأن جرهـا لم يعـد ممكنًا، أصبح المرشـد أكثـر عدائيـة، أو علـى الأقـل هـذا مـا كان يوحـي بـه صوتـه، طلـب منـا الحصـول علـى أي شـيء بنبـرة تهديد، كان مـا يقوله يبدو كسـرقة وليس طلبًـا، توقفنـا للحظـة ثـم فتـح سـحاب الحقيبـة وبـدأ يعبـث دون إذنـي في محتوياتهـا وحينمـا أبديـت اعتراضي، رد بعبـارات بدت كأنها تنـذر بالغضب بتلـك العربيـة التـي لا أفهمهـا، أخـرج زوجًـا مـن أحذيـة التنس مـن حقيبتي ونظـر إلـى بعـد أن ارتسـمت علـى وجهـه واحـدة مـن تلـك الابتسـامات التـي تعنـي سـؤالًا، أشـرت برأسـي لـه أننـي موافق لكـي يهدأ بعض الشـيء، أخـذ زوج أحذيـة التنـس بـكل سـعادة واحتضننـي وأعطانـي قبلـة فـي

كل وجنـة، رائحـة كل واحـدة منهمـا كانـت تفوح بالعـرق الزنـخ، ولكن الأمر أشـعرني بالهـدوء، لـم أتعرض أبدًا للسـرقة بكل تلك السـعادة والخفة، وصلنا فـي النهايـة إلـى فنـدق الفـردوس الموعود، المدخـل لا يعد بأي شـيء جيد، درجـة مـن السـلالم سـقطت ويجـب أن تعبـر مسـتندًا إلـى الحائـط حتى لا تقـع فـي الهاويـة، كان الفنـدق بالطابـق الثالـث وللوهلـة الأولـى يبـدو أنـه يمكـن تحملـه، تركونـا فـي الغرفـة، ولكـن قبلهـا جعلونـا ندفـع مقدمًـا، قـام بهـذه الإجـراءات معنـا مصري بعينيـن خضراويـن لديه نظرة قاتلـة، لاحظت أن جـزءًا مـن الـذي دفعنـاه انتهـى فـي جيـب مرشـدنا الـذي ألقـى الـوداع مرتديًـا حذائـي الخـاص بالتنـس وهـو يحمل حـذاءه الممزق في يـده وقلت لنفسـي مستسـلمًا، ليهنـأ به.

دخلـت الغرفـة مـع (أ) بعـد أن نـال منـا الإرهـاق، كنـا نرغـب فـي النـوم وحينمـا رفعنـا مفـرش السـرير كانـت تتنـزه- هنـاك أسـفل البطانيـات وفوق المـلاءات- مجموعـة مـن الحشـرات، حريشـات[17] وبراغيـث وصراصيـر صغيـرة وفراشـات أبودقيـق الملفوف والبـق، حاولنا طرد الحشـرات بضربات باليـد وبالمحـارم ولكـن الأمـر لـم ينجـح، لم يكـن النوم هنـاك ممكنًـا ولكن الوقـت كان قـد تأخـر بالفعـل، كمـا أننـا دفعنـا ثمـن الغرفـة ولـم نجـرؤ علـى أن نغامـر بأنفسـنا ليـلًا وسـط هـذه المتاهـة مـن الشـوارع، كان هناك كرسـيان فـي الشـرفة وأدخلتهمـا (آ) إلـى الغرفـة للاسـتلقاء عليهمـا من أجل

17- نوع من الحشرات المفصلية التي تعرف في العامية المصرية باسم "أم أربعة وأربعين"

قضـاء الليلـة، فيمـا قمـت أنـا بتغطيـة مغطـس الاسـتحمام بمحارم وسـددت البالوعـة التـي يجـب أن تكـون أحد سـبل دخـول كل تلك الحشـرات بحقيبة بلاسـتيكية، لـم يسـبق لي أبـدًا النوم فـي وعـاء، ولا يمكنني أيضًـا القول بأنه قـد أغمـض لـي جفن في هـذه الليلة، عدنـا لجـرّ حقائبنا في الخامسـة فجرًا نحـو الخـارج دون أن يغمـض لنـا جفن تقريبًـا، وأثناء نزولنا على الدرج شـبه المتسـاقط خـرج بعـض مـن تـراب الأنقـاض بسـبب الثقـل ولكنه لـم يحدث أي انهيـار أيضًـا، قالـت (آ) إنـه كان مـن الأفضل لهـا أن تذهـب مـع (ك) بدلا مـن البقـاء معـي، ثم ضحكت بعدهـا وقبلت وجنتـي لتتابـع "رائحتك عربية وهـذه اللحيـة أصبحـت بالفعـل أطـول مـن الـلازم، إنها تبـث الرهبـة ولكنها فـي الوقت ذاتـه مثيرة".

بظهريـن محطميـن وشـعور بأننـا أصبنـا بمـرض جلـدي لـن يفارقنـا طوال حياتنـا، قررنـا الإقامـة فـي مـكان ينتمي لفئـة الوسـط؛ لا هو قصر الباشـا ولا متحـف الحشـرات، ولأن المدينـة كبيـرة للغايـة ولكـي نتمكـن مـن معرفـة مناطقهـا المختلفـة عـن قـرب، توصلنـا إلـى ضـرورة تغييـر الحـي والفنـدق مـع الحفـاظ علـى المسـتوى المتوسـط، وقـع اختيارنـا علـى فنـدق تديـره الدولـة، كليوباتـرا، الطابـع الرسـمي فـي إدارتـه بين، المسـتوى سـوفيتي في أسـوأ مسـتوياته وطاقـم العمالـة بطـيء وممـل وغيـر مكتـرث بأي شـيء، لا وجـود لأوراق المرحـاض، ومفروشـات الموكيـت ممزقة، بنفـس طريقة ورق الحائـط الموجـود فـي كل الأركان، حمامـات كليوباتـرا هي الأخـرى في حالة يرثـى لهـا مـن الشـيخوخة والقـذارة (فموظفـو الدولـة عـن حـق لا يمكـن

أن ينظفـوا خـراء غيرهـم)، ولكـن بعـد إقامتنـا فـي فندق الحشـرات، شـعرنا كأننـا عدنـا لقصـر إسـماعيل باشـا، اسـتلقينا وبـدأت (آ) تحلـم أنهـا تتشـارك الفـراش مـع رجـل عربـي مفعـم بالحيويـة، أصابتنـا أدخنـة وصخـب ميـدان التحريـر- قلـب القاهـرة- بحالـة مـن الذعـر بعدهـا بعـدة أيـام واسـتغللنا عـودة (ك) لنغيـر إقامتنـا مجـددًا.

وصلـت سـعيدة ومرحـة وثرثـارة كالعـادة، عـاد هانـي لزوجتـه الشـرعية، ولكنهمـا قضيـا أيامًـا مفرحـة فـي الإسـكندرية، قصصنـا عليهـا مـا حـدث فـي الفندقيـن ومـا مررنـا بـه ولـم تضطـر لتـذوق مرارتـه، لتسـخر بـكل سـعادة مـن المآسـي التـي عانيناهـا، فهـي علـى النقيـض، لـم تفعـل شـيئًا سـوى الرقـص وتحـت إرشـاد هانـي أقامـت فـي فنـادق جميلـة ورخيصـة، ولكـن الإسـبانيات عـدن بالفعـل إلـى مدريـد فـي اليـوم التالـي، وداع آخـر (حزيـن للأسـف لأنـه لا يمكـن للمـرء معرفـة أي وداع هـو الأخيـر)، فيمـا أن هانـي أخبرهـا بأنـه لا يمكنـه البقـاء أكثـر مـن هـذا بعيـدًا عـن منزلـه، الأمـر مشـابه لـم يحـدث فـي كولومبيـا، كما تقـول (ك)، فهـم دائمًـا يرحلون بعـد الاكتفـاء مـن تشـارك الفـراش لعـدة مـرات. غيرنـا الحـي، قررنـا الرحيل عـن وسـط البلـد وانتقلنـا للمهندسـين وهـي منطقـة سـكنية حديثـة ذات طابـع غربـي، وفـر لنـا فنـدق (سـلمى) الراحـة لعـدة أيـام، راحـة مـن كل شـيء، ربمـا كانـت راحـة عميقـة أكثـر مـن الـلازم (Salma بالإيطاليـة تعنـي الجثـة)، حالـة متكاملـة الأركان مـن اضطـراب الطمأنينـة[18]، إدارة

18- حالة نفسية تتعلق بالتحرر من كل أشكال القلق والتكلف.

الفنـدق سويسـرية، كمـا كان يقـول الإعـلان، وعلـى الرغم من أنك لن تشـعر كأنـك فـي بـرن، إلا أن العناية تحسـنت وكانـت المراحيض نظيفـة، أقمنا في غرفتيـن، نمـت بعـض الليالي مع (ك) نظـرًا لأن (آ) كانت تمـر بحالة مزاجية لا تطـاق، عكفـت (آ) علـى القـراءة بشـكل هسـتيري دون أن تنظـر حتـى نحونـا، وحينمـا حدثتهـا قالـت لي ألا أقلـق فالأمر يتعلق بيـوم بداية الطمث الـذي سـيأتي قريبًـا، قـررت أنا و(ك) النوم فـي الغرفة ذاتها حتـى تبدأ الأمور علـى الأقل فـي الانفراج مـع (آ) لنرتـاح جميعًا.

الأمـور كانـت جيـدة فـي (سـلمى) وبمنطقتنـا السـكنية الجديـدة ولكـن أدركنـا أنـه مع كل يـوم يمـر يتبقـى لنـا القليـل مـن مصـر والقليـل مـن القاهـرة، المهندسـين عبـارة عـن أي وكل شـيء، واحـد من تلك الأحيـاء التي قـد تجدهـا فـي بوجوتا أو برشـلونة أو كانسـاس، لا يمتلك هويـة، لهذا عزمنا علـى العـودة للضوضـاء الصاخبـة، قبـل أن نذهـب اتصلـت للمـرة الثالثـة أو الرابعـة بحامـد أبـو أحمد وأخيـرًا وجدته، يتحدث إسـبانية ممتـازة بدون أي لكنـة بخـلاف اضطـراب خفيف في حرفـي الـ"r" والــ"p"، أخبرنـي بأن أتصل بـه مجـددًا حينمـا أصـل لفندقـي الجديـد لكي يلتقـي بنا.

بحثنـا عـن أكثـر فنـدق يتناسـب مـع طبعنـا وميزانيتنـا، فنـدق متوسـط المسـتوى وربمـا متراجـع بعـض الشـيء، تولـت (آ) التـي عـادت حالتهـا المزاجيـة للتوهـج مجـددًا مسـئولية التنقيـب عـن الفنـدق واتصلـت بزوجيـن لهمـا سـمعة طيبـة، "عائلـة سـليمان"،

هما قبطيان يمتلكان وكالة سفر في لندن، وعدانا باصطحابنا لمشاهدة كل الفنادق متوسطة المستوى في القاهرة، ولكن قبلها دفعانا للقيام بجولة في الحي القبطي، الأقدم في هذه المدينة والقائم فوق بقايا حصن روماني كان يدعي بابليون، اصطحبانا لكنائس قبطية وجعلانا نشاهد السرداب الذي اختبأت به العائلة المقدسة بل وأهديانا شريطًا مسجلًا لبابا الأقباط وانتقدا قراري المفترض بالدخول في الإسلام وتعدد الزوجات، ولكي يقنعانا بهذا الخطأ، قصا علينا معجزات القديسين الأقباط وجعلانا نشاهد الحائط الذي تتجلى عليه أحيانا العذراء التي تبكي دموعًا من الزيت، شاهدنا في الكنيسة المعلقة مذبحًا قديمًا محفوظا في حالة جيدة وثلاثة عشر عامودًا ترمز للمسيح وتلاميذه الـ12 الأعمدة كلها بيضاء باستثناء اثنين، الأسود الذي يمثل يهوذا الإسخريوطي والرمادي الذي يجسد مار توما لأنه شكك، وبناء على الشك قال السيد سيلمان إن العمود الرمادي قد يخصني وهو أمر أشكره عليه.

بعدها أكد لنا مرشد قبطي متحيز بعض الشيء إن مصر الحقيقية، القديمة، موجودة في كل ما هو قبطي، لأنّهم هم الورثة الحقيقيون من لحم ودم لشعب الفراعنة، على الرغم من أنّهم يمثلون بالكاد 10% من تعداد سكان القاهرة، لغتهم الشعائرية (على الرغم من أن الأقباط في حياتهم اليومية يتحدثون بالعربية) هي الوحيدة التي تمتلك روابط حقيقية مع مصر القديمة، كما أنهم يأتون من سلالة لم تنقطع منذ الماضي البعيد. انتشرت المسيحية

في مصر تحت السيطرة الرومانية، بعد البطالمة وكليوباترا، وحينما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية عام 379 بعد الميلاد، باتت هي الديانة الوحيدة في مصر حتى جاء احتلال العرب خلفاء محمد في القرن السابع، قال لنا إن "قبطي" تعني "مصري" لا أكثر ولا أقل، لذا فإن البقية عرقيًا وثقافيًا هم الغزاة العرب، الأقباط هم المصريون الأصليون الوحيدون. كل شيء، حتى إظهار هذه القناعة العقائدية المبالغ فيها بالنسبة لمسألة النسب، كان يتم بكل أناقة ولطف، ولم يكن لدي مانع من أن نصبح أقباطًا لعدة أيام، الأمر لا يهم بالنسبة لي، كل الديانات سخيفة وكل الآلهة سقطت مثل آلهة مصر القديمة.

لوقت ما أصبحت يهوديًا أيضًا أثناء زيارتنا المعبد اليهودي القريب في نفس الحي القبطي، حاليا يوجد معبدان يهوديان في القاهرة؛ هذا الذي يبدو أن موسى بن ميمون[19] بنفسه عاش فيه، والآخر الموجود في وسط البلد محاطا بقوة أمنية والمغلق بسبب عدم وجود ممارسين للديانة، كان عدد اليهود عام 1927 في القاهرة 35 ألف شخصًا، منذ عدة سنوات كان يوجد حوالي 500 ولكن في الوقت الحالي كما قالوا لنا لا يوجد سوى يهودي واحد، إنها ليست مزحة بل هكذا الأمر حرفيًا؛ مجرد واحد، اليهودي الأخير في القاهرة الذي ضاعت كل محاولاتي لمقابلته هباء، ولكنه على ما

19- ولد في قرطبة التي انتقل منها لاحقا للمغرب ثم فلسطين فمصر حيث استقر هناك وعمل نقيبا للطائفة اليهودية ويقال إنه كان طبيبًا لصلاح الدين الأيوبي وكان من أهم الشخصيات اليهودية في العصور الوسطى وتوفي بالقاهرة عام 1402.

يبـدو يفضـل الاختبـاء، لـن أعلـن عـن اسـمه لأنهـم أخبرونـي بمجموعـة مـن الأسـماء المتنوعـة وكلهـا مختلفـة، رحـل اليهـود بشـكل جزئـي بسـبب التوتـرات المتصاعـدة مـع إسـرائيل ولكـن أيضًـا لأنـه خـلال حقبـة الوطنيـة المتفاقمـة (حينمـا اضطر اليونانيون والفرنسـيون والإيطاليـون أيضًا للرحيل) بـدأوا فـي الشـعور بغيـاب الأمـان، يعيـش الكثيـر مـن اليهـود المصرييـن حاليًـا فـي فرنسـا، هنـا لا يتبقـى حاليًـا سـوى واحـد أو اثنيـن، إذا مـا قمـت باحتسـاب نفسـي، فداخـل هـذا الخليـط غيـر المتجانـس من الماضـي الذي نحـن عليـه أبناء أمريـكا اللاتينية، من سـأكون؟ هناك ثلاث روايـات متعارضة تُقـص فـي عائلتـي بخصـوص لقـب "Abad"، الروايـة الأكثـر شـيوعًا وبالتالي تصديقًـا تقـول، نحـن مسـيحيون قدامـى مـن دم طاهـر وصلنـا إلـى أمريـكا علـى يـد رجـل ذي شـأن مولـود فـي مدينـة بلنسـيه وكان أحـد جنـود أو كتـاب جلالتـه، تقـول الروايـة الأخـرى والأكثـر إقناعًـا، أننـا نأتـي مـن نسـل شـخص موريسـكي لقبـه ليـس "Abad" بـل عبد؛ عبد شـيء ما مثـل (الله أو الديـن أو النبـي)، كلمـة عبـد مكون رئيسـي فـي الكثير من الألقـاب العربية، بالنسـبة للروايـة الأخـرى التـي آمنـت بهـا أثنـاء فتـرة تواجـدي فـي المعبـد اليهـودي، فتقـول إن لقبنـا يأتـي مـن قـوم (sthel)، أحـد شـعوب اليهـود، وكان هنـاك نـوع مـن المحاكـم الدينيـة لفـض النزاعـات داخـل مجتمعاتـه يترأسـها حاخـام يُطلـق عليـه "Av Bet Din" والـذي كان يرمـز إليـه اختصارًا بــ(Abad) أو (Abadi) أو (Abati) لتتحـول هـذه الاختصـارات لاحقـا لألقـاب عائـلات للمنحدريـن مـن هـؤلاء الحاخامات، فـي النهاية مـا يهم هو

التمويـه وعيـش حيـاة الحرباء الحكيمة عبر التماهي مع كل شـعب، سـأكون مـن أصـول مختلطـة فـي كولومبيا، وإسـبانيًّا في إسـبانيا ومسـلمًا فـي مصر، ويهوديًـا فـي معابـد اليهـود، وقبطيًّا في كنائـس الأقباط.

لـم يهـدأ السـيد سـليمان حتـى عثـر لنـا علـى الفنـدق المناسـب، تشـاجر بالعربيـة مـع المديريـن لكـي نحصـل علـى سـعر جيـد، جعلهم يرونـا أفضل الغـرف، وكان يجبـر زوجتـه وأبنـاءه علـى انتظارنـا لسـاعات لا نهائيـة فـي سـيارته حتـى أقنـع في النهايـة (آ) و(ك)، أو ربما هما من اقتنعتا بنفسـيهما، بأنـه لـن نعثـر على شـيء أفضـل من جناح فـي فنـدق (كوزموبوليتـان) بهذا السـعر، سـيصبح هـذا فندقنـا النهائي.

عـرف (كوزموبوليتـان) مثـل كل شـيء فـي القاهـرة أيامًا أفضـل من هذه، فهـو منـذ قـرون فـي حالة تراجـع واضحة، ولكن علـى الرغم من هذا أسـرني بحالـة ود معيـن تجاهـه فهـو أكثـر فنـادق القاهـرة التـي يجـب أن تُذكـر بـ(شـيبرد) القديـم كمـا وصفـه مـارك تويـن، "يبدو أنـه كان فيما سـبق فندقًا جيـدًا ولكـن هـذا لا يثبـت أي شـيء، لأنه لـو كان الأمر كذلك فأنـا أيضًا كنت ولـدًا جيـدًا، كلانـا فقـد شـخصيته خـلال السـنوات الأخيـرة"، تصعـد الميـاه أحيانـا للغرفـة والهاتـف يعمـل في مرات وأخـرى لا، يظهر في الشـارع رجال يسـيرون وهـم يرتـدون الجلاليـب، وهـي قطعـة واحدة مـن الملابـس، غالبًا مـا تكـون بنفـس لـون المدينـة، بنيـة فاتحـة ومتربـة لتميـل نحـو الرمـادي، تبـدو كل قطـع الأثـاث كأنهـا منقوعـة فـي تـراب عنيـد لا يمكـن مكافحتـه

لا بالحسنى ولا بالعين الحمراء، مصعده سيكون رائعاً لتصوير فيلم رعب من إخراج بولانسكي[20] بسبب طريقة ارتفاعه البطيئة داخل بئره المحاط بالسلالم، يتحرك النُدل كسالى، مرتدين طاقمهم الموحد الأحمر ذي الأزرار الذهبية البالية أيضًا، دون النظر إليك وبالأخص وقت تقديم القهوة، ربما لأن البن باهظ وغير متوفر لديهم، يوجد في كل طابق مراقب مسئول عنه، ولكن دائمًا ما كنا نجدهم يؤدون صلواتهم فوق سجاجيدهم الصغيرة أكثر من العمل، سعر صرف الدولار سيئ للغاية ويجبرونك على دفع 10 ليال مقدمًا لأنهم يعرفون أن المرء قد يرغب تجربة حظه في مكان آخر، لحسن الحظ يدخل ضوء الشمس من النوافذ المرتفعة ويسود هدوء كاف للقراءة والكتابة، أصبحت فلترة صخب القاهرة ممكنة عبر شارع مخصص للمشاه فقط مع إغلاق النوافذ بالضبة والمفتاح، بعد يومين بدأنا في الاعتياد على كل شيء ولطف القاهريين العظيم بدأ يملأ لدينا أي فراغ، تكفي محادثة مع المدير لكي لا تغيب المياه أو القهوة أو لكي يتحسن الإفطار من يوم لآخر، بعد مرور أسبوع أصبح العيش في (كوزموبوليتان) امتيازًا خاصًا لم نتخل عنه (باستثناء فترة التوقف التي قضيناها في جنوب البلاد) حتى آخر أيام الرحلة، الفندق انعكاس مثالي للقاهرة، لأنه كان بدون شك أفضل فيما

20- مخرج سينمائي بولندي مولود في فرنسا ويعتبر من أفضل مخرجي النصف الثاني من القرن العشرين واشتهر في بداياته بأفلام تصنف ضمن فئة الرعب مثل (طفل روزماري) و(النفور)

سبق؛ لأنـه بـدون شـك يمكنـه العمـل بصـورة أفضـل، لأنـه بدون شـك قادر علـى أن يصبـح أكثـر نظافـة؛ لأنه بدون شـك يحتفظ بشـيء أو ربما لا شـيء مـن رونقـه القديـم، وعلـى الرغـم مـن كل هـذا شـعرنا معـه بحالة مـن الود عـن فنـادق الخمـس نجـوم العقيمـة المخصصـة لاسـتخدام الغـرب، ولمـاذا هـذا الـود؟ بسـبب مـا هـو عليـه بالطبـع، ولكـن أيضًـا (داخـل إطـار ولعـي بالكتـب) بسـبب تماشـيه المثالـي مـع وصـف تويـن لفندق (شـيبرد):

"كانـت إضـاءة المصابيـح خافتـة لدرجـة أنـه كان يجـب أن تشـعل واحدا لكـي تعثـر علـى ضـوء الآخـر؛ نتيجـة إشـعال المصباحيـن كانـت أكثـر كآبـة مـن الظـلام نفسـه، ضـم الفـراش سـهولًا وأوديـة فـوق مرتبتـه وكان علـى المـرء أقلمـة جسـده علـى الآثـار التي تركهـا فيه آخـر ضيف نام هنـاك لكي يشـعر بالراحـة، عرفـت السـجادة أيامًـا أفضل مـن هـذه بالتأكيـد، بينما كان يقبـع حـوض وجـه حزيـن في ركـن بعيـد بالغرفة وفوقـه مرآة مشـقوقة من النصـف تقطـع رأسـك عبـر جـرح بليـغ فـي العنـق، وتجعلـك تبـدو كمـا لـو كنـت وحشًـا مرعبًـا غيـر مكتمل الهيئة، عنـد المخرج أيضًا كانـت تتزاحم كل حميـر العالـم، وكان أغلـب الفتيـة المصريين يصنعون، سـأقول صخبًـا معينًا، لكـي لا أسـتخدم لفظًـا أكثـر وقاحة".

إذا مـا اسـتبدلنا الحميـر بسـيارات الأجـرة فـإن المـكان لـم يتغيـر كثيـرًا منـذ ذلـك الحين، مصابيح توين كانت شـموعًا وتلـك الموجودة الآن كهربائيـة، ولكـن يجـب أن تنـزع كل أغطيتهـا لكـي تتمكـن مـن

القـراءة ليـلا؛ أمـا بالنسـبة لفـراش تويـن فبخصـوص مـا قالـه يجـب إضافـة أن وسـادات (كوزموبوليتـان) ثابتـة لا يمكـن تحريكهـا لهـذا فـإن الليـل كان يصبـح عبـارة عـن معركـة معهـا مـن أجل أن تتماشـى مـع زاوية رأسـك وهو أمـر مسـتحيل، لـذا كنـت سـأفضل عليهـا تلـك المقاعـد الخشـبية المقوسـة التـي كان يسـتخدمها المصريـون القدمـاء لدعـم مؤخـرة العنـق، كنـت أنـام مـع (آ) فـي فـراش مـزدوج بينمـا كانـت (ك) تسـتلقي بعيـدة علـى الأريكة، منـذ رحيـل الإسـبانيات أصبحـت أراهـا أقل سـعادة، ربمـا إذا مـا قدمتها إلى صديـق صديقـي هـذا- حامـد أبـو أحمـد- ستشـعر بأنهـا أقـل عزلـة، عـدت للاتصـال بـه ولكنـه لـم يكـن موجـودًا، أكـدت زوجتـه أنهـا سـتترك رسـالتي وهاتـف فنـدق (كوزموبوليتـان) لكـي يتصـل بـي.

الحمير وسيارات الأجرة

يقـص رحالـة عدة فـي القرن الـ19 الأمـور بالطريقة ذاتهـا، لدرجة جعلتني أتسـاءل إذا مـا كانـوا نسـخوا الكلمـات مـن بعضهـم بعضًـا؟! نيرفـال[21] مـن تويـن؛ وتويـن مـن ثاكيـري[22]؛ وذلـك الأخيـر مـن فلوبيـر، يحكـي الأربعـة أنهـم لـدى وصولهـم لمصر أجبـروا على امتطـاء الحمير التـي ركضت بأقصى سـرعتها بعـد أن دفعهـا الأطفـال لذلـك، شـعرت بشـيء مشـابه هنـا كلمـا خرجـت للشـارع؛ شـعرت كأنـي أمتطـي حمـارا تدفعه أيـاد خفية، إنـه حمار مختلـف بـكل تأكيـد ففـي عـام 2000 الحميـر هـي سـيارات الأجـرة، ولكـن مثلمـا كان عليـه الأمـر منـذ قـرن ونصـف فإنهـم الآن يجبرونـك علـى ركوبها سـريعًا وينطلقـون بك فـورًا وبكل عجلـة دون أن تخبرهم حتـى بوجهتك، أو نحـو وجهـة دائمًـا مـا تكـون فـي النهايـة متجـرًا للبضائـع الرخيصـة والخداع يملكـه "شـقيق" السـائق، والـذي غالبًـا مـا يكـون تاجـرًا سـيمنحه عمولة من ثمن المشـتريات.

سـيارات الأجـرة فـي القاهـرة سـوداء اللـون وكلهـا تقريبًـا متهالكـة ومتربـة وقـذرة وذات رائحـة نفـاذة مثـل الحميـر المتعبـة، تنتمـي

21- جيـرار دي نرفـال: أديـب فرنسـي في مجالات الشـعر وكتابة المقالات بخـلاف كونه مترجمًا ومن أشـهر أعماله في الأوسـاط العربية "رحلة إلى الشـرق"

22- ويليـام ثاكيـراي: أديـب إنجليـزي ينتمـي للقـرن التاسـع عشـر ومـن أشـهر رواياتـه "سـوق الأضاليـل". زار مصر وألـف عـن رحلتـه كتابـا بعنـوان "رحلـة مـن كـورن هيـل إلـى القاهـرة".

لسـلالة "السـتار الحديدي" قبل سـقوط حائط برلين؛ أو بمعنى آخر (فيات) بولنـدا الزائفـة، خـردة سـوفيتية، هيـاكل متأرجحـة مجريـة أو مـن ألمانيـا الشـرقية، تصـدر محركاتهـا المنهكـة الكثيـر مـن الدخـان وبخـلاف الفوضـى المستشـرية فـي الشـوارع والضوضـاء التي تصـم الآذان، لا يمكـن أن يتوقف سـائقوها عن إطلاق أبواقها، صوت الأبواق يتردد دون توقف نهارًا بل ويزداد ليـلًا، ربمـا لأن سـيارات الأجرة أشـباح سـوداء لا يراها أحد ويجـب على الأقل سـماعها، يمتلـك سـائقو الأجـرة والكثيـر مـن مـلاك السـيارات فـي القاهـرة، عـادة القيـادة ليـلا والأنـوار مطفـأة ولفـت انتبـاه المـارة بتشـغيلها بصـورة خاطفـة مثـل البرق، السـبب وراء قيادتهم ليلًا دون تشـغيل الأضواء يعد سـرًا مخفيًـا بصـورة أفضـل مـن مقابـر الفراعنـة التـي لـم تُكتشـف بعـد، القيـادة هنـاك عدائيـة؛ الانتقـال مـن حـارة مروريـة إلـى أخـرى دون إشـارة أو إنذار مسـبق لتتشـكل ثلاثـة خطـوط في مسـاحة لا تكفي سـوى لواحـد، وكل هذا دون احتـرام الأدوار والصفـوف وأفـراد شـرطة المرور المسـاكين؛ أو العرائس الباليـة التـي تشـير بأيديهـا كَدُمـى متحركـة دون أن ينظـر إليهـا أحـد- وهـم نصـف نائميـن وسـط كل الارتبـاك الذهنـي الـذي يسـببه لهم يـوم كامل من استنشـاق الغازات السـامة، إشـارات المرور مجرد زينة حضرية، أحد أشـكال اللافتـات الدعائيـة للغـرب، شـجرة عيـد ميـلاد صغيـرة ليـس لهـا نفـع تعرض بإيقاع معين تعاليمها ثلاثية الألوان مرارًا وتكرارًا دون أن ينظر لها أي سـائق، إنهـا الأناركيـة التي- وفقًـا للأناركيين- تنجح، ولكنهـا لا تنجح، هي في الوقت

ذاته، ليست الفوضى التي يفترضها الهوبزيون؛ فدون أن تعرف كيف أو لماذا فإن الاختناقات المرورية تنحل ووسط الضوضاء والدخان تنساب الحركة، لا يحدث هذا الأمر دائمًا، ففي إحدى المرات قضيت أنا وزوجتاي أكثر من نصف ساعة في المقعد الخلفي لسيارة أجرة وسط اختناق مروري كامل حيث غفوتا على كتفي بعد أن هزمتهما وأذلتهما الأبواق، بعد عشر دقائق اضطرت حتى الأبواق المستمرة للصمت فيما استسلم سائقو الأجرة وأغلقوا محركات سياراتهم، كان هذا هو ما فعله أشرف سائقنا الذي ظل معنا لعدة أيام، إطفاء المحركات أشبه باستراحة، فهذا يعني على الأقل انخفاض حدة رائحة الدخان، خرج البعض من سياراتهم لتجاذب أطراف الحديث فيما فتح آخرون القرآن، الذي دائمًا ما يتواجد في تابلوه سيارة أي سائق أجرة، ليشرعوا في قراءته، ربما كانوا يحاولون حل لغز هذا السكون الكبير، ولكن من بعيد كان زئير المدينة العظيمة الدائم مسموعًا، عزمت على مواصلة طريقي سيرًا على الأقدام وترك زوجتيَّ نائمتين في السيارة لتحصلا على قسط من الراحة، مني ومن القاهرة ومن كل شيء ووجهت السائق بألا يوقظهما على أن يوصل الجميلتين النائمتين إلى (كوزموبوليتان) حينما ينفك الاختناق المروري سواء اليوم أو غدًا.

السير في القاهرة حينما تكون مشلولة بالكامل يعد ميزة بالنسبة للمشاة، فحينها يمكن عبور الشوارع، حينما تنساب الحركة المرورية، وفي ظل عدم وجود معابر للمارة أو تعرضها

للمحـو أو عـدم اكتـراث أحـد بهـا إذا لـم تكـن قـد تعرضـت للمحـو، ولكـون الإشـارات مجـرد سـبب للضحـك، فإنـه يجـب علـى المـرء قطـع الشـارع من أكثـر مـكان مناسـب بالنسـبة لـه بيـن السـيارات الغاضبـة التـي لا تهـدأ سـرعتها أو تغيـر مـن طريقهـا إذا مـا صادفتـك فـي منتصـف الشـارع، مـا يفعلونـه فقـط هـو إطـلاق أبواقهـم وتشـغيل وإطفـاء مصابيحهـم الأماميـة بشـكل خاطـف إذا مـا كان قـد حـل المسـاء، حينما انسـاب المـرور انتظرت لمـدة ربـع سـاعة أبديـة فـي أحـد الأركان وأنـا أحلـم بوجـود علامـة واضحة تمكننـي مـن العبـور للجانـب للآخـر، كان مـن الممكـن أن أظـل منتظـرًا هنـاك لليـوم التالـي، ولكـن مبيـت تلـك الليلـة هنـاك لـم يكـن ذا منفعـة فحركـة المـرور فـي السـاعات المتأخرة مـن الليل ليسـت مختلفة، شـاهدت سـيدتين تغامـران بعبـور الشـارع وهمـا تراوغـان السـيارات التـي تقتـرب مسـرعة والتصقـت بهمـا مثـل القُـرادة ووصلـت للرصيـف الآخر بسـلام دون النظـر نحـو أي اتجـاه، ضحكتـا منـي وأنـا أيضًـا ضحكـت مـن نفسـي، أن تكـون مـن المـارة فـي القاهـرة يعـد شـيئًا صعبًـا فالمسـافات هائلـة، ولكـن يجـب أن تسـير فـي كل حـي لأنـه علـى قدميـك فقط بـكل تأكيد سـيمكنك رؤيـة الفظائـع والروائـع، ولكـن حينمـا تغيـر فضـاءك مـن واحـد إلـى آخـر (أو مـن مدينـة إلـى أخـرى إذا مـا صـح القـول)، فمـن الضـروري أن تتعاقـد مـع حميـر العصـر الحالـي (وألا تلجـأ أبـدًا للأفيـال مكيفـة الهـواء المسـماة بالحافـلات السـياحية)، تكلفـة سـيارات الأجـرة منخفضـة ويمكـن للمـرء العثـور علـى واحـدة أكثـر نظافـة مـن البقيـة ليؤجرهـا لحسـابه لعـدة أيـام،

ستجد دائمًا سائقًا شريفًا ومقبولًا مثل سائقنا أشرف.

التحرك في حافلات النقل العمومي على العكس من هذا يعد صعًبا، حيث يستحيل فك شفراته تقريبًا وإذا لم يكن المرء يتحدث العربية، فإنه سيصبح مدانا بالتيه في أحياء فقيرة مليئة بالقمامة والتراب وتكدسات من البشر، كل هذا دون ذكر أن الطلب على خدمات النقل العام في ساعات الذروة يكون مرتفعًا لدرجة أنه في ميدان التحرير بقلب القاهرة فمن الشائع رؤية الجموع وهي تهجم على الحافلات والميكروباصات التي تصل للموقف، يتمتع الأكثر شبابًا ومرونة بالأفضلية لأن بإمكانهم تسلق النوافذ بقفزات والتواءات جسدية لا تصدق، ينطلق الجميع نحو الحافلة لدى وصولها مشكلين كتلة بشرية من الصراخ والدفعات والضرب بالأكواع لعدم وجود مفهوم الصفوف في مصر، يحصل كبار السن والنساء على الجانب الأسوأ من كل هذا وبينهم يُظهر السائح ارتباكًا وقلة حيلة أكثر من المعاقين، بالنسبة للمترو، الذي يقبع تحت الأرض في أغلب مساره، فإنه نظيف وحديث وأقل ازدحامًا في ساعات معينة ولكن خطيه يغطيان بالكاد مساحة صغيرة للغاية من القاهرة، العربة الأولى مخصصة للسيدات وغالبًا ما تركبها النساء الأكثر ارتباطًا بالعادات الإسلامية (وهو الأمر الملحوظ في ملابسهن)، فيما تصر نساء أخريات يمتلكن عقلية أكثر استقلالية على الصعود داخل أي عربة، ليحافظن بهذه الطريقة على بعض إنجازات الحرية وعدم التبعية التي تحققت في أزمنة أخرى.

فـي الولايـات المتحـدة وفـي أوروبـا يقـرأ الكثير مـن الأشـخاص، وبالأخص الكثيـر مـن السـيدات، فـي المتـرو، القـراءة ممكنـة فـي متـرو ميدييـن وخصوصًـا بالنسـبة للصحـف، ولكـن فـي متـرو القاهـرة لا أحـد يقـرأ وعلـى وجـه الخصـوص النسـاء، شـاهدت اسـتثناءات قليلـة للغاية بين الرجـال، كما يحـدث فـي الغرب حينما تفرض مبالغـات الدعاية كتابًا واحـدًا على الجميع، يبـدو أن نفـس البروباجانـدا تعمل هنا بنجـاح؛ فالجميع دون اسـتثناء حينما يقـرأون يتعلـق الأمـر بنفـس الكتـاب، القرآن، يسـري هـذا الأمر علـى حراس المتاحف وسـائقي سـيارات الأجرة وحـراس العقارات، قراءتهـم الوحيدة هي هـذا الكتـاب المقـدس، ربمـا بالنسـبة لهـم فـإن المنطـق القياسـي الرجعـي لإحـراق مكتبـة الإسـكندرية لا يـزال سـاريًا؛ فـكل الحكمـة وكل الجمـال وكل الخيـر موجـود فـي القـرآن، وإذا مـا كان هنـاك كتابًـا جميـلًا وحكيمًـا، فإنـه يسـتمد جمالـه وحكمتـه مـن القـرآن، إذا مـا كانت الأمـور التـي يذكرها هذا الكتـاب موجـودة فـي القرآن فـلا داعي للاحتفـاظ به، وإذا لم تكـن موجودة فهـذا يعنـي أنهـا سـيئة ومضـرة وبدلا مـن قراءتهـا يجـب تدميرها.

وصلـت سـيرًا علـى الأقـدام للفنـدق وصعـدت للغرفـة وشـغلت الحاسـوب، مـر الوقـت وأنـا أكتـب عـن الحميـر وسـيارات الأجـرة، لم تصـل زوجتـاي وخشـيت أن يكـون أشـرف قـد أقـدم علـى اختطافهما أو مـن أن يكـون مـرور القاهـرة لا يـزال مشـلولًا، من ضمن الأسـاطير الحضريـة المرتبطـة بالقاهـرة (التـي يقصهـا بـكل رعـب الكثيـر مـن السـائحين الغربييـن) تلـك التـي ترتكـز علـى روايـة اختطـاف، تُجبـر

فيهـا امـرأة أجنبيـة شـابة متزوجـة علـى الصعـود لسـيارة أجـرة، ثـم لا يعود زوجهـا ليراهـا مجـددًا وبعد مـرور عدة سـنوات يعلم أن الأمـر انتهى بها في السـعودية لتصبـح ثالـث أو رابـع زوجـة لأميـر كان يشـتهى جماع شـقراء، لا تتمكـن أبـدًا مـن الخـروج من سـجنها العاجي؛ قفصهـا الذهبي الواقع وسـط هـذا البحـر مـن الصحـراء والنفـط ولكنهـا تتمكـن مـن توصيـل رسـالة مـع ابنـة قنصـل تقـص فيهـا كل شـيء، بكيـت علـى سـيدتيَّ للحظـة وأنـا أتخيل تعرضهمـا للاختطـاف وتزويجهمـا بالإكـراه، جاريتـان لأغـراض الجنـس فـي إمـارة نفطيـة مـا، توجهـت نحـو النافـذة وفتحتهـا ولكـن بيـن جمـوع المارة لـم أميـز شـيئًا، كان من الأفضل أن أظل محبوسًـا ومحاطًـا بتوهماتي على أن أغـرق فـي أدخنـة القاهـرة الحقيقيـة والواقعيـة جدًا.

وصلتـا فـي النهايـة بعـد أن تأخرتـا كثيـرًا، أتـت (ك) سـعيدة وهـي تحمل حقائـب وصلـت إلـى عنقهـا، بينمـا كانـت (آ) خاويـة اليديـن وعلـى وجههـا ارتسـمت قسـمات الاسـتياء، لدى كل واحـدة منهما رواية مختلفـة للأحداث، أشـرف ذهـب بهمـا إلـى متجـر يصنـع فيـه أحـد أقاربـه صناديـق مرصعـة باللؤلـؤ، هـذا هـو مـا روتـه (ك) بحمـاس وهـي تظهر لـي بعضهـا، ولكن (آ) أصـرت أن أشـرف ذهـب بهمـا إلـى حيـث يوجد لـص يبيـع صناديـق باهظة الثمـن مرصعـة بلؤلـؤ وهمـي مـن البلاسـتيك، اشـترت (ك) نصـف الصناديق الموجـودة فـي المتجـر تقريبًـا أمـا (آ) التي نظـرت إليها بغضـب فلم تجلب شـيئا، ضممـت كتفـيَّ فـي قلـة حيلـة ودعوتهمـا لتنـاول الطعـام في سـفينة

ترسـو علـى ضفـاف النيـل، اتصلـت بحامد أبـو أحمد لكـي يأتي معنـا، ولكن لـم أجـد ردًا، المطعـم كان جيدًا، وهناك بين الأسـماك والسـلاطات المختلفة نسـينا الحميـر وسـيارات الأجرة والصناديق، رويت لهمـا قصة اختطاف زوجة صديقـي الصحفـي فـي القاهـرة وكيف تعيـش حاليًا بالقرب مـن المدينة في قصـر كئيـب وحزيـن، دفينة وسـط هـذه الحيـاة، لا أعرف إذا مـا كانتا صدقتا هـذه الكذبـة الأخـرى ولكـن الوقت مـر ولم يكـن ثقيلا، عدنا سـيرًا في وقت متأخـر وعبرنـا الشـوارع ركضًـا وراوغنا حركة المرور ممسـكين بأيـدي بعضنا بعضًـا كمـا لـو كنـا شـبحًا بثلاثة رءوس، مـرت سـيارات الأجرة التي لم تشـعل مصابيحهـا وهـي تحـف بنـا وصـوت الأبـواق قـد يكـون تحيـة أو سـبابًا أو مغازلـة أو تهديـدًا، ولكـن لأنهـم لـم يدهسـونا فقـد كان لـدي (ك) تفسـير آخـر، كل سـيارات الأجـرة فـي القاهـرة تذهب لحفـل زفاف، لهـذا لا تتوقف عـن إطـلاق أبواقها.

عطور القاهرة

هناك شيء لا يجب القيام به في فندق (كوزموبوليتان) أو أي من فنادق القاهرة وهو فتح النوافذ، إذا ما فعلت هذا فإن مجموعة من الأبخرة الصناعية والأتربة والأدخنة الكثيفة النتنة ستهاجم أنفك. "كيبلينج" وهو رحالة عظيم انشغل كما لم يفعل أحد من قبل بروائح الرحلات سبق وتوقع هذا الأمر في مؤتمر بعام 1914 حينما قال: "خلال وقت قصير لن نشعر بشيء سوى روائح البنزين واستنشاق زيوت الوقود"، لا يجب أن ننتظر شيئًا آخر من تكدس ملايين من سيارات الأفراد والأجرة والشاحنات، بداية من الموديلات السوفيتية الأكثر تسببًا في الأدخنة وصولًا لآخر موديلات مرسيدس الألمانية الموجودة هنا، كل هذه الأمور بجانب مصانع الحديد والصلب والأسمنت وبقية المداخن الصناعية تجعل ضبابًا كثيفًا يتجمع فوق المدينة، ولكي نهرب من تأثيره الضار يجب التحرك لعدة كيلومترات نحو أي من الاتجاهات السماوية، بمجرد الخروج من منطقة تأثير القاهرة، سنشعر مجددًا بالروائح الشرقية الساحرة، أو بكل بساطة، الهواء الجاف عديم الرائحة الذي كان غالبًا ما يستنشقه القدماء.

يرتبط فن التحنيط بالبلاسم والزيوت والعطور، نرى في الرسوم الأكثر قدمًا بمصر استخدام العطور وكرات التبخير لأغراض

دينية واحتفالية (خلال عملية إعداد المومياء كانت الجثث تفرغ من أحشائها لتملأ لاحقًا بالراتنجات والنبيذ وبمعاجين البخور العطرية والمُر)، ولكن أيضًا كإحدى عادات الحياة اليومية، كل المؤشرات تقول إن الغرب نَسَخَ من الشرق شغفه بالروائح المركزة للزهور والنباتات، لهذا حينما يجبرك البائعون على التوقف أمام متاجر العطور ويحاولون بيع بضائعهم بأسعار خيالية، فهناك سبب لحديثهم عن هذا الماضي الرائع الذي كان يصنع كل شيء فيه من المُر والصمغ والخزام والياسمين والطحالب والبخور والأنابيق والقطّارات، أمام كل عطر فرنسي شهير، يقدمون لك خامته الأصلية القادمة من الشرق، ولكن ربما تعد متاجر التوابل، وليس العطور، هي تلك التي تسود فيها الروائح العجيبة، خليط العطور يجعلك تغرق في حالة هلوسة ساحرة مليئة بالمحفزات، كما لو كانت تجربة تخدير، هناك شيء دون أن تراه تشير رائحته إلى أنه أحمر ولكنه في الحقيقة أخضر اللون؛ عبير بارد ورائحة حادة؛ أزرق كثيف ينقي سمعك؛ رائحة مكتومة وأخرى نفاذة وثالثة حينما تستنشقها تشعر أنها تلتصق بكل جسدك؛ غرفة بريق صامتة تربك أنفك بسكرة روائحها المنبعثة.

كانت هذه التوابل (التي تحفظ الأطعمة وأصابت الناس بالجنون) السبب وراء اكتشاف الأوروبيين للأراضي التي جئت منها، فعبر القاهرة كان يمر الطريق القادم من الهند والصين الذي كان يجمع كل الروائح الشرقية، ولكن هذه الرحلة كانت طويلة ومحفوفة بالمخاطر، كانت هذه التجارة مكلفة للغاية

بسـبب مبالغـات الوسـطاء، حفـرت قنـاة السـويس لاسـتكمال العمـل بهـذا المسـار الـذي كان قـد انقطـع بعـد اكتشـاف طريـق آخـر نحـو الهنـد عثـر عليـه الأدميـرال فاسـكو دا جامـا، والـذي كان يرتكـز علـى الالتفـاف حـول أفريقيـا بالكامـل وقطـع الأطلسـي نحـو الجنـوب والالتفـاف مـن عنـد رأس الرجـاء الصالـح، قبـل كل هذا كانت قوافـل الجمال تجلـب كل هذه الحبوب والأعشـاب والنباتـات والأوراق التـي لا يـزال بإمـكان المـرء العثـور عليها في متاجـر التوابـل بالقاهـرة، ذهـب كولومبـوس خلـف هـذه الروائح نحو شـبه القـارة الهنديـة وبفضلهـا هـي ورائحـة الثـروة، فـإن البَحـار الشـجاع العظيم الـذي استمدت بـلادي اسـمها منـه خطـا فـي يـوم مـن الأيـام فوق سـواحل خليـج داريين.

إذا مـا كان بروسـت[23] قـدم فـي عـام 1913 بالكتـاب الأول مـن (البحـث عـن الزمـن الضائـع) صفحات لا تنسـى عن قـدرة النكهات الهائلـة على إثارة العواطـف، فـإن كيبلينـج في مؤتمره بعام 1914 وفـي نصوص أخرى له، حلل الطريقـة التـي تمكنـت بهـا الروائـح مـن نقلـه مـن مكان لآخـر أثنـاء رحلاته المتنوعـة، فالرائحـة لا تعيـد فقط الأماكن المنسـية، بـل إن تأثيرها العاطفي يُذكـر بكلمـات مـن لغات أجنبية لم يكن يعلم في الأسـاس أنها لا تزال داخل رأسـه، إذا مـا كانـت النكهـات تنقـل بروسـت عبـر الزمن، فـإن الروائـح تنقل

23- مارسيل بروست: روائي فرنسي ينتمي لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتعد روايات (البحث عن الزمن الضائع) من أشهر أعماله حيث نشرها في فترة امتدت لأربعة عشر عامًا تقريبًا بين 1913 و1927.

كيبلينج عبر المكان ومعها يتحرك عبر الجغرافيا التي يعرفها، من عاشوا بالهند أو قضوا بها مواسم طوالًا مثل كيبلينج يقولون إن الرائحة النتنة التي يجدها المرء في هذا البلد شيء لا يقبل المقارنة، ويضيف لنا الأخير أن الرائحة النتنة الموجودة في القاهرة تعد مجرد هواء ثقيل مقارنة بها، بالنسبة لي وفي أول تجربة شرقية فإنها كانت أكثر من اللازم، ربما تكون العطور والتوابل قد ابتكرت أو اكتشفت لتغطية هذه الرائحة النفاذة الصاخبة المحيطة القادمة من تحلل الحيوانات والنباتات؛ أو ربما تكون العطور والتوابل ذرية نقص المياه والرغبة في تغطية انبعاثات خاصة، لا أعرف.

بجانب تلك الرائحة النتنة وخلف جدران بعض المطاعم يجد المرء أيضًا الروائح المجهولة التي لا يمكن مقاومتها للمطبخ الشرقي، خبز القاهرة المنفوخ الرائع وقت خروجه من الفرن توًّا، مثل ذلك الذي قدموه لنا في مطعم (بابيون) أو السلطات المصرية الشهية التي يقدمونها في مطعم (فيش ماركت)؛ حساء العدس الأصفر مع البصل المقلي وزيت الزيتون؛ والطحينة بخلطات مختلفة؛ والباذنجان مع الزيت والليمون؛ والطماطم الناضجة (أكثر الطماطم حمرة وغضة شاهدتها في حياتي تنمو في مصر) مع البصل والشبت؛ والبطاطس مع الجزر والبقدونس والكمون والليمون؛ ومعجون الحمص والباذنجان المدخن؛ والخيار مع الثوم وكريمة الزبادي المخفوقة مع بضع قطرات من البرتقال المر؛ أو ربما أفضل فلافل مقلية في مصر بقلبها الأخضر الكثيف

الـذي يتحـول للـون آخر لا اسـم له مثل تلـك التي يقدمونهـا بمطعم (فلفلة) وسـط الروائح المختلطة للحمام المشـوي وسـجق الضأن.

تظهـر هـذه المطاعـم غالبًـا فـي أدلـة السـياحة وشـهرتها مسـتحقة، كنت أرغـب في تناول شـيء أكثر شـعبية في أماكن لم تصبهـا عدوى تلك الفصيلة المعيبـة الـذي نكـون عليهـا نحن معشـر السـائحين، هنـاك أماكـن المخيلة؛ أماكـن رائعـة تصنعهـا التصـورات وأخـرى ملوثـة بصفـوف مـن يسـعون وراء الشـهرة، كمـا تقـول صديقـة لـي مـن بارمـا "يوجـد ديـران فـي بارمـا، الـذي يخـص سـتندال وذلـك الـذي يـزوره السـائحون"، هنـاك دائمًـا ماكونـدو[24] جارسـيا ماركيـز الرائعـة وأراكاتـاكا[25] الحزينـة؛ مكان المـوت الحقيقي، الذي يـزوره الدارسـون الجـادون والباحثون عـن الأنقاض، هناك أهرامـات المخيلة والذكريـات والأهرامـات الموبـوءة، نكهـات الشـرق التـي تظهـر فـي الكتـب وذلـك الطعـام الـذي نبتلعـه هنـا، كنت أرغـب في تنـاول طعام ليـس مدونًا فـي الأدلـة السـياحية، لهـذا عـدت للاتصـال بحامد أبـو أحمد، الـذي لم يكن رد علـى أي مـن مكالماتـي، وذلـك لأحقـق هدفـي، أن يصحبنـي إلـى أحـد الأماكـن التـي تعجـب الحنـك (كمـا يقولـون فـي كوبا)، وليـس مكانًـا مُجملا بـالأذواق الأجنبيـة، وجدتـه هـذه المرة في منزلـه ولكن أخبرنـي بأنه مريض وسـيعاود الاتصـال بـي دون تأخيـر حينما يشـعر بتحسـن.

24- القريـة الخياليـة التـي تـدور فيهـا الأحـداث الرئيسـية لرواية (مئة عـام من العزلـة) للكاتب الكولومبـي جابرييل جارسـيا ماركيز

25- بلـدة حقيقيـة موجـودة فـي كولومبيـا وهـي مسـقط رأس الكاتـب الكولومبـي جابرييـل جارسـيا ماركيـز.

المفاصلة

بـدأت هـذه الرحلـة فـي بوسـطن، المدينـة وصـل فيها فـن تجاهـل الغير إلـى مسـتوى لا يصـدق، ربمـا يرونـك هنـاك ولكن لا أحـد ينظر إليـك، هناك تجنـب لأي اتصـال إنسـاني- سـواء كان بدنيًـا أو لفظيًـا- مـع الغربـاء. للقيام بمشـترياتك تخـدم نفسـك بنفسـك وللسـداد تسـتخدم ماكينـات وبطاقـات، ثقافـة الـ"سـوبر ماركـت" تلغي كل أشـكال التعامل الشـخصي، يمكـن القيام بالمشـتريات عبـر الإنترنـت عبـر إدخـال رقـم بطاقتـك البنكيـة وفـي اليـوم التالـي سـتجد أمـام بابـك الفواكه والخبـز والحبـوب، تظهر الإمـدادات هناك وحدهـا كأن الأمـر بفعـل السـحر بعـد أن نقلهـا شـخصٌ مـا فجـرًا، كل شـيء غايـة فـي الدقـة، ولا توجد حاجة في الأسـاس لمعرفة الإنجليزيـة، فيكفي أن تفهـم الأرقـام فقـط لكي تتحرك باطمئنان، الأسـعار ثابتـة ولا يمكن أن يخطر فـي بـال أي أمريكي المفاصلة في سـعر البرتقال سـواء في الـ"سـوبرماركت" أو على الشـبكة.

"الفصـال" هنـا علـى العكـس مـن هـذا يعـد أحـد مظاهـر الحيـاة واختبـارًا لمحـاورك، بـدون هـذا النقـاش المبدئـي حـول الأسـعار يسـتحيل خلـق محادثـة حقيقيـة وحيويـة؛ فمنـذ تبـادل الكلمـات الأولـى بخصـوص الشـئون النقديـة يصـل الأمـر للحديـث بخصـوص وظيفـة كل فـرد أو العائلـة؛ إنـه إرسـاء لاتصال بشـري يُصعـب عملية

البيع والشراء ولكنه يُحسن نوعية الحياة، ربما يُسبب انعدام الفاعلية مزاجًا سيئًا في البداية ولكنه في النهاية قد يصبح منبع حالة مزاجية أفضل، الحياة في سوق القاهرة السياحي الكبير أو بازار خان الخليلي عبارة عن مفاصلة مستمرة، وربما لهذا السبب يبدو الجميع هناك سعداء، تنقل روح البازار كل الحياة الموجودة في مصر، الأسعار ليست ثابتة في أي مكان سواء الفندق أو سيارة الأجرة أو قائمة المأكولات، بل إنه في فنادق الخمس نجوم يمكن الاتفاق بخصوص السعر وحينما يتجرأ المرء على الابتعاد متظاهرًا بعدم الاهتمام، تنخفض الأسعار كأنه سحر.

يفسر لنا الأستاذ فكري حسن الأمر بقوله إنه في سوق التجار وعبر المفاصلة تُمارس أحد أشكال العدالة الاجتماعية، يحصلون على أموال أكثر منك إذا ما كنت أجنبيًا أو إذا ما ميزوا ثراءك، بمعنى آخر إذا ما تمكنت من السفر حتى هنا فقد صُنفت بالفعل على أساس أنك ثري (وجهك مثل وجوه الأثرياء)، لهذا فمن العدل أن يُكلفك الأمر أكثر من البقية، لهذا تصاب عدادات سيارات الأجرة دائمًا بأعطال إذا ما صعد إليها أجنبي وإذا ما أعطيت أحدهم ورقة بعشرين جنيها فإن المتلقي دائمًا تكون قد نفدت منه الصرافة، يجب أن تحدد الأسعار قبلها ولكن على الرغم من هذا دائمًا ما تحدث مفاجأة في النهاية لرفع السعر بموجب أي عذر، نقطة تحصيل غير مرئية، أو ضريبة جديدة فجائية، بل وحتى زيادات نهارية وليلية، إذا ما ارتكب أحدهم حماقة سداد قيمة التوصيلة مسبقا فربما يتوقف السائق فجأة في أحد الأركان

قائلا "عشرتك توصلك لهنا"، وإذا لم تدفع له مجددًا، فلا يوجد سبيل لإقناعه بالوصول بك إلى وجهتك.

تعيدك ثقافة "الفصال" إلى تلك الحقبة البريئة التي لم يكن المرء يعرف فيها قيمة الأشياء، لأنه في الحقيقة، كيف يمكن تسعير الأشياء؟ لا يمكن أن يُفسر كل شيء عبر قانون العرض والطلب المعروف، هل هناك معنى لقيمة بعض اللوحات؟ هل كان فان جوخ أقل جودة حينما لم يتمكن من بيع ولو لوحة واحدة؟! أو ما هي قيمة كتاب ألفته على سبيل المثال؟ الأمر لا يرتبط بالوقت الذي استهلكته والعرق الذي بذلته بل وحتى جودته، دائمًا ما يسري هذا الأمر، توجد كتب سيئة للغاية وتدفع دور النشر ملايين من الدولارات من أجلها وأخرى ممتازة يموت مؤلفوها من الجوع، إذا ما دفعوا لي مقابل كل صفحة في هذا الكتاب كما كانوا يسددون لديكينز مقابل كل جزء جديد من رواياته، فسأعمل على زيادة عدد الحروف، كما كان يفعل صديقي المترجم كارلوس خوسيه ريستريبو، والذي كان يقبض على أساس عدد الأحرف، لذا فبدلا من كتابة (حليب) فإنه كان يترجم دائمًا كلمة Milk باستخدام عبارة "السائل اللؤلؤي لأنثى الثور".

طريقة حساب قِيمة ما نكتبه حينما نُكلف بتأليف أعمال تُعد أمرًا صعبًا، لا يتعلق الأمر فقط بالكتب التي لا تزال في طور التأليف، بل يصعب أيضًا تحديد سعر كتاب آخر ومختلف وبعيد في مرحلة البيع. حينما كنت أعمل بمجال بيع الكتب؛ حينما كنت

تاجـرًا منـذ عـدة سـنوات أتذكـر أننـي كنـت أتصـرف بأسـلوب تجـار خـان الخليلـي أكثـر مـن ذلك الذي يخـص تجار الولايـات المتحدة، كنت أسـتخدم مبـدأ الخيانـة التجارية بتحديد السـعر وفقا للعميل، حينما كان يصل شـخص أعـرف أنـه قـارئ جيـد ولكنـه فقيـر فلا مفـر مـن تقديم سـعر رمزي لـه، أما القـراء الأثريـاء الأشـرار فـإن سـعر الكتـاب كان يجـب أن يصل لأرقـام فلكية، ليسـت هناك حاجة للإشـارة إلى أن المكتبة أفلسـت لأن الرأسـمالية حساسة تجـاه هـذا النوع مـن العدالة حينما يلجـأ الفقراء للاسـتغلال ويرفض الأثرياء العـودة، للرأسـمالية منطـق آخـر، الظلـم العـادل للماكينـة التي تقرأ السـعر عبـر الأكـواد المطبوعـة والتـي تتمتـع بميـزة أنهـا لا تفـرق بيـن هـذا وذاك، التمييـز قـد يصبـح أخلاقيًـا ومفتقـرًا للأخـلاق في الوقـت ذاته، علمونـا دائمًا أن التمييـز تصـرف غيـر لائق، ولكن علـى الرغم من هذا فإن تحديد الأسـعار ليـس وفقـا للبضاعـة المباعـة بـل وفقـا للعميـل لا يعـد شـيئًا شـاذًا بـل هـو فـي الكثيـر مـن الأحيـان أكثـر عـدلًا، حتـى ولـو لـم ينـدرج الأمـر تحـت بند منطـق أكثـر موضوعية، بشـكل مبدئي ليس سـيئًا أن تختلـف قيمة الفاصوليا مـن الفقيـر للغنـي أو أن ترتفـع قيمـة الأجـرة بالنسـبة للأجانـب عـن أهـل البلد.

المقاهي

ما نملكه في كولومبيا هو حانات أكثر من كونها مقاهي، إنها أماكن للإسراف في تناول النبيذ حتى ينعقد لسانك؛ أماكن للتوحش يستحيل فيها للآذان أن تميز الموسيقى المُشغلة بأعلى صوت بين الفايناتو والرانشيرا والتانجو والبورو والميرينجي والإستريدينتي[26]، هناك بارات في مدريد لتناول كأسين من النبيذ مع أطباق الـ"تاباس"[27] التي لا تنتهي، ولا توجد فيها موسيقى أخرى سوى الأصوات العالية للزبائن الذين لا يتوقفون عن الحديث.

في القاهرة، كما هو الحال في فيينا، يذهب المرء إلى المقاهي، بعضها لا يزال يحتفظ بكل سحره؛ سحر يتحمل حتى غزو السائحين، ولكن الأكثر شيوعًا هو المقاهي الشعبية المخصصة فقط للمصريين، هي غالبا بسيطة وهادئة ويرتادها الرجال وتقدم فيها فقط مشروبات القهوة والشاي والـ"كركديه"، بجانب الأراجيل عند الطلب، هي موجودة في كل مربع سكني وتعيش متدثرة بضباب دخان التبغ ودافئة بفعل الرائحة المحببة

26- أنماط وأنواع موسيقية مختلفة خاصة بأمريكا اللاتينية.

27- الـ Tapas هي مجموعة من الأطباق التي تؤخذ كوجبة خفيفة أو بجانب المشروبات الكحولية في إسبانيا.

للفحـم المشـتعل، غالبًـا مـا تتكـون مـن طـاولات ذات أرجـل حديديـة أو خشـبية وعليهـا مربـع رخامـي، لا تقـدم الكحـول أو تشـغل الموسـيقي مـا يسـهم فـي إكسـاب أجوائها طابعًـا رزينًا بل وربما لمسـة من الوقـار، تحترق خلطـات ممتـازة فاتحة اللـون بروائح الفاكهـة وعطور أخرى داخـل الأراجيل أسـفل الفحـم المشـتعل الـذي يغيـره القهوجية بمهـارة كبيرة، ليتحـول هواء القاهـرة المتـرب الملـوث وكريـه الرائحـة فجـأة فـي المقاهـي إلـى بهجـة حقيقيـة للأنـف، يجلـس المـرء هنـاك ويطلـب الشيشـة، وهـو اسـم أرجيلـة التبـغ فـي مصـر، وبجانبهـا ربمـا قهـوة تركيـة بالحبهـان أو كوبًـا مـن الشـاي بالنعنـاع أو الكركديـه وتبـدأ مـن هنـا لحظـة الهـدوء وبـدء الحوار.

فـي المقاهـي الأكثـر شـعبية، التـي لا تهـم أسـماؤها لأنهـا متطابقـة وموجـودة فـي كل شـوارع وكل أحيـاء القاهـرة، حينمـا كنت بمفـردي كانت الخدمـة تجـري بحفـاوة كبيـرة وسـط جهـد كبيـر مبـذول لتفهمـي ولجعـل حديثـي مفهومًـا، ولكـن حينمـا كنـت أدخـل وأجلـس بصحبـة زوجتـيَّ (أو بواحـدة منهمـا إذا مـا كانـت الأخـرى تاهـت بيـن الشـوارع أثنـاء شـراء الهدايـا)، فـإن حالـة مـن الضيـق كانـت تنتـاب القهوجـي والزبائـن، كأننـي أنتهـك عقـدًا سـاريًا ولائحـة مكتوبة بالـدم منذ قـدم التاريخ، فـي الواقع هو التـزام تكتيكـي لا يحـب المصريـون حتى الاعتراف به بشـكل كامـل، لم نصر بعدهـا علـى تكـرار عمليـة الاقتحـام تلـك التـي لا تشـعرهم سـوى بالضيـق وأصبحنـا نجلـس معـا فقط في الأماكـن المعتادة على تلـك الفصيلة العجيبة المسـماة بالنسـاء، خضـت تجربـة الذهـاب منفـردًا فـي بعـض الأمسـيات

والليالـي وأنـا أفكـر فـي أن يرتـاح كل منـا مـن الآخـر، أنـا منهما وهمـا مني، إنـه أمـر سـيء، الفصـل بيـن الجنسـين ولكنـه يُمـارس فـي بعـض الأحيـان بـكل الثقافـات، توجـد فـي مدريـد حانـات مخصصة للسـيدات فقـط، والتي عُوملـتُ فيهـا بصـورة أسـوأ مـن زوجتـيَّ فـي المقاهـي المخصصـة للرجـال فقـط بالقاهرة.

إذا مـا جلـس المـرء فـي الداخـل فـإن البائعيـن لـن يهجمـوا عليـه، ولكـن فـي المقاهـي عامـة لا تشـعر بأنهـم يسـعون وراء خداعـك، إنهـا رخيصـة للغايـة بـل وأشـبه بهديـة ولا يوجـد أي شـخص قـد يحـاول مضايقتـك لكـي تتـرك الطاولـة، كانـت ولا تـزال أفضـل أماكـن بالمدينـة، حيـث كان يجلـس سـابقًا الحكواتيـة لروايـة قصـص (ألـف ليلـة وليلـة) وبطـولات النبـي وآثـام وإنجـازات سـلاطين القاهـرة أو مذبحـة المماليـك وقصـص فتـوات وأبطـال الحـي، التـي رواهـا "محفوظ" في بعـض كتبه، اندثـر تقليـد الحكواتية ولكن هـذا الأمـر لا يسـري على الحـوار والنقاش، يـدور الحديث كثيرًا حول النسـاء (ربمـا لأنهـن غيـر موجـودات)، فـي يوم مـن الأيـام أخبرونـي بالنتيجـة التي توصلـوا لهـا بعـد نقـاش طويـل بينهـم، "نحـن العـرب نحـب الشـكر وعيـون الترحيـب الدافئـة والابتسـامة المشـجعة وليـس الغمـوض الواهـن لعوانـس الغـرب الباحثـات عـن المثاليـة المفرطـة"، لـم أوافقهـم على الأمـر ولكن لم أناقشـهم أيضًـا، فبالنسـبة لي فإن عوانسـنا يصبحن كل يوم أقـل وهنًا. حينما يُرهقـون مـن الحديث يخرجـون الطاولة أو الدومينو، يلعبون بصورة سـريعة للغايـة بتركيـز ومهـارة مدهشـتين، دائمًا مـا تكـون حالتهم المزاجيـة جيدة،

سـواء فـازوا أو خسـروا لأنهـم لا يلعبون علـى أموال بل فقـط يدربون عقلهم وخيالهم، يشـتتون أنفسـهم، ينسـون ويتسـلون.

أعـرف أن عـدم دخـول النسـاء لهذه المقاهي أبـدًا ووجود منـع غير معلن بخصوص المسـألة يعد أمرًا كريهًا؛ وأعلم أيضًا أن من سـتنتهك هذه القاعدة سـتدفع الثمـن عبـر احتقارهـا، ولكن في يومهـا تعاطفت مـع صحبة المقهى القاهـري، علمونـي لعـب الطاولـة وأخبرونـي بحيلتيـن أو ثـلاث لتطويـر طريقتـي فـي لعـب الدومينـو وتحـاوروا معـي كمـا لـو كنـت صديقًـا قديمًـا وأخبرونـي بأننـا معشـر الرجـال فـي حالـة دخـول النسـاء بيننـا سـنبدأ فـي التنافـس؛ وأنـه فـي حالة اختـلاط امرأة ذات عمر مناسـب بزمرة مـن الذكور فإن حالة التناسـق الموجودة ستنكسـر؛ سـتتحول الصحبة إلى منافسـة قذرة سـتنتهي بالخـلاف أو الشـجار، لأنهـا يجـب أن تـرى مـن هـو الأفضـل بيـن الجميـع، مـن هـو الذكـر المسـيطر وقائـد القطيـع لكي تبقـى معـه وتختاره ولهـذا سيسـعى كل الذكـور نحو التميـز، كان هناك مبرر مشـابه (ولكنه أكثر وضوحًـا ووقاحـة) يعلمه لنا القساوسـة في المدرسـة المذهبية التي درسـت بهـا، حيـث كانـوا بـكل تأكيـد لا يسـمحون أيضًا لأي امـرأة بالدخـول، لا أقبل بـأي مـن الرأييـن ولا أصـدق كليًـا هـذا التفسـير البيولوجـي لأصدقائـي فـي القاهـرة، ولكـن لـم أظهـر ممانعتـي حتـى أنتهـي مـن هـذه الشيشـة وهـذا الفنجـان مـن القهـوة ومبـاراة الشـطرنج الطويلـة التـي خسـرتها فـي النهاية بـكل تأكيد.

قبـل الشـطرنج كان النقاش بخصوص النسـاء، وبعده كانـت رغبة أصدقائي الجـدد هـي الحديث عـن الإلهيات، افترضوا كوني مسـيحيًا ولهذا شـرحوا لي وجهـة نظـر واحـد مـن أذكـى فلاسـفتهم التـي تقـول: "النصـارى لا يعقلـون، يظنـون أن الواحـد ثلاثـة والثلاثة واحـد؛ أن أولهم هـو الأب وثانيهم هو الابن وثالثهـم هـو الـروح؛ أن الأب هـو الابـن ولكنـه ليـس الابـن؛ أن إنسـانًا هـو الـرب ولكنـه ليـس الرب، أن المسـيح هـو رب كامل ولكنه ليس الرب نفسـه، أن ذلـك الـذي وُجِـد منـذ أبـد الآبديـن قـد ولـد، يؤمنـون أيضًـا بـأن الخالق، الإلـه الكامـل جُلـد وصُلـب وقُتـل؛ بل وأخطر شـيء هو أن الكـون حُرم لمدة ثلاثـة أيـام مـن حاكمـه"، أخبرتهـم بأنـه لا يمكنني الرد بشـيء علـى المنطق المثالـي لفيلسـوفهم المسـلم، اندهشـوا مـن موافقتي السـريعة ثـم ضحكوا برضـا ولكنهـم لـم يكونـوا متأكديـن إذا ما كنـت وافقت بالفعـل على كلامهم أم أننـي ببسـاطة لا أرغـب فـي النقـاش، هـم معهم حـق بالفعل ولكـن أيضًا لـم أكـن أرغـب فـي الدخـول بجـدال، كان مـن الممكـن أن أذكـر لهـم بعض الأباطيـل المشـابهة بخصـوص توحيدهم بإلههـم ونبيهم.

يبـدو أكثـر المقاهـي المفضلـة بالنسـبة لـي ربمـا مثـل المـدارس الحديثـة فـي وطنـي، هـو مختلـط، أتحـدث عـن (ريـش)، إنـه أكثـر المقاهـي انفتاحًـا، ربمـا يكون أقلهم من ناحية الأصالـة وأكثرهم تلوثًا بالتأثيـرات الأجنبيـة (وهـو الأمـر الـذي لا يشـكل عيبًـا دائمًـا)، ولكنه مقهـاي المفضـل الـذي قـد يتنـاول المـرء فيـه وقـت الغـداء حسـاء العـدس الرائـع مـع الخبـز المحمـص، مالـك المـكان رجـل ضخـم ذو

هيبة ويدخن دون توقف السجائر التي تحتضنها أصابعه المتبلة بالنيكوتين ولا يزال يحتفظ بالتميز والذوق العالي لأسلافه الذين افتتحوا المقهى وفي رأسهم فكرة خلق أجواء تحررية، تعلق على الحوائط صور لأعلام أدبية لا أعرفهم ولكن وجوههم مريحة، ربما يكون النُدل بطيئين بعض الشيء ولكن لم آت إلى هنا بحثًا عن كفاءة لا غبار عليها، يمكنك ليلا شرب بيرة مصرية جيدة أو نبيذ أبيض مقبول من الدلتا دون أن ينظر لك أحد بصورة سيئة حتى ولو كانت عيناك ستخرجان من محجريهما ويفيض لسانك بالحديث بإنجليزية سيئة، بفضل (ريش) تعرفت على زقاق المعجزات[28] الموجودة بجانبه حيث تمكننا من صنع المزيد من الصداقات مع مصريين من الرجال والنساء.

بجوار مقهى (ريش)، عند الحارة التي تبدأ عند أحد جوانبه ووسط الهواء الطلق تم ارتجال واحد من أكثر المقاهي شعبية في المدينة، هو أغلى بعض الشيء بالنسبة لأبناء البلد كحال (ريش)، ولكن يجلس القاهريون في هذا المكان من أجل تجاذب أطراف الحديث والتدخين وتناول الشاي، في محيط المكان توجد تلك الأماكن القليلة التي نحتاج إليها جميعًا، صالون الحلاقة الأرخص والأدق في العالم كله، ومحل صغير للطعام يقدم الخبز والزبادي والفواكه، وأيضًا مكتب يُتيح الولوج للإنترنت لأنه يجب أن تعرف

28- استخدم الكاتب كلمات El Callejón de los Milagros والتي تعني حرفيا «زقاق المعجزات»، ولكنها في الوقت ذاته الترجمة التي استخدمت بالإسبانية لرواية «زقاق المدق» للأديب المصري نجيب محفوظ.

ولـو سـريعًا وسـط ركـض الأيـام مـا يحـدث فـي بقيـة أنحـاء العالـم؛ ولأنه لا توجـد طريقـة لإرسـال المقـالات للصحـف أو تلقي أخبـار العائلة سـواه، في الخـارج يسـتعيد كل شـيء أجـواءه المعتـادة وإيقاعـه البطيء وسـريانه مع التيـار، يهتـف أحدهـم: "زنجـي"، لأن هكـذا يدعـى القهوجـي، يأتـي "زنجي" ويقـدم لـك خدماتـه وقتمـا يسـتطيع، يرتاد هـذا المقهـى أيضًا بعض النسـاء المتمـردات غيـر المحجبـات اللاتـي يتحدثـن نـدًا لنـد مـع الذكـور، زواجهن سـيكون صعبًـا، هكـذا يقـول الذكوريـون لأن رجـال هـذا البلـد يحبوهـن ولكنهم يخشـون النسـاء اللاتي لا يستسـلمن لدورهن المفترض كمرءوسـات، أقـول لنفسـي ومـا الفـارق الـذي سـيحدث إذا لـم يتزوجن إذا ما كـن للحظة أو لعـدة سـنوات بهجـة هـذا العالم؟ لا توجد مشـاجرات أو منافسـات مليئة بالخيانـة بيـن الرجـال، علـى الرغـم مـن وجـود النسـاء، ربمـا هنـا يتعلمـون الكثيـر عبـر شـريكاتهم فـي المواطنة ويدركون أن هذه ليسـت سـاعة إعادة النسـاء للتدثـر بالحجـاب أو نحـو دار الحريـم (وهـو ليـس فنـدق أو سـاحة مخصصـة للمتعـة، بـل غرفـة منعزلـة فـي المنزل).

هناك مقهى آخر نغزوه نحن غالبًا معشـر السـائحين ولكنه لا يزال يحتفظ بسـحره القديـم، صحيـح أنـه ليـس المفضل بالنسـبة لـي ولكنه الأكثـر إغراءً وذوقًـا ورونقًـا، يهيمـن وجود المرايا العملاقة البيضاوية ذات الإطار الخشـبي على مدخله، في الوقت الذي تتراص فيه طاولات صغيرة واحدة وراء الأخرى داخلـه وخارجـه، إنهـا "قهـوة الفيشـاوي" الواقعـة فـي قلـب خـان الخليلـي

والتـي تحتـوي أيضًـا علـى قاعـة صغيـرة للشـئون الأكثـر خصوصيـة وأمامـه تمـر قطعـان العالـم مـن الأجانب وأبنـاء البلد، أفضل شـيء في (الفيشـاوي) هـو تأثيـر الجـلاء والعتمـة لإضاءتـه، أشـباه الظـلال الضبابيـة مـن الداخـل للخـارج مـع الأشـعة العمودية نهـارًا والإضـاءة الدخانية الخافتة ليـلًا مع وقع موسـيقى مـن يتحدثـون العربيـة ولغـات كثيـرة أخـرى، أشـباه الظـلال تلـك موجـودة بوجـه عـام فـي أغلـب مقاهـي القاهـرة وهـي مـا تؤكـد سـحرها، الضـوء الشـديد لا يسـاعد علـى تجـاذب أطـراف الحديـث لأنـه يـؤدي لشـد الجفـون والتركيـز بصـورة أكثـر مـن الـلازم فـي تقاسـيم الوجه ونقـاط الأنف والشـعر غيـر المصفـف، على أي حـال إذا مـا كان مقهى (الفيشـاوي) ممتلئًا كمـا يحـدث غالبًـا فمـع حلـول الليل فإن بعـض السـائحين القلقيـن يرحلون فـي النهايـة لتنـاول الشـاي أو القهـوة فـي محيطـه بمقاهـي لا تقـل جـودة، ولكنهـا أقـل سـحرًا مـن الناحيـة المعماريـة والديكوريـة. أخبرونـا أن المكان لـم يعد مثل سـابق عهده، سـواء حينمـا كان جُحرا للصوص أو وكرًا للشـعراء، ولكـن لا يوجـد شـيء فـي مصـر مثل سـابق عهـده، يمكننـي القـول إن هذه الأراضـي فـي حالـة انهيـار منـذ خمسـة آلاف عـام ولـم تتوقـف بعـد عـن الانهيـار، ينطبـق الأمـر ذاتـه علـى الفيشـاوي، ربمـا لـم يعـد مـا كان عليـه، ولكنـه لا يـزال مـا هـو عليـه ويسـتحق الأمـر أن تظـل هنـاك لعـدة سـاعات لتـرى النـاس وهـي تعبـر أمامـك وتشـعر بيـن دخـان الشيشـة كيـف تمـر الحياة.

لمـاذا يتحـدث المـرء دائمًـا عـن أماكنـه ومقاهيـه المميـزة؟ أليـس

مـن الجيـد أن يتحـدث أيضًـا عن المقاهـي التـي يبغضها؟ عثـرت على واحد منهـا فـي القاهـرة وهـو (جروبـي)، الذي دخلته بنـاء على توصيـات من أدلة سـفر قديمـة وحديثـة، يفتـرض أنـه كان مكانًـا رائعًـا وربمـا يُمكن بيـن بقايا الكارثـة أن تُخمـن هـذا، كان لـه ماضيـه بالطريقـة ذاتهـا التي قـد يمتلك بها شـخص عانـى مـن نزيـف دماغـي أفـكار وذكريـات، وصـل أثنـاء انهيـاره إلى عكـس مـا كان عليـه؛ لم يعـد محببًا بل كريهًـا، من يقدمون لـك الخدمة الآن فحـول كسـالى غيـر مباليـن، وآنسـات ليـس لديهن أي اهتمام سـوى بشـكل المنديـل الملتـف حـول أعناقهـن وفـوق كل هـذا تدفـع مـا قد تكلفـه عينك مقابـل شـاي الأكيـاس الصناعـي البائـس ومياه سـيئة الطعـم وحلـوى رديئة الصنـع، يقـع فـي ميـدان طلعـت حـرب ولا يسـتحق لا مكانـه ولا شـهرته ولا اسـمه ولا أي شـيء، لا يسـتحق حتى الإشـارة إليه، لا يجب أن يوجد هنا في هـذه الفقـرة الصغيـرة، أذكـره لكـي لا يرتكـب آخـرون مـن محبـي التجـارب نفـس خطـأ التوهـم بشـهرته القديمـة، إذا ما تمكنـت في يوم مـن الأيام من تحديـد موعـد مـع صديـق أصدقائـي حامـد أبو أحمـد، سـأخبره بـأن نتقابل هنـاك لأعاقبـه بالوجـود فـي هذا المـكان المنفـر على روحـه الهاربة.

النظرات

أقولها مرة أخرى، في القاهرة لا يتظاهر أحد بأنه لا يراك، هنا لا تسري القاعدة الموجودة في كل المجتمعات الثرية، هنا يمكن لأي شخص الشعور بما يقول المشاهير إنهم يعيشونه، الملاحقة من قبل نظرات الغرباء، يمعن الجميع النظر فيك هنا ويتحدثون معك ويبتكرون لك اسمًا، يحييك الأطفال مرة تلو الأخرى بشيء بين الإنجليزية والفرنسية ويقولون (Jaló, Jaló)[29]، يجربون في البازارات التحدث بكل اللغات التي يعرفونها حتى تغمز الصنارة مع تلك المطلوبة سواء كانت الإيطالية أم الإنجليزية أم الفرنسية أم الإسبانية، بالنسبة لأولئك الذين يحملون ملامح شرقية فإنهم يتعرضون لدُش من العبارات الصغيرة باليابانية والكورية والصينية، يمتلك الأطفال على وجه الخصوص قاموسًا موسعًا من العبارات التي تخلو من أي لهجة، وإذا ما اكتشفوا اللغة التي تتحدثها، ينادونك بالاسم الأكثر شيوعًا فيها ويبدأون في التخمين، كارمن، أنطونيو، ماريا، خوسيه إذا ما سمعوك تتحدث بالإسبانية، وإذا لم يحالفهم التوفيق فإن المزحة تكون

29- يقصد الكاتب كلمة (Hello) أو مرحبا بالإنجليزية ولكن الناطقين بالإسبانية يواجهون صعوبة في نطق الـ H بالإنجليزية لذا تخرج أشبه بالخاء العربية والتي يقابلها في الإسبانية حرف الـ(J)، لذا كتب الكلمة على شاكلة كيفية تخيله لسماعها بالإسبانية: Jaló.

جاهزة: "علي بابا".

داخـل كل المعانـي الموجـودة فـي تعبيـر (eye contact) بالإنجليزيـة توجـد واحـدة مـن أهم الصفات التـي تُميز المصرييـن، لأن الغربيين أصبحوا بمـرور الوقـت يحاولـون تجنـب أي اتصـال بصـري بـكل السـبل الممكنـة، ولكـن هنـا علـى العكـس مـن هـذا فـإن المـرء يشـعر بأنـه ملاحـق ومُثقـل بهـذا الاتصـال البشـري. ربمـا يكون السـبب وراء الموضـة الأكثر شـيوعًا بين شـباب وفتيـات الغـرب بتركيـب الخواتم والقطـع المعدنية في الجسـد ودق الأوشـام وتلويـن الشـعر وتصفيفـه فـي ضفائـر الراسـتا هـو القيـام بمحاولـة بائسـة لجـذب الانتبـاه، للعـودة لذلـك الماضـي الأسـطوري الـذي كنـا ننظـر فيـه إلـى بعضنـا بعضًـا، أعتقـد أنـه دون تفكيـر فـي الأمـر فإنهـم يقيسـون الأمـور بهـذه الطريقـة "ربمـا لـو أقدمـت علـى القيـام بالأمـر الأكثـر جنونًـا، ربمـا فقـط فـي هـذه اللحظـة، سـأنزع عـن نفسـي صفـة المجهـول، غيـر المعـروف، عديـم اللـون، الخفـي"، ربمـا إذا تنكـرت لـن أصبـح كيانًـا شـفافًا ولـو للحظـة، فـي الغـرب ينظـرون إليك كمـا ينظرون فـي الأفلام إلـى الرجل الخفـي، تعبـرك نظراتهـم لأن نقطـة تركيزها تكـون في مكان خـاو وناء يبعد عنـك كثيـرًا، يعـد هـذا هـو السـبب وراء وجـود تضخيـم فـي مظاهـر جذب الانتبـاه بالغـرب، يبالـغ الرجـال بنفخ ريشـهم والنسـاء بفتحات صدر واسـعة ونهـود مـن السـيليكون، بينمـا يتنكر الشـباب بشـكل متزايد في أزيـاء مبالغ فيهـا، كلهـم يرغبـون فـي أن يراهـم أحـد وأن يلفتـوا انتبـاه عصبـة العميـان.

هنـا علـى العكـس مـن هـذا، كل مـن لا يعرفونـك يفعلـون كل مـا فـي وسـعهم لكـي يتصـادف مجالـك البصـري معهـم، يحـدث هـذا الأمـر غالبًـا لأنهـم يرغبـون فـي أن يبيعـوك شـيئًا مـا، ولكـن ليـس لهـذا السـبب فقـط، يمتلـك القاهريـون عاطفـة لـم أشـاهدها فـي أي مـكان آخـر، يشـعر المـرء ببعـض مـن انعـدام الثقـة لأن الكثيـر منهـم مـن البائعيـن، ولكـن الأغلبيـة لديهـم فقـط فضـول وود حقيقـي، يرغبـون فـي معرفـة ما هو غريـب عنهم، يسـعون أن ينظـر هـذا الغريـب إليهـم ويتعـرف عليهـم ويطلـب منهـم أي خدمـة قـد تسـاعدهم علـى الشـعور بالراحة في هـذه الأرض البعيـدة، تأتي أغلبيـة المسـافرين إلـى مصـر مـن أجل مشـاهدة أطـلال حضارتهـا القديمة المجيـدة، ولكنهـم يتجنبـون الاتصـال مـع مصريـي اليـوم كأنهـم طاعـون، وذلـك بعـد أن لوثهـم بـكل تأكيـد ذلـك المـرض المعـدي الـذي نطلـق عليه فـي الغـرب دون لحظـة شـك واحـدة التعصـب الإسـلامي، هـذه أكبـر أنـواع الإهانـات التـي لا نرغـب حتـى في التأكـد منها بأنفسـنا عبر معرفـة ما الذي يفكـرون فيـه أو يشـعرون بـه، السـائح الغربـي معتـاد علـى البقـاء وحيـدًا بنظارتـه قاتمـة اللـون التـي لا يسـتخدمها غالبًـا للحمايـة مـن الشـمس، بـل لكـي لا يـدرك المصـري أنـك داعبتـه بنظـرات عينيـك، إذا مـا نظـر المرء في عينـي المصـري فمـن الصعـب للغايـة ألا يقتـرب منـك دائمًـا بنوايـا حسـنة، هـذا أمـر حزيـن وجميـل فـي الوقـت ذاته.

يكمـن هنـا سـر وحقيقة لعبة العيون، لغة النظرات الشـهيرة لنسـاء الشـرق المختبئـات خلـف الحجـاب والملزمـات بقـول كل شـيء عبر نظراتهـن، ولكـن فـي الحقيقـة النسـاء هنـا لسـن مـن ينظـرن إليـك

تقريبًا في كل الأوقات لأن مهنة التجارة يهيمن عليها الذكور غالبًا، النظرة الأنثوية، على العكس من التجارية، يجري تجنبها لأن نظرات النساء هنا هي ما عليه في كل أنحاء العالم، ليست مجرد بداية، بل هي كل ما تشمله فنون الغزل، هن يعرفن هذا أفضل من أي شخص، بخلاف أن حجم عيونهن وقدراتها التعبيرية يجعلان كل رسوم القدماء تظهر كأحد أشكال الواقعية الصرفة، النساء لا يقطعن طريقك بدافع الود (سيكون شيئًا شائنًا) ولن تُقدِم البائعات القليلات للغاية أيضًا على فعل هذا، فهن على عكس الذكور لا ينادون عليك أو ينظرون إليك؛ يجب أن تقترب أنت منهن، الرجال على العكس من هذا يلاحقونك بنظراتهم، كل لعبة العيون هذه وكل هذه المبالغة في النظرات والنداءات شأن ذكوري.

بالنسبة للشأن الأنثوي الذي يظهر في الأدب أكثر منه في الواقع، فهناك واحدة من أفضل قصص (ألف ليلة وليلة) التي يتعرض فيها حَمَّال للإغراء بعد نظرة من فتاة تذهب في طريقها نحو السوق، حيث تكشف وجهها للحظة وتشير إليه بحركة واحدة من عينيها أن يتبعها، يفعل الحمَّال هذا مثقلا بكل مشترياتها ويسير خلفها حتى منزلها وبمجرد الوصول تسمح له بالدخول وتروي عطشه وتكافئه على مجهوده برقصة رائعة وعرض عري مثالي ثم يقدمان لاحقا على الاستحمام معًا، وبعدها لا تذكر القصة بقية التفاصيل ربما لشدة وضوحها أو لأنها غير نافعة، يروي جيرار دي نرفال قصة تبدو كما لو كانت حلمًا، يقول فيها إنه أثناء

تنزهـه فـي شـوارع القاهـرة أغرته فتـاة بنظرتهـا أثناء التسـوق في الشـوارع المتاهيـة للمدينـة، لـذا لاحقهـا طويـلًا فـي حـواري القاهـرة حتـى وصـل لمنزلهـا، تركـوه يمـر هـو الأخـر لـدار الحريـم وقدمـوا لـه فتـاة عاريـة ولكن يظهـر فـي النهايـة أنـه كان ضحيـة خدعـة حيـث كانـوا يرغبون فـي تزويجه بهـا، لـم يحـدث لـي أي شـيء مشـابه، لا تلـك البهجـة الممتعـة التي مـر بها حمـال (ألـف ليلـة وليلـة) أو ذعـر الـزواج الـذي تعرض لـه جيـرار دي نرفال، مـلأ الكتابـان عنـدي فـراغ تلـك التجربـة الشـخصية وإن كنـت أكاد أجـزم أن مـا حـدث مـع نرفـال هـو مـن وحـي الخيـال مثـل قصـة (ألـف ليلـة وليلة)؛ فمـن الإجبـاري فـي أي رحلة للشـرق أن تغريـك امرأة ذات عينين سـوداوين بنظراتهـا، ربمـا كان بإمكانـي أن أُدخـل قصـة مشـابهة ولكـن بعـد الفقـرة السـابقة أصبـح ابتكارهـا متأخرًا للغايـة، ولكن على أي حال سـأحكي حقيقة تجربتـي مـع نسـاء القاهرة.

النساء

أحيانا في ليالي الأرق الطوال أفكر في نساء أخريات كما لو أن (آ) و(ك) لا تكفياني ويجب أن أحصل على المزيد من حروف الأبجدية لكي أشعر بالسعادة، أسهر مفكرًا فيهن مع أحلام أيروتيكية أحيانًا، ولكن دائمًا ما تنتابني كوابيس الذنب، كنت أؤلف لهن رسائل طويلة ثم أنسخها في اليوم التالي على البريد الإلكتروني، اعتدنا الذهاب إلى نفس المقهى الإلكتروني الواقع بجانب (ريش)، ولكن بخلاف مقاهي القاهرة العادية حيث تُباع القهوة ولا وجود للموسيقى، تشعر هنا بالاختناق من الأغاني التي تعد إثباتًا حزينًا- بعيدًا عن الإنترنت (وهو الإثبات السعيد)- على اكتساب الطابع الغربي، حتى ولو كانت كلمات الأغنيات بالعربية. تمكنت (آ) هناك من الحصول على صديقة جديدة تدعى عائشة، وأثناء نسخي لخطاباتي المطولة لشياطيني الليلية، استمعت (آ) بعناية لمشكلات عائشة، نشأ بمرور الوقت بينهما أحد أشكال التضامن، كانتا تتحدثان بالإنجليزية ودائمًا عن الشيء ذاته، محمد، خطيب عائشة، الطالب بجامعة الأزهر الذي عاد للعراق ولم يتصل بها أبدًا عقب رحيله منذ حوالي ثمانية شهور، لا تعرف عائشة إذا ما كان لا يتصل بها بسبب صعوبات في التواصل ببلاده؟ أم لأنه ندم ويعني صمته تخليه عن التزامه، كانتا تعيدان

النقـاش فـي الموضـوع مـرة تلـو الأخـرى ارتـكازًا علـى مؤشـرات تراهـا كل واحـدة فيهمـا.

تكتـب (آ) هـي الأخـرى "رسـائل" لمعشـوقيها سـواء كانـوا مـن أولئـك الذيـن ندمـوا أم لا، آخرهـم هـو أسـتاذ فـي بوسـطن؛ يهـودي طويـل الشـعر يتمتـع بالـذكاء والوسـامة (كمـا تقـول)، هـو أحـد طـلاب شومسـكي ولكنـه أقـل تشـددًا فـي مـا يتعلق بالسياسـة وأكثـر وضوحًا فـي ما يخـص اللغويات وعلـوم الأعصـاب، إنـه أكثـر الإخصائيين النفسـيين عقلا على وجه البسـيطة، أو هكـذا قالـت (آ) أثنـاء إرسـالها مجموعـة مـن قصائـد بورخيـس لـه، لا يجـب أن أشـعر بالإهانـة فأنـا نفسـي كنـت أكتـب قصائـدي النثرية لأشـباح حـروف الأبجديـة التـي تنقصنـي ليغفـرن لـي غيابـي الطويل، بـل ووعدتهن بـأن أجلـب لهن أسـاور مـن الفضـة وخراطيش من ذهـب حُفرِت أسـماؤهن عليهـا بالهيروغليفيـة ومحـارم مـن الحريـر والصـوف وطُـرح وأحذيـة مدببـة الأطـراف وطاقيـات نوبيـة وعطـور، ضحكـت (آ) وهـي تتحـاور مـع عائشـة، لقـد أنهت خطابها لسـاكن بوسـطن سـريعًا لأن الأسـاتذة لا يجـب أن يهدروا وقتهـم مـع مخيـلات وأحـلام تافهـة، تخـوض (ك) علـى العكـس مـن هـذا مغامـرات بريديـة أكثـر صعوبـة، لديهـا علاقـة معقـدة مـع صديق يعشـقها، ويرسـل لهـا يوميًـا مجموعـة مـن التوصيـات الصعبـة، فهـو في قمـة الغضب بسـبب هـذه الرحلـة التـي سـافرتْ فيهـا معـي، كتبنـا نحـن الثلاثـة يوميًـا مسلسـلنا التليفزيونـي البريـدي، كانـت إجابـات صديقاتـي البعيـدات عبـارة عـن فقـرات بـاردة أحاديـة المقاطـع أو أخرى سـاخرة مثل "لتقـضِ وقتا طيبا

مـع (آ)" أو "لتسـتمتع كثيـرًا مـع (ك)"، تعـدد الزوجات شـيء صعـب للغاية فـي الغـرب، أحيانًا أصـاب بالإرهاق.

لا أحلـم فقـط بالنسـاء الأخريـات اللاتـي تركتهـن خلفـي، بـل كانـت لـدي رغبـة فـي التعـرف علـى واحـدة مـن هنـا، لمحاولـة الوصـول لمرحلـة الفهم والتفهـم بـدأت فـي التحقـق مـن "شـبق الشـرق" الشـهير، سـألت ونظـرت وتحدثـت وتحققـت وبعـد عـدة أسـابيع مـن البحـث غيـر المثمـر يمكننـي قـول الأمـر صراحـة دون تجميـل، كل شـيء عبـارة عـن كذبـة كبيـرة، إذا مـا كان يجـب أن أقـدم شـهادتي بخصوص تجربتي الشـخصية، يجب أن أقص ما أخبرنـي بـه الأصدقـاء الذيـن صنعناهم بمرور الأيام (عائشـة وسـليم وطالب وفكـري وفاطمـة)، فالقاهـرة مقارنـة بمدريـد أو ميدييـن تبـدو بالنسـبة لي منزوعـة الإحسـاس الجنسـي أكثـر مـن كونهـا إيروتيكيـة، ربمـا مـن الأفضـل عـدم اسـتخدام كلمة "منزوعة الإحسـاس الجنسـي" لأنها كريهـة وغير مثبتة، والقـول بـأن أجواءهـا أكثـر خضوعًـا للرقابـة وامتـلاءً بالمحرمـات بالنسـبة للنسـاء والتابوهـات للرجال.

لـم يبـد القاهريـون لـي كشـهوانيين أو شـبقين ولا القاهريـات كمحبـات للغـزل والإغـراء، بـل عكـس كل هذا، مسـتقيمون وعفيفون بـل وخجولون، لا أشـكك بكل تأكيد في أن المصريين يمارسـون الغرام بكل الحماس والفاعلية اللازمـة، فخيـر دليل على هذا هو اسـتقبال مليون مواطن جديد سـنويًا (هي كارثـة ديموغرافيـة حقيقية)، ولكـن الجنس يمارس عامة داخـل صرح الزواج

المقـدس وفـي الأراضـي المباركـة لـكل مـا هـو مسـموح أكثـر مـن عالـم البغـي، نحـن بعيـدون للغايـة عمـا كتبـه هيـرودوت فـي ملحوظاتـه عـن مصـر: "المنـاخ هنـا ليـس مختلفًـا فقـط عـن بقيـة أنحـاء العالـم، وليسـت الأنهـار وحدهـا هـي المتميـزة عـن البقيـة، بل أيضًـا النـاس لأن أغلبيتهم في عاداتهـم وتصرفاتهـم يخالفـون الممارسـات المعتادة لبقية البشـرية، النسـاء هـن المسـئولات عـن السـوق والتجارة، فيمـا أن الرجال يجلسـون في المنزل وينشـغلون بالحياكـة، بنفـس الطريقـة ترفـع النسـاء أحمالهن علـى أكتافهن فيمـا أن الرجـال يضعونهـا فوق رءوسـهم، لا يمكن لامرأة أن تصبـح راهبة أو أن تمثـل إلهـة، بـل إن الرجال يمثلون النوعين، الأبناء ليسـوا ملزمين بإعاشـة آبائهـم فـي شـيخوختهم، فيما أن النسـاء يجـب عليهن هذا سـواء كن يرغبن فـي ذلـك أم لا"، إذا مـا كان مـا يقولـه هيـرودوت صحيحًـا فإن مـا يتبقى من مثـل هـذه العـادات حتـى الآن هـو أن النسـاء لا يمكنهـن اليـوم الوعـظ في أماكـن العبـادة؛ فكمـا يحدث فـي كل أنحاء العالـم هذا المجـال لا يزال يعد حكـرًا ذكوريًا.

لا يمكنني ولا أرغب في الحديث عن المصريين شـديدي الثراء أو شـديدي الفقـر، لأن كلًا منهمـا كمـا يحـدث فـي كل أنحـاء العالـم يعد طبقـة منعزلة؛ طبقـة متفـردة لا تحكمهـا تمامًـا القواعـد الثقافيـة السـائدة، صفـوة القاهرة الاقتصاديـة، ذات الطابـع الغربـي المتحـرر، التـي تشـرب الويسـكي وتمتلك عقـارات فـي باريـس ونيويورك ليسـت مجموعـة ذات صفة تمثيليـة، ينطبق الأمـر ذاتـه علـى الأكثر بؤسًـا؛ الذين لا يسـتطيعون فك الخط وتـدور حياتهم

حـول محاولـة توفيـر أدنـى درجـات المعيشـة، هـذان القطبـان كانـا خـارج مسـار رحلتـي، لـم أتمكـن من التعرف عليهمـا، لم أجد مدخلًا إلـى أي منهما سـواء بسـبب الرفـض أو الصعوبات الثقافية التي لا يمكـن تخطيها، ولكن في محيـط مـن تعرفـت عليهـم مـن موظفـي المكاتب وطـلاب الجامعـة وملاك المقاهـي والعامليـن بالحكومـة، فـإن انطباعي قبل أي شـيء هـو وجود نوع مـن الرصانـة فـي مـا يتعلـق بالعـادات الجنسـية بجانـب تمييـز كبيـر ضـد النسـاء؛ حيـث لا يـزال الرجـال المصريـون فـي هـذا المحيـط مقتنعيـن بـأن الحيـاة والواقـع هـي شـأن للرجـال ومـن أجـل الرجـال وأن النسـاء يجـب أن يحافظـن علـى دورهن كمرءوسـات.

تبلـغ نسـبة الأميـة بيـن النسـاء المصريـات 60% وهنـاك نسـبة مشـابهة تخضـع، وبالأخـص فـي الريـف، إلـى عمليـة الختـان أو فـي أسـوأ الحـالات إلـى الختـان الفرعونـي (الـذي يشـمل حياكة شـفتي البظر بخيـط أو حلقات معدنيـة لضمـان أكبـر قـدر مـن العفـة) وهـو الأمـر الأكثـر خطـورة وألمًـا، حـالات النزيـف والعـدوى دائمًـا مـا تكـون شـائعة، بهـذه الطريقـة، يلجـأ الكثيـر من نسـاء العرب لاسـتخدام السـرة، مركـز الاهتمام في هز الوسـط أو أكثـر أنـواع الرقـص العربي شـهرة الـذي كانت ترغـب (ك) في تعلمـه، كأداة للإغـراء أكثـر مـن المنطقـة المشـعرة الواقعـة فـي وسـط أجسـادهن.

زرنـا الملاهـي الليليـة الواقعـة فـي شـارع الهـرم، هـز الوسـط هنـاك أصبـح فنًـا فـي مرحلـة انهيـار، أخبرتنـا (ك) بـأن المصريـات

يحتفظـن بأفضـل "نمرهـن" للمنـزل، حيـث قالـت إن أفضـل وصـلات رقـص شـاهدتها أثنـاء الـدورة التي درسـتها كانت في منـزل إحدى العائـلات، هناك ترقـص الزوجـات لأزواجهـن، وإذا مـا سـمح هـؤلاء فـلا مانـع مـن حـدوث الأمـر أمـام ضيـوف آخريـن أو بالأصـح مدعـوات. العـروض العامـة مخصصة للسـائحين القادميـن مـن الغـرب أو الـدول العربيـة الأكثر ثـراء، ولكنها تبدو غيـر أصليـة، تمنـع الدولـة أو بالأصـح تنظـم مسـألة العـري، لا توجـد أحجبة قـد تسـقط، كل مـا يُـرى هو السـرة، ذلك الحبـل الصغير المنعقد على شـكل زهـرة، ولكـن خـلال هـذه السـنوات الأخيـرة بالغـرب فـإن الفتيـات الأصغـر سـنًا يظهرونهـا وبهـذه الطريقـة فـإن قدرتهـا علـى الإغـراء أصبحـت شـبه معدومـة بالنسـبة لنـا نظـرًا لتأقلمنـا علـى هـذه العـادة، كان أفضـل رقـص شـرقي شـاهدناه فـي مطعـم عائـم مـن أولئـك الذيـن يرسـون علـى ضفـاف النيـل، ولكنهـا لـم تكـن راقصـة بـل "متحـولاً جنسـيًا"، لهـذا بحثنا عن شـيء أكثـر أصالـة فـي الرقـص الدينـي التقليدي.

نصحتنـا عائشـة بالذهـاب لمشـاهدة الرقـص الصوفـي، توجهـت مسـتعدًا للدفع لأنه كما قالت أدلتي فإن "كل شيء في مصر يجب أن تسدد من أجله حتـى ولـو كانت دعوة للمنـزل"، بعدما اعتدت على الدفـع حتى ولو وجهوك نحـو اتجـاه معيـن في الشـارع أو صاحبوك فيـه دون أن تطلـب، كنت أنتظر سـداد شـيء مـا في شـارع "القصبة" مـن أجل حضـور هذا العرض فـي وكالة الغوري، التي تضم مدرسة تعود لقاهرة العصور الوسطى، ولكن المفاجأة أنه

كان مجانيًـا؛ بـل أنهم لم يقبلوا أي إكراميات عقب نهايته، كنت سبق وقرأت عـن رقصـات شـمال أفريقيـا فـي كتـاب إديـث وارتون (فـي المغـرب) حيث تقـص رحلتهـا فـي مطلـع القـرن العشـرين بهـذه المنطقـة، تغيـر كل شـيء كثيـرًا، حضـرت وارثـون فـي مـولاي إدريـس رقصـة "الحمادشـة"[30] وروايتهـا مبهـرة حيـث تقـص فـي بدايتها مـا رأيته بنفسـي فـي الرقـص الصوفي:

"فـي الوسـط يـدور مخلـوق ذو منظـر ملهـم حـول نفسـه، يـدور ويـدور وترتفـع خصـلات شـعره المجعـدة عـن رأسـه كأنهـا أفاعـي تنتصـب، تتحرك عضـلات وجنتيـه وسـط انقباضـات وحولـه يوجـد راقصـون آخرون ينسـابون بنعومـة ويلتفـون على شـكل دائرة ويطلقـون هتافات طويلة وهم يلمسـون إيقـاع وحدة الموسـيقى".

مـا تقصـه وارتـون لاحقًـا هـو مـا انتظـرتُ حدوثـه (ولكنـه لـم يحـدث) ؛ لقـد لاحظـتْ هـي أنـه مـن رءوس بعـض الراقصين بدأ يتسـاقط شـيء أشـبه بصمـغ أحمـر بلـل سـيقانهم والأرضيـة، أدركـت فجأة أنهـا دماء؛ لقـد جرحوا أنفسـهم حينمـا رأوا "النـور" لتصبـح احتفاليـة الرقـص أحد مراسـم التضحية، عـوى البقيـة كالذئـاب فيما بـدأ الأطفال فـي التلوي لمحاولة محـاكاة الحركة المجنونـة للمرابـط الـذي دخـل في حالة نشـوة.

30- نسبة إلى "علي بن حمدوش" وهو أحد كبار شيوخ التصوف في المغرب والذي عاش في القرن السابع عشر ويعرف مريدوه الذي يعتبرونه وليا بإسم "الحمادشة" وتتميز احتفالاتهم بخصائص فريدة وغريبة من نوعها حتى بالنسبة لبقية الطوائف الصوفية.

لا يتوقـف المـؤدي فـي الرقـص الصوفـي عـن الـدوران حـول نفسـه، يقوم بأحد أشـكال الـ"سـتريبتيز" الحزينـة بنزع تنورات ضخمـة ملونة تلتف حوله فـي الهـواء لتخلـق منظـرًا محببًا، ولكن بعيدًا عن النشـوة النهائيـة أو بالأصح حالـة السـكر التـي ينتهـي بها بسـبب ذلك الـدوران (لا يتوقف عـن الالتفاف لمـدة نصـف سـاعة تقريبًـا)، فإنـه لا يصـل إلـى أي منتهـى متطـرف، أعتقـد أننـي أشـعر داخـل أعماقـي بالامتنـان لأن هـذا الرقـص لم يعـد جـادًا وعنيفًا كمـا كان فـي سـابق عهـده، بالحالـة ذاتهـا التـي سـأكون بهـا ممتنًـا إذا لـم يعذبـوا الثيـران أو يقتلوهـا فـي الحلبـات، أنـا حقًّـا ممتـن ولكـن مـا أفهمـه هـو أن مـا تبقـى مـن الرقصـات القديمـة هـو مجـرد محـاكاة حركيـة صرفـة وأن مصارعـة الثيـران دون دمـاء سـتفقد نصف سـحرها المتوحـش، حتى ولو كانت سـتصبح أكثر تحضرًا، لم تعد رقصات الشـرق الشـعائرية سـوى نسـخة محـلاة ممـا كانـت عليـه، هـا هـي إحـدى صـور الشـرق المتوحـش تتبخـر هـي الأخـرى، كلمـة "صوفـي" الزاخـرة بالغمـوض والرمزيـة والتـي ارتبطـت قصائدهـا السـاحرة مـع أفضـل شـعر أنجبتـه إسـبانيا وكل أصـداء دراويشـها وفقرائهـا، اختزلـت فقـط في رقصة قائمة على الدوران لا تشـارك بها النسـاء.

الرقـص الـذي لـم تشـارك فيه النسـاء والشـارع الملـيء بالمحجبات والأجسـاد المغطـاة بعبـاءات طويلـة تصـل لـلأرض وكل هـذا العـرض مـن الراهبـات البدينـات تـرك داخلـي إحساسًـا عميقًـا بالتعاسـة، لا تـرى تقريبـا امـرأة تسـير وحيـدة فـي شـوارع القاهـرة؛ دائمًـا مـا يكـون أحـد مـا بصحبتهـا سـواء طفـل أو صديقـة أو زوج أو شـقيق،

وفـوق كل هـذا فـإن أجسـادهن مغطـاة بشـكل كبيـر، كـم توجد هنـا حاجة لأن تعـود أشـهر مغنيـات العالم العربـي، المصرية أم كلثوم لتهتف "اكشـفن عـن أنفسـكن يـا أخواتـي، نحـن القـوة الحاميـة لمجتمعاتنـا ونسـتطيع أن نحتفـظ برءوسـنا مرفوعـة وعاريـة"، أو حينمـا غنـت "أعطنـي حريتـي أطلق يـدي"، تعـد أم كلثـوم أحد أهـم الأمثلة التحررية بالنسـبة للكثير من النسـاء العـرب، بـدأت حياتهـا بتـلاوة القرآن فقط بسـبب جمـال صوتهـا، كانت فتاة ريفيـة مـن دلتـا النيـل وكان والداهـا يجبرانهـا علـى ارتـداء ملابـس الرجـال والعقـال فـي حفلاتهـا الأولـى، تخلصـت فـي البداية من هـذا الـرداء، ولاحقًا مـن الحجـاب، ثـم غنـت لمصـر الجديـدة والاسـتقلال، نسـاء القاهـرة اليوم- والمتدثـرات مـن قمـة رءوسـهن حتـى أخمـص أقدامهـن- هن مجـددًا صورة للتبعية .

تفهمـت حينهـا أنـه علـى الجانـب الآخـر، فـإن المـزاج الجيد الذي نشـعر بـه بعـد نزهـة فـي وسـط ميدييـن يعـد بشـكل كبيـر وليـد السـعادة التـي يتركهـا النظـر للنسـاء؛ سـيدات يتنزهـن ويظهـرن مـا لديهـن ويتركـن الأنظار تتجـه لهـن، كأنـه وعد لا يكتمـل، كل ما ينتقده التطهريـون بخصوص الغرب، تفاخـر النسـاء بتنوراتهـن القصيـرة ونهودهـن الممتلئة وشـعرهن المنسـاب وملابسـهن الشـفافة، أقـول فقـط إن كل هـذه الأمـور، التـي ربمـا تدخل في حـدود الابتـذال، تعـد أحيانـا السـعادة بعينهـا، مـا كنت أسـعى للبحـث عنه فـي الشـرق هـو فقـط مجـرد ذكـرى؛ حالة اشـتياق للغـرب أو أحـد ابتكارات الرحالـة، كنـت أبحـث هنـا ضمـن أشـياء أخرى عـن "إثـارة الشـرق"، لكن ما

تعثرت بـه فـي النهايـة كان فكـرة إحـدى قصائـد كيفيـدو[31] التـي قـال فيها "تبحـث عـن رومـا فـي رومـا أيهـا الغريـب/ وفـي روما لا تجـد روما نفسـها/ أصبحـت جثـة مـن كانـت تتباهـي بأسـوارها / مقبـرة أفينتينو[32] نفسـه/ لم يبـق سـوى نهـر التيبـر وتيـاره"، الأمـر ذاتـه يحـدث هنـا، نهـر النيـل هو من بقـى، "هـرب مـا كان ثابتـا/ وبقـى واسـتمر فقـط كل مـا هـو هـارب"، إذا مـا كنـت أرغـب فـي العثـور علـى إثـارة الشـرق، فأنـا مجبـر علـى العـودة لميدييـن؛ ميدييـن التـي عدت إليهـا حينما نظرت لـ(آ)، حينمـا نظرت لـ(ك)، وحينمـا مـررت يـدي علـى مسـبحة بقيـة الحـروف الأبجدية.

لـم تقـم النسـاء بشـيء منـذ حقبـة السـبعينيات سـوى العـودة لتغطيـة أجسـادهن، إذا كان يصعـب فـي عقـدي الخمسـينيات والسـتينيات العثـور علـى امـرأة ترتـدي الحجـاب في القاهـرة (كما يظهر فـي صور تلـك الفترة)، فـإن مـا أصبـح صعبًـا فـي عـام 2000 هو رؤيـة العكـس، حيث يـزداد بمرور الوقـت عـدد النسـاء المتدثـرات بــ"رداء الإيمان"،.وفقـا للكاتبـة هبـة صالح فإنـه منـذ نـزع النسـوية المصرية هدى شـعراوي للحجاب علانيـة في 1923 ومنـذ تعزيـز هـذا التحرر فـي العقود التالية، بـدأت لاحقا حالة مـن الدوران للخلف .

يوجـد شـيء متناقـض دون أدنـى شـك وهـو يـوم الزفـاف؛ فكما لو

31- فرانثيسكو دي كيفيدو: نبيل وكاتب إسباني ينتمي للحقبة الباروكية وكان من أبرز شعراء تلك الفترة.

32- إحدى الهضاب السبع التي شيدت عليها روما القديمة

أن المصريين لا يمكنهم إتباع الموضة الغربية في مسألة الزي، فإن العرائس غالبًا ما ينزعن الحجاب (فيما أن هذا هو اليوم الوحيد في الغرب الذي قد ترتدي فيه النساء الطرحة)، في أكثر الأيام الذي يجب أن يكن عذراوات فيها وألا يُرون، يقمن بإسدال شعرهن، أظهرت لبعضهن هذا في صور زفافهن ولكنهن كتمن تعليقاتهن وتظاهرن بأنهن لم يفهمن مقصدي أو ربما كن حقًا لم يفهمنه، ولكن مسألة أن ينزعن الحجاب في أكثر الأيام التي يجب أن يلجأن إليه فيها، لا تعد شيئًا قد يثير الفضول بالنسبة لهن، توجد عودة في الوقت الحالي للحجاب بل وحتى الزي الأكثر تشددًا المتماشي مع القوانين الرجعية. تقدم هبة صالح تصنيفًا للزي النسائي في القاهرة، تظهر في البداية من يستخدمن طرحة فوق الرأس تصل لأسفل الرقبة لتغطية الشعر ومؤخرة العنق؛ إنهن "المحجبات"، تعمل هؤلاء النساء بوجه عام وسط العالم البيروقراطي للحكومة ويرتدين الطرح لكي يتجنبن أي مضايقات من الرجال في الشوارع، الطرح يمكن تفسيرها على أساس أنها دفاع عن حريتهن في العمل والحركة، تجدر الإشارة إلى أن التنورات يجب أن تكون طويلة وتصل على الأقل إلى منتصف ربلة الساق، تأتي بعدهن المتدثرات بـ"رداء الإيمان الحقيقي"؛ أو "المنتقبات" اللاتي يغطيهن عباءاتهن القاتمة أو السوداء من أسفل لأعلى واللواتي يخفي النقاب وجوههن بالكامل، حساب نسبة المتشددين بناء على انتشار هذه الأزياء الإسلامية الصارمة، التي تعد أحد مظاهر الإيمان أكثر من كونها موضة،

يعـد أمـرًا ممكنًـا، يرتـدي بعضهـن قفـازات (لا يجـب أن يسـمحن برؤية ولو سـنتيمتر واحـد مـن بشـرتهن) فيمـا يصـل حجـاب الـرأس حتـى الخصـر ولا تُـرى سـوى العينيـن مـن شـريط ضيق، فـي بعض الأحيـان قد يغطـي حجاب الـرأس الوجـه بأكملـه ولا يمكنهـن النظـر إلا عبـر قطعـة مـن الشـاش؛ لكـي يأكلـن فـي المطاعـم يرفعـن النقـاب بيـد ويدفعـن بالأخـرى الملعقـة فـي حركـة بسـرعة جلدة السـوط، دائمًا ما يسـرن في الشـوارع بصحبـة أزواجهن الذيـن يعـد مظهرهـم بمثابـة رسـالة، جلابيـب بيضـاء ورءوس حليقـة ولحى كثيفة .

يقـول طالـب، أحـد المعـارف الأخـرى التـي صنعناهـا فـي مقهـى الزقـاق، إن هـذا النقـاب الكامـل ربمـا يقتصـر اسـتخدامه علـى النسـاء الأكثـر جمـالًا، لكـي لا يلاحقهـن الرجـال، ولكـن لأن كل مـا يظـل قاتمًـا ومحجوبًـا لا يمكـن الحكـم عليـه، فـإن هـذه النظريـة لا يمكـن إثباتهـا، إلا إذا مـا رأيتهـن فعـلا، بالنسـبة لصديقاتنـا (اللاتـي يرتديـن فقـط حجاب الـرأس على أقصـى تقديـر) فإنهـن يرفضـن كل مـا يعنيـه ذلـك الـزي، الحصـول على إذن الـزوج مـن أجـل الخـروج؛ العمـل فـي المنـزل والخنـوع والختـان فـي بداية فتـرة المراهقـة، هـذه العمليـة المعروفـة عالميـا بالاختصـار الإنجليـزي FGM (Female Genital Mutilation)، كمـا سـبق وقلـت لا تـزال تُجـرى فـي مصـر، ولكـن منـذ سـنوات قليلـة فقـط خـرج شـيخ الأزهـر ليعلـن أن هـذه الممارسـة ليسـت مـن الفـروض الشـرعية فـي الإسـلام، إلا أن عمليـة الختـان مـا زالـت تُمـارس، ليـس فقـط فـي قـرى كثيـرة بمصـر، بـل فـي مناطـق كثيـرة مـن القاهـرة، وذلـك لكـي تصبـح كل طفلـة مسـتقبلا زوجـة

طيبـة مؤمنة ومسـتقيمة لا تسـتثار بسـهولة، كمـا تتطلب قواعد غـرف النوم التـي يفرضهـا بعـض الذكـور، بالنسـبة لأحـد مرشـدينا السـياحين فـإن هـذه العمليـة، شـأنها مثـل ختـان الذكـور، ليـس بهـا أي شـيء مهين بـل وضرورية للغايـة حتـى لا تفيـض غرائـز المرأة.

فـي منتصـف القـرن الـ19 قضى أحـد الرحالـة الإنجليز شـهرًا فـي القاهرة ولـم يـر أبـدًا وجـه أي امـرأة، ولـو حتى واحـدة تنظر مـن النافذة، بل وشـعر أكثـر مـن مـرة أنهـن كن يبصقـن عليه مـن خلف المشـربيات، شـاهدت في عـدة منـازل وقصـور قديمـة بالقاهـرة المشـربيات الشـهيرة، تلـك القضبـان الخشـبية الكثيفـة المتقاطعـة التي كانـت توضع فوق نوافذ غرف السـيدات، كـن يتمكـن عبرهـا مـن النظـر ورؤيـة مـا يوجـد فـي الخـارج دون أن يراهن أحـد، كانـت المشـربيات في الغالـب تطل على باحة داخليـة أو قاعة المنزل التـي يجتمـع بهـا الذكـور مـن أجـل التدخيـن أو تجـاذب أطـراف الحديـث، ولكنهـا فـي حالات أخرى كانت تطل على الشـارع، كانت النسـاء المسـلمات المنتميـات للطبقـة العليـا لا يخرجـن أبـدًا مـن المنـزل (إلا مـن أجـل الزواج أو للذهـاب إلـى المقبـرة)، مـن كـن يفعلـن هـذا هـن الخادمـات اللاتي كن يذهبـن لقضـاء المشـتريات، كانـت مجريـات الحيـاة العائليـة قاطبـة تـدور خلـف جـدران المنـزل، كانـت النسـاء يخفين كل شـيء وبالأخـص وجوههن، يقـص فلوبيـر شـيئًا آخـر خـاص بنسـاء الطبقـات الأدنـى منـذ قرنيـن، "كلهن كـن يرتديـن غطـاء الوجـه المزود بحلي أسـفل الأنـف تهتز وتتحـرك بنعومة

مثـل أجـراس الجنغل المعلقـة في رقاب الخيول[33]، وكأحد أشـكال التعويض، علـى الرغـم مـن أن ملامـح وجوهـن لم تكـن مرئيـة، إلا أن صدورهـن كانت مكشـوفة، حينمـا يغيـر المـرء البلد، فإن معاييـر الحياء تتبـدل أماكنها".

لـم تعـد الأمـور هكـذا، الصـدور المكشـوفة الوحيـدة التـي رأيتهـا كانـت فـي متاحـف القاهـرة فـي أعمـال الفـن القديمـة والمعاصـرة، هـذه الرسـوم الشـرقية المذهلـة التـي اتبعـت أسـلوب ديلاكـروا[34] وتظهـر "إثـارة نسـاء الشـرق" المبهـرة؛ تلـك الروعة التـي نحلم بها في الغرب، هـي أحد موروثات القـرن التاسـع عشـر التـي وصلـت لنـا قادمة مـع علـوم المصريـات ونابليون وغـزوه القصيـر لمصـر، دار الحريـم وتعـدد الزوجـات والمحظيـات الــ365 (واحـدة لـكل يـوم) وكل ما ينسـب في قصص المستشـرقين للأمـراء والوزراء وزعمـاء المماليـك هـو ما أسـكن خيالنا كل تلك التوهمـات، وجه دار الحريم فـي الحقيقـة كان أكثـر رقـة وعفـة مما عليه الأمـر في مخيلاتنـا، كانت غرف النسـاء تسـتقبل في الحقيقة الشـقيقات القبيحات والعوانس والنسـاء اللاتي يعانيـن مـن عيـب ما، لـم تكن أحد أشـكال المواخيـر الخاصة؛ بـل ملجأ قبل أي شـيء وغرفًـا لأعمـال الخير.

كان هنـاك باشـوات اسـتفادوا- بـكل تأكيـد لأقصـى درجـة ممكنـة- مـن الخضـوع الأنثـوي الإلزامـي، وحظـوا بزوجـات ومحظيـات لدرجة

33- يقصد البيشة.

34- فردينان فيكتور ديلاكروا: رسام من رواد المدرسة الرومانسية الفرنسية.

لـم يمكنهـم حتـى تحملها، هـذه الصورة بجانـب الإبهـار الإيروتيكي لكلمات شـهرزاد صنعـت لدينـا فـي الغـرب صـورة ذات أصـداء ذكوريـة محببـة عـن الشـرق، القـدرة علـى امتـلاك امـرأة مختلفـة كل يـوم مثـل كبار المسـلمين، النبـي نفسـه تـزوج أكثـر مـن مـرة، وأسـلافنا السـاميون فـي الإنجيـل كانـت لديهـم زوجـات، بـل وأيضًـا محظيـات. تملكُ كمٍ كبير من النسـاء الحبيسـات فـي قصـر جميـل كغنيمـة صيـد حيـة بيـن حمامـات الزليـج المغربـي[35] وعيـون المـاء الحـارة وأشـجار البرتقـال المزهرة، تحـت عناية خصيّ مسـالم علـى أن يكـنّ كلهـن لـك، هـو أحـد أحـلام الرجـال الأوائـل، هـو ذلـك الحلم الـذي لا يـزال يسـكن أحلامنـا، الواقـع شـيء آخـر وبـكل تأكيـد هـو شـيء آخـر حاليًـا أكثـر مـن أي وقـت مضـى، تعـدد الزوجـات لا يمـارس تقريبـا، ومسـألة "الحريـم" لـم تعـد سـوى أمـر يتعلـق بفصـل النسـاء فـي المنـازل والمتـرو بأماكـن مخصصـة لهـن لكـي لا يتعرضـن لأحـد أشـكال التحـرش الجنسـي، التـي قـد تخـدش حياءهـن، هـذا الفصـل قائـم لهدف واحـد وهو تجنـب الاتصـال الجنسـي وليـس تحفيـزه كمـا نظـن نحـن فـي الغـرب، كل إثارة الشـرق تسـكن فقـط في خيالنا ومخيلتنـا. الدعارة مهنـة تمارس بصورة قليلـة للغايـة فـي مصـر، فقـط مـن أجـل إرضـاء أحـلام السـائحين لكـي لا يعـودوا لأوطانهـم محبطيـن للغايـة بشـهوات لـم تكتمـل، لهذا فـإن الفنادق الجديـدة التـي تظهـر مثـل خلايـا النحـل علـى البحـر الأحمـر، تسـتورد لهـم

35- أحـد أشـكال فـن المعمـار المغربـي وهـو ببسـاطة عبـارة عن قطـع جميلة من السـيراميك المصنـع يدويًـا التـي تشـبه فـن الفسيفسـاء البيزنطية ولكـن مع خصائص شـرقية.

ساقطات من البلقان حيث يُنتج الكساد الاقتصادي ورياح الحرب إحباطًا أكبر من الفقر المصري، وحيث تمنح العادات ذات الطابع الغربي لهذه المخلوقات الواعية مخاوف أقل بخصوص "اللعنة الأبدية".

على ما يبدو فإن ما ينتجه هذا الفصل بين الجنسين بجانب قلة النساء النوعية الموجودة هنا (تعد مصر واحدة من دول العالم القليلة التي ترتفع فيها نسبة الذكور عن الإناث، ربما لأن بعضهن في الطفولة لا يحصلن على العناية المناسبة مما يجعل نسبة وفاتهن مرتفعة)، هو حياة الذكور بشهية جنسية برية يكونون على استعداد فيها لإفراغ ما لديهم في أي مكان وفي أي شيء يتحرك سواء كان رجلًا أو امرأة، ربما يعد هذا السبب وراء أن الكثير من المثليين في الغرب يصورون بعض دول الإسلام كمعابد للحرية والتسامح الجنسي، لا يتعلق الأمر بأن الثقافة هنا- أو تحول جيني غريب- هو من ينتج مثليين بصورة أكبر من بقية الأنحاء؛ ربما ما يحدث هو لأن الزواج لا يعد سهلا (تنص القاعدة على الأقل على امتلاك منزل ملائم في وقت تعد فيه أزمة السكن مأساوية في القاهرة، حيث توجد أماكن يعيش بها ثمانية أو عشرة أفراد في غرفة واحدة)، ولأن الرجال يعيشون طوال الوقت معًا كما لو كان سيمينارًا كاثوليكيًا، ربما فقط لهذه الأسباب فإن الممارسات المثلية أو بدء ممارسة الجنس مع أشخاص من نفس الجنس تعد أمرًا شائعًا، يُنظر للمثلية باحتقار في مصر ولكن أن تكون مثليًا سلبيًا فهذا هو أسوأ الأشكال المهينة، إذا ما مارس أحدهم اللواط

مـع آخـر فـإن الأمـر ليـس مهمًـا، فأي ثقـب يعد جيـدًا من أجل إشـباع شـهية يصعـب إطفاؤهـا بجسـد أنثـوي، ولكـن قبـول طـرف لأن يكـون المتلقـي في عمليـة اللـواط تلـك، يُعـد هنا إشـارة علـى وضاعـة شـخصية وأخلاقية.

لا يخشـى الرجـال فـي مصـر مـن إظهـار ود كبيـر تجـاه بعضهـم بعضًـا. تحياتهـم (علـى خـلاف التحيـة البـاردة والفاتـرة التـي يوجهونها للنسـاء دون النظـر لهـن أو لمسـهن تقريبًـا) تكـون مليئـة بالحـرارة، إنهـا دافئـة للغايـة وبالنسـبة للمعاييـر الغربيـة طويلـة أكثر من الـلازم، تبدأ بإمسـاك اليد (ليس بالشـد عليهـا سـريعًا وبحـزم كمـا نفعـل نحن) ثـم يتبادلـون قبـلا طويلا في الخـد مـع العنـاق لفتـرة جيـدة، ثم تعاود مسـألة مسـك اليـد لحيـن الانتهاء مـن سلسـلة طويلة مـن التهاني والمجاملات والأسـئلة، هذا الدفء مسـموح بـه فقـط لأنـه يخلو من أي إيحاء جنسـي، أمـا تحية الرجل للمـرأة فيجب أن تكون قصيرة وجافة وفاترة، لأن تبادل أي شيء معها (حتى ولو نظرة مباشرة إلـى عينيهـا) قد يتم تفسـيره على أسـاس أنه تمهيد جنسـي، تبـادل الحديث علـى انفـراد مـع امـرأة ليسـت زوجتك أو مـن أقـرب الأقربين (شـقيقة أو أم أو عمـة) يُنظر إليه بشـكل سـيئ للغايـة، إذا ما ذهب أحدهـم لمنزل صديق دون أن يوجـد الأخيـر، فـإن الزوجة دون أن تفتح البـاب تبلغه بـ"عدم وجود أحـد" فـي المنـزل، لا تفتـح البـاب للغربـاء وبالتالـي حتـى الصديـق، توجـه الأسـئلة للنسـاء بشـكل غير مباشـر عبر أزواجهن، حتى لا يفسـرها أحد على أسـاس أنهـا اهتمـام شـخصي، بعيـدًا عن بعـض الأشـخاص المنتميـن للطبقة

العليا، فإن الصداقة بين الرجال والنساء دون وجود رابط عائلي تعد فعليا شيئًا مجهولًا.

بالنسبة للسائح صاحب التوجهات الجنسية التقليدية الذي قد يرغب في خوض تجارب إباحية مع فاتنات الشرق المحجبات اللاتي تظهرن في الكتب، فإن طريقه سيكون معقدًا للغاية؛ فحتى راقصات هز الوسط حينما يبدين استعدادًا لحدوث شيء ما بعيدًا عن العرض الذي يراه الجميع، فإن التحلية لا تكون من المصريات بل كما قلت من البلقان، النساء المصريات محفوظات تحت الرقابة في منازلهن بناء على غيرة دينية؛ وما أمكن لسائح متجول لا يحمل الكثير من عناصر الجذب (ويصحبه أيضًا ثنائي من الزوجات) ملاحظته، فإن الانغماس في علاقة عرضية سعيدة بدون أجر مع امرأة من هذه الأنحاء لا يبدو شيئًا سهلًا بالمرة، في هذه النقطة تحديدًا تتحدث الكتب بخصوص فكرة عن الشرق، بالنسبة لي ليست موجودة، أكثر من الحديث عن الشرق نفسه، ففي ما يتعلق بالدعارة فهي موجودة بصورة أكبر في كولومبيا وكوبا وإيطاليا وهولندا.

هناك اثنان من أحلامنا، حلم الرحلة وحلم دار "الحريم" (أو تعدد التجارب النسائية) لا يختلفان من الشرق للغرب، هما حلمان ذكوريان بخوض المغامرة والمخاطرة والتحول وربما أيضًا هما أحد أشكال عقوبة التوهمات ومجرد كارثة للمخيلة، هذا هو ما فهمه- على الأقل- الحارس الخصي في أحد دور الحريم

الفارسـية وشـرحه لسـيده أثنـاء تحـاوره معـه بالشـكل التالـي:

"سأل السيد كبير خصيانه باتومينوس:

- وكيف تعرف أنني أصارع رغبة؟

- سمحت لنفسي بتخمين الأمر.

- وما هو الذي أرغب فيه؟

- هذا شيء يجب أن أفكر فيه.

بدا الخصي كأنه يغرق في أفكاره ثم قال:

- سيدي، رغبتك هي السفر لأماكن غريبة، دول أوروبا مثلا.

- رحلة طويلة؟

- رحلـة قصيـرة يا سـيدي! الرحلات القصيرة أكثر سـرورًا مـن الطويلة، تلك الطويلـة تترك ألمًا.

- نحو أي اتجاه؟

أجاب الخصي:

- أوروبـا يـا سـيدي بهـا كل الأنـواع، الأمـر كله يعتمـد على مـا ترغبون فيه بتلـك الدول.

- وعن أي شيء يجب أن أبحث هناك يا باتومينوس؟

- بائس مثلي يا سيدي لا يعرف ما الذي قد يبحث عنه سيد عظيم.

رد عليه السيد:

- أنت تعرف يا باتوميناس أنني لم ألمس امرأة واحدة منذ أسابيع.

- أعرف يا سيدي.

- هل تظن يا باتوميناس أنه أمر صحي؟

أجابه الخصي وهو يعتدل قليلا من وضع تبجيل السيد:

- يمكنني القول يا سيدي بأن الرجال في مثل حالتي ليسوا خبراء في مثل هذه الشئون.

- أنتم جديرون بالحسد.

رد الخصي وهو يعدل وضعيه جسده الممتلئ تمامًا:

- بالضبط، أشعر ناحيتكم أنتم وبقية الرجال بالأسف من كل قلبي.

تساءل السيد:

- ولماذا تأسف علينا يا باتومينوس؟

- لأسباب كثيرة ولكن بالأخص لأن الرجال يخضعون لقانون التغيير وهو قانون خادع لأنه لا وجود للتغيير.

أتحاول أن تخبرني إذن بأنني في ظل بحثي عن هذا التغيير يجب أن أسافر إلى مكان آخر؟

نعم يا سيدي لكي تقتنع بأنه لا وجود للتغيير.

- وهل سيكفي هذا لتهدئة معاناتي؟

- ليـس الاقتنـاع، يـا سـيدي بـل التجـارب هـي الضروريـة لتصـل لهـذه القناعـة!.

- وكيف وصلت إلى هذه الحكمة يا باتومينوس؟

أجابه باتومينوس وهو ينحني تبجيلًا له:

- لكوني خصيّا يا سيدي".

يسـافر الشـرقيون إلى الغرب لتجربة حياته القائمة على التلف لفترة (معاقرة الكحوليـات والإباحيـة الجنسـية)، ومـا يرونه حرية مفرطة بالنسـبة لنسـائه، أما نحـن الغربييـن فنأتـي إلى الشـرق بحلـم أكثر ظلامًـا، أن هناك وخلـف الأحجبة تختفـي أعمـق أسـرار إثـارة الأجسـاد، فدائمًـا مـا تبـدو الفاكهـة البعيـدة أكثـر احمـرارًا ونضجًـا وحـلاوة مـن تلـك القريبة، يُظهِـر لنا الواقـع أننا نعيـش تائهين داخـل تصوراتنا وتضربنا الحقائق لنكتشـف أن الحلم يتحـول لكارثة من الخيال.

كان الشـك لا يـزال يسـاورني فـي ظـل وجود أمـل وحيد، هل مـن الممكن أن يعـرف حامـد أبـو أحمـد أماكـن سـرية تقـدم لنـا فيهـا الملذات النسـائية بوجـه أكثـر لطفًـا عبـر تجربـة فريـدة غيـر مسـبوقة وغيـر مثيرة للشـكوك؟ ففـي النهايـة ومـن أجـل ملاحقـة هـذا الحلـم الخادع كانـت مصر هـي التي التقـط فيهـا فلوبييـر داء الزهـري الـذي أذلـه بقية أيـام حياتـه، يمتلك حامد أبـو أحمـد شـهرة معرفة أحشـاء هـذه المدينة الهائلـة وكان مـر وقت طويل علـى آخـر مـرة اتصلـت بـه فيهـا، أعـدت المحاولـة لتجيـب زوجتـه بصـوت أكثـر بعـدًا بأنـه لا يوجـد أحـد في المنـزل إطلاقـا، إطلاقـا، إطلاقا!

الرجال

هناك حلم غربي ذكوري عن الشرق المثير، ولكن هناك أيضًا حلمًا عن الجنس والضياع لدى نساء الغرب، هذا هو على الأقل ما شرحته (ك) التي كانت منذ الصغر تعشق فكرة الارتباط بعربي من وحي خيالها ينتمي لـ"فصيلة عمر الشريف الشاملة"، رجل قمحي اللون ذو تقاسيم وجه أنيقة ورموش طويلة يسرقها في رحلته ويخطفها بكل رجولة وغطرسة من رفيق مائع وبارد وشاحب ومطيع، ليسافر بها في قافلة تقطع الصحراء، ربما يكون حلم (ك) هو امتلاك رجل يرشدها ويأمرها دون تردد، دون أن يوجه لها أو لنفسه أي أسئلة؛ يمتلك قدرًا من حنان الليل ولكنه في الوقت ذاته يثق بنفسه كصخرة لا تتحطم، ربما فقط من أجل هذا الحلم خرجت (آ) و(ك) دون أن تقولا لي إلى أين ستذهبان، أو بالأصح بعد قول مجموعة من الأشياء المبهمة التي تتنكر بها الأكاذيب، سمعت الحكاية منهما بين ضحكات ونوبات من الغضب بعد ذلك فجرًا؛ فما حدث أن مالك متجر للمشغولات اليدوية بفندق (ماريوت) أثناء الأيام القليلة التي قضيناها هناك، امتلك الجرأة اللازمة لدعوتهما للخروج، تناول الطعام في البداية ثم التنزه بقارب في النيل أثناء شرب شيء ما، لأن هذا كان يوم مقالي في المجلة. كانت مسألة بقائي داخل غرفة الفندق من

أجـل الكتابـة أمـرًا معروفًـا، هكذا كانت الأمـور، كان من المفتـرض أن تخرجا بمفردهمـا مـن أجـل تناول الطعـام في أي مـكان والقيام بنزهـة ليلية، ولكن خطتهمـا كانـت ترتكـز علـى أن يكون ذلـك الرجـل العربي هـو دليلهما.

كان أول مـا أثـار ضحكهمـا هـو مـكان الخروج، ذهـب بهما مالـك المتجر إلـى أحـد مطاعـم (ماكدونالـدز) مقتنعًـا بأنهمـا لا يمكنهمـا تناول أي شـيء سـوى شـطائر الهامبورجـر، سـألهما عقـب الوصـول: "هـل سـتأكلان هنـا؟ أم سـنذهب؟" فأجابتـا بذلـك السـؤال الأخـرق: "نذهـب إلـى أين؟"، هـز الرجل كتفيـه وهـو يـرد بـكل تلقائية: "نحو شـقتي!"، حلـم (آ) و(ك) الشـرقي ليس بهـذه السـوقية أو هـذا التسـرع، لهذا فضلا تناول الشـطائر هنـاك في مطعم الوجبـات السـريعة، جـاء بعدهـا موعـد النزهـة النيليـة وقبل صعـود القارب اشـترى لهمـا مالـك المتجر (الآن تذكرت اسـمه، إنـه السـيد الأربعيني فادي) عقديـن مـن أزهـار الفـل، تولـى بنفسـه مهمـة تعليـق الأزهـار فـي رقبتيهما ببـطء مبالـغ فيـه، كأنـه يدلـك مؤخرتـي عنقيهمـا، تركهمـا تتنـاولان النبيـذ ولكنـه طلـب لنفسـه مشـروبًا غازيًـا وهـو يتحـاور معهمـا بإنجليزيـة مليئـة بالأخطـاء، أطلـق السـيد فـادي عليهما اسـمين جديديـن، هكـذا أصبحت (آ) تدعـى (ملـك) و(ك) تدعى(لطيفة).

أثنـاء تواجـد (لطيفـة) فـي دورة الميـاه قدم السـيد فـادي صفقة لـ(ملـك)، إذا مـا قضـت (لطيفـة) هـذه الليلـة معـه فإنـه سـيمنح

كل واحـدة منهمـا القيمـة الماليـة التـي يسـاويها فيـل وتمسـاحين وخمسـة جمـال، ظنـت (ملـك) أن السـيد فـادي يمـزح (هـذه أحـد أنـواع النـكات الشـائعة مـع السـائحين) وقبلـت الصفقـة وسـط مجموعـة مـن الضحـكات، مـد السـيد فـادي لها يـده وهو التصرف الذي لم يـرق لـ(ملك) كثيـرًا ولكنها علـى الرغـم مـن هـذا شـعرت بأنهـا ملزمـة بالقيـام بالمثـل، تمـت الصفقـة وعـادت (لطيفـة) مـن دورة الميـاه، ثـم بدأ فـادي يقـدم وعظًا حـول أهمية الكلمـة فـي صفقـات الأعمـال فـي العالـم الإسـلامي، قـال لهمـا وهـو ينظـر لعينـي (ملـك) المفعمتيـن بالتوتـر إن الوعـد ديـن بـل اتفـاق مـن حديـد؛ فهـو أشـبه بعقـد زواج مؤقـت، شـعرت (آ) باسـتياء كبيـر ولكـن الأشـياء لـم تكـن واضحـة بالنسـبة لهـا، حيـث ظنت أنـه بكل تأكيـد لن تصـل الأمور لأي منتهـى بعيـد وأن كل شـيء سيسـتقيم وحـده خـلال السـاعات المقبلـة.

عقـب انتهـاء الجولـة النيليـة جلسـت (لطيفـة) فـي مقدمـة السـيارة مـع السـيد فـادي أثنـاء الذهـاب نحـو أحـد مكاتـب الاتصـالات، فـ(ملـك) كانـت ترغـب فـي الاتصـال هاتفيًـا بوالدتهـا، وأثنـاء هذا الأمـر أخبر فـادي (لطيفة) بأنـه توصـل لاتفـاق مالـي لكي تقضـي الليلة معه، سـتكون ليلـة أحلام بدون أي التزامـات بعـد أن يتـركا (ملـك) في الفنـدق على أن تذهب معه لشـقته، حينمـا رأت (ك) أن الأمـور تسـير بشـكل جـدي انفجـرت غضبًـا وبـدأت فـي السـباب بالإسـبانية، خرجـت (آ) من مكتب الاتصـالات ووجدتها تصرخ خارج السـيارة بصـوت مرتفـع وهـي تحرك يديهـا فـي كل الاتجاهات، طلـب فادي شـهادة (ملـك) علـى الصفقـة وحاولت (آ) إفهامـه أن الأمـر كان مجرد مزحة

وأن هـذه الأشـياء تحـدث فـي الغـرب؛ أي أن تتفـق على صفقة لن تتـم أبدًا، صفـع فـادي بـاب سـيارته وذهـب وهـو يسـب ويلعـن بعـد أن التـف جمع مـن البشـر حولـه، ربمـا لـم يكـن ليحـدث شـيء لـه لـو قـرأ تلـك القصيـدة المنتميـة لحقبـة مصـر القديمـة والتـي تقـول فـي أحـد أبياتهـا: "ابـقَ علـى المـرأة الأجنبيـة التـي لا يعرفهـا أحـد فـي المدينة سـرًا".

بقيـت (آ) و(ك) وحيدتيـن أمـام مكتـب الاتصـالات والنظـرات الفضوليـة بعـد أن تخطـت السـاعة الثانيـة صباحًـا، قررتـا فـي النهايـة أخـذ سـيارة أجـرة نحـو الفنـدق حيـث تظاهـرتُ بالنـوم وهمـا تحـاولان إعـادة بنـاء أحـداث ليلتهمـا الشـجاعة، كانـت (ك) تستشـيط غضبًـا مـن (آ) وسـبتها بـل واتهمتهـا بأنهـا كانـت تسـعى للبقـاء معـي بمفردهـا بعـد أن يختطفهـا العربـي، اعترفـتُ بعدهـا بـأن اتهامهـا بـكل هـذا الشـرور وكل هـذه النوايـا السـيئة يخلـو مـن أي معنـى، ثـم شـرعتا فـي الضحـك، يبـدو أنهمـا خلدتـا للنـوم بعدمـا توصلتـا إلـى أن كل مـا حـدث كان سـوء تفاهـم، ولكـن مـع الشـروق سـمعت (لطيفـة) تصـرخ، أكـدت أنهـا رأت فـادي فـي الشـرفة وهـو يحمـل قطلسًـا[36] فـي يـده مـن أجـل ذبحهـا، تحـت وطـأة اسـتيائي مـن كل هـذا الصخـب فتحـت الشـرفة وأظهرت لـ"ملـك" ولـ"لطيفـة" أن كل هـذه أمـور تسـكن فـي خيالهمـا، الشـرفة ليـس بهـا أي شـيء سـوى كل مـا يوجـد دائمًـا، دخـان وتـراب وظـلال وضوضـاء المدينـة البعيـدة الغارقـة في

36- القطلس: أحد السيوف العربية القصيرة القديمة والتي تمتلك نصلًا مقوسًا.

ضباب الفجر، كان من المقرر في اليوم التالي، لحسن الحظ، أن نذهب للإفطار في (ماريوت).

الإفطار هناك يعالج أي استياء أو إحباط، إنه أشبه بالخيال، لا ينتهي، كأنه يخص دارًا قديمة للحريم، إذا ما عزم المرء على تجربة كل شيء فيه، فلا توجد أي ضرورة لتناول أي طعام حتى اليوم التالي، إنه أكثر تنوعًا وكمالًا مما قد يقدر المرء على تخيله، بل وحالة من التفجر لكل الملذات الشرقية، يبدأ بالفواكه الطازجة والمجففة الغارقة في الزبادي البقري الذي لا يوجد مثيل لقوامه الكريمي في أي بقعة أخرى بالأرض، الكثير من البرتقال والخوخ والأناناس والبطيخ والبرقوق والبلح، مكسرات من كل الأنواع بجانب الخوخ المجفف والعنب بمختلف ألوانه وجوز الهند والكمثري والتفاح والتين، مع المربى بنكهات مختلفة وأيضًا الكومبوت والجيلي، إذا كانت لديك رغبة فلا مانع من إضافة أنواع مختلفة من الحبوب المحمصة وعصائر الفاكهة ذات الأطعمة والألوان الحية التي لا يمكن تصديقها.

تأتي بعدها قائمة متنوعة لا تنتهي من الخبز والحلويات والمملحات الخارجة من الفرن لتوها، إنها كثيرة لدرجة لا تسمح للمرء بتجربتها كلها، حتى ولو ملأ طبقه أكثر من مرة، بعضها مُحَلى بالسكر بكل أنواعه، المسحوق والكريستالي والأسمر والأبيض؛ بعضها محشو والآخر فارغ؛ منها المقلي والطري والناشف، هناك تلك المزودة بنكهة القرفة أو الفانيليا أو بروائح

أخـرى مجهولـة، هنالـك أيضًـا مجموعـة مـن الكعـكات والحلـوى العربيـة والغربيـة المحشـوة التـي تمتلـك قوامًـا لا يمكـن نسـيانه؛ الفسـتق الغـارق فـي العسـل سـواء بالزبـد أو بدونـه، أنـواع مختلفـة مـن الكريـم والقشـدة والشـربات، كل مـا يمكـن غمسـه فـي القهـوة المثاليـة الوحيـدة الموجـودة فـي مصـر سـواء كانـت فاتحـة أم غامقـة أم بأي صـورة تشـتهيها؛ أو ربما في أنـواع مختلفـة مـن الشـاي ذي النكهـات التـي لا يمكـن للمـرء تخيلهـا.

هنـاك أيضًـا البيـض المسـلوق، وبـكل تأكيـد الأومليـت مـع الجبـن والبسـطرمة والطماطـم والسـجق والنقانـق سـواء كانـت بـاردة أم سـاخنة، بجانـب لحـوم الحيوانـات المختلفـة (باسـتثناء الخنزيـر)، قسـم الأجبـان أشـبه بسـوق ريفـي فرنسـي خـلال يـوم الأحـد، وبالنسـبة لأصحـاب الرغبات الخاصـة فهنـاك إفطـار تقليـدي مـن كل دولـة، الفاصوليـاء الحمـراء للمكسـيكيين، وأنـواع مختلفـة من الحسـاء لليابانيين، والبريـوش للإيطاليين، والكرواسـون للفرنسـيين، وخبـز الغجـر للإسـبان، بـل وحتـى المجبنـات مـن أجـل الكولومبييـن، لا يمكنـك أن تشـتهي شـيئًا بعـد تنـاول الإفطـار فـي دار حريـم الباشـا القديمـة، حتـى جِنـيّ المصبـاح لـم يكـن ليقـدر علـى معادلـة قائمـة بمثـل هـذا التنـوع والغـزارة لـو طلـب منـه عـلاء الديـن ذلـك. علـى الرغـم مـن كل هـذا فـإن العامليـن- دون إبـداء أي اسـتياء- لـم يتذوقـوا ولـو قضمـة واحـدة، كأن لديهـم قـدرة علـى تعذيـب أنفسـهم،

كأنهـم أفضـل تجسـيد لمذهـب الفلسـفة الرواقيـة[37] الصافيـة، كأنهم صورة مجسـمة لأحسـن أنـواع التدبيـر الرزين، لن يمـر قديس مثالـي العفة، بل لن يمـر راهـب مقتنـع بمزايـا التبتـل عبر دار حريـم مليئـة بالعـذارى العاريات بمثـل هـذا الهـدوء وهـذه اللامبـالاة، لمـاذا لـم يتـذوق النُـدل الذيـن كانـوا يعملـون علـى خدمتنـا ولـو قضمـة واحـدة مـن عـذاب الملـذات هـذا؟ لأن الشـمس قـد أشـرقت ونحـن فـي رمضان.

37- مذهـب فلسـفي يدعـو للصبـر علـى المشـقات والتناغـم مـع الطبيعـة كإطار لفهم الأشـياء والتخلـص مـن أي اسـتياء قد تسـببه المشـاعر السـلبية

رمضان.. إفطار الغروب

لا يعـد منـع تنـاول ولـو قضمـة واحـدة مـن الشـروق وحتـى الغـروب هو أصعـب شـيء، بـل إن الأقسـى ليـس عـدم القـدرة علـى شـرب الميـاه أو أي سـوائل طـوال السـاعات النهاريـة، أصعب وأقسـى شـيء في رمضـان هو أنه لا يمكـن حتـى ابتـلاع اللعـاب، فـلا يمكـن لشـيء أن يمـر مـن شـفتيك أثناء سـاعات الصيـام سـوى الهـواء، حتـى الدخـان مـن المفطـرات لهذا لا يسـمح بالتدخيـن، ولكـن علـى الرغـم مـن هـذا يجـري استنشـاق أدخنـة الحركـة المروريـة الكثيفـة فـي القاهـرة، ربمـا لأنـه لا توجـد تعليمـات فـي القـرآن بخصوصها، لكن لا يمكن أن يعبر شـيء- صلبا كان أم سـائلًا- حدود الشـفاه، حتـى ولـو كانـت قُبلـة لأنـه يجب أيضًـا الامتنـاع عن أي ممارسـات جنسـية.

لا مانـع فـي المقابل من خروج أشـياء من بين شـفتيك، كلمـات وهتافات وأدعيـة وبعـض البصـق إذا مـا مـرت بجانبـك سـائحات لا يغطيـن رءوسـهن وسـيقاهن المكشـوفة، تخـرج أيضًـا مـن بين الشـفاه، مختلطة مـع الكلمات، رائحـة أنفـاس الصيـام القاتلـة التـي لا يوجد خلاف على سـبب نشـأتها، ربما تعـد الخطـب والعظـات هـي أكثـر مـا يسـمع فـي رمضـان، تبـث كل قنوات التلفـاز ليـلًا ونهـارًا برامـج دينيـة، يفسـر الشـيوخ القـرآن ويقرأونـه ويتلونـه ويتغنـون بـه، يتناولـون الحديـث ومواقـف النبـي التـي يجـب أن تُسـتخرج

قواعـد الحيـاة منهـا مـع توضيحـات حـول الحقـوق العامـة والخاصـة وآداب الحيـاة اليوميـة إلـى أخـره، فيمـا يدخـل المؤمنـون التقليديـون المسـاجد ممسـكين أحذيتهـم بيـن أيديهـم اسـتعدادًا للوضـوء (يغسـلون بالمـاء وجوههـم وأعناقهـم وأذانهـم وأيديهـم وأذرعهـم حتـى كيعانهـم وأقدامهم).

لـم يعـد المؤذنـون يصعـدون إلى أعلى المـآذن لدعـوة المؤمنين من أجل الصـلاة، هناك أداة جديدة تسـيطر على مسـاجد القاهـرة المتنوعة، يدعونها الـ"ميكروفـون"، إنهـا مكبـرات الصوت المثبتة في أعلى المـآذن التي توقظك بسـجع عبـر هتـاف "الله أكبـر"، تقاس حركة اليـوم عبر الآذان بشـكل يجعله منقسـمًا إلى خمسـة أجزاء، الفجر (صباحًا) والظهـر (منتصف اليوم) والعصر (منتصـف المسـاء) والمغـرب (الغـروب) والعشـاء (الليـل)، فـي كل واحـد مـن هـذه الأوقـات، يتوجـه المسـلمون الصالحـون بصلواتهـم باتجـاه مكـة مصطفيـن أمـام سـجاجيد الصلاة، بعـد الآذان يأتـي الدور على تـلاوة القرآن، ابتهـال طويل محمل بسـجع متناسـق، يكـون المؤذن غالبًا هو المسـئول عن المسـجد والإمامـة ليس بسـبب انتمائه لطائفة دينية عفيفـة ليس لها وجود، بـل لأنـه جهـوري الصـوت ويتلو جيـدًا، تُسـمع أصـوات أفضـل المؤذنين في التلفـاز وأيضًـا أفضـل حفظـة القرآن الذيـن بإمكانهم تلاوتـه بالكامل في مرة واحـدة بأعـذب صوت ممكن، لذة الأمر تكمن في التـلاوة الجيدة، لأن حفظ القـرآن فخـر يتشـاركه الكثيـر مـن المسـلمين الصالحيـن الذيـن ذهبـوا منـذ

الصغر للمدارس القرآنية[38] لتعلم الكلمات التي أبلغها جبريل لمحمد خاتم الأنبياء أجمعين في الفترة بين عامي 622 وحتى 632 ميلاديًا، القرآن بالنسبة للمسلمين أكثر أهمية مما هو عليه الإنجيل بالنسبة للمسيحيين، كان بورخيس يقول إن "علماء الدين الإسلامي يعتبرونه يسبق بدء الخليقة"، على الرغم من أنه قد كتب بالعربية، إلا أن المسلمين يرجعون بتاريخه لفترة تسبق وجود اللغة، قرأت أيضًا أنهم لا يعتبرونه عملًا من قبل الرب بل أحد صفاته مثل العدالة والرحمة والحكمة.

تتبدل الحياة في القاهرة أثناء رمضان، تغلق المقاهي والمطاعم وبعض الفنادق أبوابها نهارًا، فيما تفتح الأماكن المخصصة للسائحين فقط أبوابها (الأهرامات ومطاعم ماكدونالدز والأسواق السياحية)، ومع الأجانب يُنظر لتناول الطعام أو شرب الكحوليات والمياه علانية في الشوارع كانعدام للذوق، في الوقت الذي يخوض فيه القاهريون نقاشاتهم بخمول ومزاج سيئ، خلال هذا العام الصفري من تقويمنا الميلادي فإن الشهر التاسع (رمضان) جاء في فصل الشتاء (من 27 نوفمبر حتى 27 ديسمبر)، وهو ما يجعل عدد ساعات النهار لا يتخطى 12 ساعة لذا فإن العطش الناجم عن قلة السوائل لا يصبح خانقًا بصورة كبيرة، ينام القاهريون في قيلولة طويلة وينسون الاعتناء بأعمالهم نهارًا ففي رمضان تنتقل الحياة لليل، ويفهم المرء في القاهرة أن تلك العادة

38- يقصد الكُتّاب.

الإسـبانية بتنـاول الغـداء في وقت متأخر والعشـاء في سـاعة متأخـرة للغاية ربمـا يعـد أحـد الموروثـات الإسـلامية مـن رمضـان وقيـظ الصحـراء، تمتلـئ الحيـاة الليليـة هنـا بالحركـة ولا وجـود لأخبـار مثـل تلـك التـي تحـدث فـي دول إسـلامية أخـرى حينمـا يقتـل المهووسـون بالإيمـان مـن يتجـرأون علـى ارتـكاب أفعـال يرونها شـائنة. واحدة مـن آخر ضحايا عـام 2000 هي مطربة جزائريـة أقـدم الأصوليـون علـى ذبحهـا فـي نفس الملهـى الذي تجـرأت فيه علـى الغنـاء بشـهر العبـادات، فيمـا لقـي 240 شـخصًا مثلهـا مصرعهـم بـكل أنحـاء العالـم فـي شـهر رمضـان خـلال العـام ذاته علـى يد المتشـددين.

لا تبـدو القاهـرة ليـلًا محفوفـة بمخاطـر المتعصبيـن للإسـلام حيـث يظهر أن القاهرييـن يسـتمتعون إلـى أبعـد مـدى بالولائـم والحفـلات (التـي تخلـو مـن الكحـول بـكل تأكيـد)، تكـون الحالـة المروريـة فـي الحاديـة عشـر ليـلا بالقاهـرة أسـوأ ممـا عليـه الأمـر فـي السادسـة مسـاء فـي بوجوتا، الليـل هنا هـو الملـك بحكـم العـادة، فـي إحـدى المـرات وصـل الأمـر لدرجـة قلـب سـاعات الليـل والنهـار علـى يـد خليفـة يبـدو كأنـه أسـطورة ولكنـه حقيقة، الحاكـم بأمـر اللـه، والـذي يعنـي اسـمه (من يحكـم بأمر مـن الـرب) حرفيًا، والـذي عـرف أيضًا باسـم كاليجولا المصـري وإخناتون الجديد بسـبب قراراته الخارجـة عـن المألـوف. بشـخصيته المجنونـة وتصرفاتـه الدمويـة يشـبه الحاكـم النمـوذج الأكثـر قدمًـا لشـخصية الديكتاتور فـي الروايـات الأمريكية

اللاتينيـة بدايـة مـن البطريـرك[39] وحتـى التيـس[40].

حكـم الحاكـم بأمر الله القاهرة منـذ 996 وحتى 1021 وخلال ولايته أصدر مجموعـة مـن أكثـر القوانين غرابة، سـاعات النهـار هي للراحة والتسـلية، أما العمـل فسـيكون ليـلا فقـط، إنهـا نعمـة لمحبـي المسـاء، يقـول البعـض إن هـوس القاهرييـن بالليـل يأتي بسـبب قـرارات الحاكم التي لم ينمحِ تأثيرها بالكامـل مـن العـادات المحليـة علـى الرغم من تلـك الألفية التـي مرت، كان مجلـس حكومتـه (المكـون مـن قلـة مـن المقربيـن والمستشـارين) يجتمـع بعـد منتصـف الليـل، ولكن هـذه الاجتماعات لـم تدم طويـلًا لأن الخليفة لم يكـن يحـب أن يعارضـه أحـد، وواحـدا تلـو الأخـر تعـرض المستشـارون لجز أعناقهـم، إذا مـا كان رمضـان اليـوم تُـرى فيـه قلـة مـن السـيدات وحدهـن بالشـوارع، فـإن عـددًا أقل بكثيـر كان يمكن رؤيته في زمـن الحاكم، لأنه من ضمـن المراسـيم الأخـرى التي أصدرها ذلك الطاغية كانت حرمان النسـاء من الخـروج مـن منازلهـن، حيث فـرض الأمر فورًا عبر مرسـوم منع فيه الأسـاكفة مـن تصنيـع أحذيتهـن، خليفـة بوجوتـا الحالـي، ويدعـي موكـوس، يبـدو أنـه وجـد إلهامـه فـي الحاكـم لإصـدار مرسـوم جديـد فـي العاصمـة الكولومبيـة يقضـي بمنـع الشـباب خـلال يـوم واحـد فـي الأسـبوع مـن الخـروج ليـلًا

39- يقصد الكاتب رواية (خريف البطريرك) للكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز وتدور حول ديكتاتور خيالي في إحدى دول الكاريبي يجمع بين صفات عدد من طغاة أمريكا اللاتينية الحقيقيين.

40- يقصد الكاتب رواية (حفلة التيس) للأديب البيرواني ماريو بارجاس يوسا التي تتناول اغتيال الديكتاتور الدومينيكاني رفائيل تروخيو والأحداث التي أعقبت الأمر.

ولكـن قـراره لـم يُطبق، علـى عكس أمر الحاكـم الذي نفذ بحذافيـره، وطوال سـبع سـنين طـوال (حتـى ولـو لـم يصـدق البعـض) لـم تظهـر إمـرأة واحدة فـي شـوارع القاهـرة، منـع الحاكم أيضًـا أن تُباع في الأسـواق بعـض الأطعمة التـي لـم تـرق لـه، يتخيـل المـرء أن أمرًا مـن أوامره ربمـا كان ليجعـل زراعة الباذنجـان والقرنبيـط الرائـع وألـذ مـا يمكـن تجربتـه هنـا في طي النسـيان، كانـت أسـاليبه فـي إدارة العدالـة غريبـة بشـكل كبيـر، كان دائـم التجـول فـي الشـوارع علـى ظهـر حمـار يدعى قمـر، وأثنـاء زيارتـه للأسـواق لمراقبة التجـار كان دائمًـا مـا يصحبـه عبد أسـود يقال له مسـعود، فإذا مـا وجد أحد التجـار يغـش فـي الميـزان أو يعـارض قراراته فإنـه كان يأمر عبـده بأن يفعل معـه "أعظـم الفواحـش التي قـد يفعلهـا رجـل لآخـر" بهـذه الطريقـة كان التاجـر يتعـرض فـي حضور العامـة والخليفة داخل متجره لما يشـفي شـهوة العبـد مسـعود التـي لا ترتـوي، رغـم هـذا يجـب القـول إن بعـض البطـولات المنسـوبة للحاكـم الرهيـب لـم تصـل عبـر أفـواه المؤرخيـن العـرب، الذيـن ينقسـم الخلفاء بالنسـبة لهم إلـى مجموعتين وحيدتيـن، صالحين وطالحين، فينسـبون للصالحيـن قائمـة لا تنتهـي مـن الخيـرات والمزايـا ويرسـمون الطالحـون ككائنـات غارقـة في الفحشـاء والمنكر؛ فبالنسـبة للـدروز لم يكن الحاكـم خليفـة سـيئًا بالمـرة، بل لدرجة عشـقهم لـه، كانوا يرونـه مبعوثًا من الـرب وآخـر الأنبياء.

ولكـن لنعـد لرمضـان فـي القاهـرة وحياتـه الليليـة الحاليـة التي لم تكـن مـن ضمـن ابتـكارات الحاكـم، إذا مـا كانـت الحركـة المروريـة

فـي القاهـرة خـلال رمضـان لا تتوقـف عـن كونهـا جحيمًا حتى فـي منتصف الليـل، فـإن السـبب وراء هـذا بـكل بسـاطة هـو محاولـة التأقلم علـى تغيير النظـام الغذائـي، يحـاول القاهريـون تأخيـر وجبتهـم الأخيرة إلـى أبعد وقت ممكـن لكـي تصبـح وطـأة متاعـب الصيـام أقـل فـي اليـوم التالـي، لا يرغب جميعهم في الاسـتيقاظ بالرابعة صباحًـا لتناول وجبتهم الخفيفة الأخيرة قبل الشـروق، لهـذا فـإن عشـاءً كبيرًا في منتصف الليل سـيكون حـلا مثاليًا لقضاء اليـوم التالـي دون جـوع أو إرهـاق كبيريـن، النهار طويل ولكنـه يصبح أطول حينما يأتي رمضان في شـهور الصيف (التقويم القمري للمسـلمين وسـنواته التي تتكون من 354 أو 355 يومًا لا يسير توازيًا مع فصول التقويم الغربي)، كلمـا طـال النهـار طالت فتـرة الصيام، ينتهي الصيام بالنسـبة للمسـلمين في هـذا العـام، 2000، الموافـق 1422 بعـد الهجرة في السـاعة الخامسـة مسـاءً بالضبـط، حينهـا ينطلـق نـداء الصـلاة مـن مـآذن مصـر كلها وتغرب الشـمس ويـأكل البشـر أو كما يقولـون هنا بذلـك التعبير الدقيق "يكسـرون صيامهم" بعـد بـدء الاسـتعداد لذلـك الأمـر منـذ الرابعة، من ضمـن العادات الإسـلامية التـي تسـتحق الثنـاء أنـه أثناء شـهر رمضان فـإن الأعمال الخيريـة تصبح أكثر شـيوعًا ومـن ضمنهـا الصدقات وإطعـام المسـاكين، تتراص موائـد بجانب أو أمـام المسـاجد تحتـوي علـى عـدد لا يمكـن حصره مـن الأطباق التـي يوضع فوقهـا الخبـر المحمـص وتحتهـا السـلطة وعلـى جانبيهـا أطعمـة يختلـف تنوعهـا وجودتهـا وفقـا للمـكان، كل مـن لديـه رغبـة يمكنه الجلـوس وتناول

الطعـام مجانًـا، قمـت أنـا وزوجتـاي بهـذا الأمر في إحـدى المـرات ولم نجد شـيئًا سـوى كـرم وود مـن بقيـة مـن شـاركونا الطاولـة، الطعـام ليـس بجودة ذلـك الموجـود فـي المطاعم ولكنـه كثيـر ومقبول.

قبـل الخامسـة بقليل يجلس المؤمنون بكل إرهـاق أمام الأكواب والأطباق، ينظـرون إليهـا فـي نهـم ولكـن قبـل الهجـوم عليهـا يجـب أن يترقبـوا نـداء المـؤذن، هنـاك مدفـع يُطلـق فـي القلعـة بالقاهـرة كإشـارة لموعـد الإفطـار أو كسـر الصيـام، ولكـن لأن صوتـه لـم يعـد يصـل لـكل أنحـاء تلـك المدينـة الأكثـر تعـدادًا وصخبًـا فـي كل العالـم الإسـلامي بــ16 مليـون نسـمة، فـإن المؤذنيـن عبـر مكبـرات الصـوت فـي الشـوارع وإذاعـات الراديـو ومحطـات التلفـاز هـم مـن يتولـون هـذه المهمـة، يتسـابق القاهريـون بمجـرد سـماع المدفـع أو الآذان علـى الطعـام كأنهـم مجموعـة مـن العدائيـن سـمعوا للتو طلقـة البداية، بين الخامسـة والسادسـة يصبح كل شـيء مغلقًـا، حتى متاجر السـائحين وللمـرة الأولى تشـعر أن التجار لا يرونـك، لا ينادونك ولا يحاولون اسـتغلالك مـن أجـل بيعـك عجائبهـم وبضائعهـم الرخيصـة، يصبح كل شـيء مغطـى بصـوت حفلـة مـن رنيـن الملاعـق واصطـدام الأكـواب واحتـكاك الأسـنان وحركـة الألسـن، لا تتوقـف الأفـواه عـن العمـل لمـدة نصـف سـاعة تقريبًـا، شـاهدت فـي أحـد الأيـام آذان المغـرب في التلفـاز؛ فقبل الخامسـة بقليـل ظهـرت على الشاشـة شـمس برتقالية كبيـرة يخيم عليها لـون الغروب ولكنهـا تحركـت سـريعًا ليظهـر بعدهـا أنهـا العلامـة التجارية لأحـد العصائر، (تانـج)، حتـى هـذا الأمـر لم يسـلم مـن الدعاية.

تعقب رمضان عطلة من ثلاثة أيام تدعى عيد الفطر، وهي الفترة التي تصبح القاهرة فيها ولو لمرة واحدة في العام أكثر صمتًا وحركتها المرورية أكثر هدوءًا، تفتح المقاهي نهارًا ومرة أخرى يمكن تدخين أنواع التبغ مختلفة الروائح على الشيشة أثناء ساعات النهار، يصبح من الممكن مجددًا أن تحصل على البيرة والنبيذ وشراب الروم، يقول نجيب محفوظ: "إن القاهريين خلال الأعياد يصبحون في قمة السعادة"، يخرج الرجال والنساء بملابس جديدة ويشترون لأطفالهم أحذية جديدة ولكن خوفًا من أن تتسخ يفضلون أن يسيروا وهم يمسكونها في أيديهم، هذا الأمر يذكرني بتوت عنخ آمون وصنادله الذهبية المعروضة الآن في متحف القاهرة، والتي لم يكن الفرعون الشاب يرتديها، بل كان يحملها خلفه أحد خدمه (لم تكن مريحة بل وتلسع بسبب حرارة رمال وشمس مصر)، يحمل المؤمنون أحذيتهم بين أيديهم وهم يدخلون المساجد أيضًا مثلما كان يحمل الكُتاب صنادلهم الجلدية بين أيديهم احترامًا للفرعون أثناء وجوده، لا يتعلق الأمر فقط بارتداء أحذية وملابس جديدة بالنسبة للأطفال والكبار، حيث يشهد العيد إقامة ولائم عظمى، فيما تعمل الأمهات على خَبز أنواع مختلفة من الحلوى، يصطف القاهريون عند (العبد) أكثر مخابز الحلوى شهرة في مدينتهم والواقع في شارع طلعت حرب لشراء أشكال وأنواع مختلفة من الروائع المزينة بالعسل والفستق، إنها أكثر اللحظات سعادة، الأيام التي تجتمع فيها العائلة ويزورون فيها موتاهم (في بعض الأحيان ينامون معهم

فـي الأحـواش التـي تحيـط بالمدافـن) وأيضـا تكتـب فيهـا عقـود الزيجـات لينقـل الكثيـر مـن الرجـال والنسـاء الذيـن كانـوا ارتبطـوا بوعد الـزواج خاتم الخطوبـة إلـى يدهـم اليسـرى مـن اليمنـى.

لا يقـدر الجميـع علـى تنـاول هـذه الحلـوى والاسـتمتاع بهـذه الفرحـة، يقـول نجيـب محفـوظ: "كنـت أهوى الكعك لكنـي أقلعت عنه منذ عشـرات السـنوات حيـن أصبـت بمرض السـكري، فهـذه الحيـاة نقلع فيها عـن جميع المتـع متعـة وراء الأخـرى إلـى أن نذهـب جميعًـا فنعلـم أنـه قـد آن أوان الرحيـل"، يصـوم البعـض كعبـادة روحانيـة وغيرهـم لأسـباب طبيـة، هـذا الحرمـان، وبالأخـص الدينـي، يبـدو لي معـدوم الفائدة، خاصة عقـب قراءتي لحديـث لمُحمـد لا يشـار إليه كثيـرًا بالمناسـبة وبالتالي لا يطبـق كثيرا يقول "إن اللـه عـن تعذيـب هذا لنفسـه لغنـي" (صحيـح البخـاري)[41].

بعـد غرقـي لمـدة أسـبوع فـي الممارسـات المحلية قـررت أيضًـا أن أصوم رمضان (ولكني كنت أبتلع لعابي) وكما يحدث مع كل مسـاوئ الحياة تقريبًا عثـرت علـى تعويضيـن رائعين، اختفت حموضتي المزمنـة كأن ما حدث كان بفعـل السـحر، وتحـول حـب تنـاول الطعـام في الخامسـة مسـاء إلـى تجربة عميقـة وممتعـة، الطعـام لا يصبـح بهذه الحـلاوة إلا بعد الصيام، الأمر أشـبه

41- الحديـث المقصـود بالكامـل لا يتنـاول شـأن الصيام وهـو كالتالي: (حَدَّثَنَـا ابْنُ سَـلَامٍ، أَخْبَرَنَا الْفَـزَارِيُّ، عَـنْ حُمَيْـدٍ الطَّوِيـلِ، قَـالَ حَدَّثَنِـي ثَابِـتٌ، عَـنْ أَنَسٍ رضى الله عنـه أَنَّ النَّبِـيَّ صلى الله عليـه وسـلم رَأَى شَـيْخًا يُهَـادَى بَيْـنَ ابْنَيْـهِ قَـالَ: "مَـا بَالُ هَـذَا". قَالُـوا نَذَرَ أَنْ يَمْشِـيَ. قَـالَ " إِنَّ اللَّـهَ عَـنْ تَعْذِيـبِ هَذَا نَفْسَـهُ لَغَنِـيٌّ ". وَأَمَـرَهُ أَنْ يَرْكَبَ)

بممارسة الغرام عقب قطع الأطلسي على متن قارب بطيء كنت تعاني فيه من كل أعراض الحرمان، هناك حكمة في الصيام لا نعرفها نحن الغربيين، إنه ليس استشهادًا غذائيًا بطيئًا، بل امتناعًا يتحول لاحقًا إلى واحد من أكبر متع الوجود ألا وهي محو الألم وإشباع الرغبة وتهدئة الشهوة، أصبحت الرغبات في الغرب تكتمل بصورة أسرع من اللازم، نحن ثقافة خاضعة لأحد أشكال الـ"قذف السريع"، أعتقد أيضًا أنه في الماضي البعيد لفصيلتنا فإن الصيام كان يعد ميزة بالنسبة للكل وترشيدًا عامًا في الطعام، فلا يمكن لأحد في جلسة واحدة تناول ما يفترض أن يأكله في ثلاث وجبات، مهما كان نهمه.

بعد انقضاء رمضان هدأت عادات الصيام لدى القاهريين بعض الشيء، تعرضت (آ) و(ك) لسماع كلمات لم تفهماها ولكن معناها كان معروفًا، اكتسبت النظرات طابعًا فاحشًا ولم يعد غريبًا أن يمرر بعض الرجال أثناء مرورهم أيديهم بين ساقيهما أو أن يتحسس آخرون مفاتنهما، يظهر أن مُحمد كان محقًا حينما قال إن الصوم يعمل على إطفاء الشهوات ويروض الرغبات الجسدية، لن أناقش كلمات النبي، ولكن هناك تفسيرًا آخر معارضًا وهو أن الشهوة المتفاقمة تتحرر عقب شهر من القمع الكامل وتصبح أكثر قوة لعدة أيام، ولهذا ليس من الصدفة أن يصبح الكثير من الرجال بعد شهر رمضان مستعدين للتوقيع على عقود زواجهم المفصلة للغاية (المبلغ المدفوع من قبل الرجل يحدد كل شيء، بداية من المنزل أو الأثاث وحتى الأيام التي ستزور فيها الزوجة

عائلتها وعدد الأكواب والفناجين وملاعق القهوة)، الصيام في النهاية يتلاءم مع كل شيء وبالأخص لجعل المتع الجسدية القليلة أكثر إمتاعًا، في آخر أيام رمضان دخلت مسجد بن طولون وسجدت على الأرض وسألت الله، يا رحيم لماذا لم تمنحنا 8 أو 10 أو 25 حاسة بدلا من 5؟ حينها كانت ستصبح لدينا دوافع أكثر للثناء عليك.

مصر

توصلنا بعد تفكير قصير للغاية إلى أن القاهرة ستظل كما هي حتى نهاية رمضان، لهذا قررنا أن أيام السُبات الحالية هي أفضل فترة لاستغلال المهرب الوحيد الذي أُتيح لنا خلال هذه الرحلة للخروج بعيدًا عن المدينة؛ إنها الجولة النيلية الكلاسيكية من الأقصر لأسوان، أو بالأصح من طيبة إلى سونو، لأن هذه ليست رحلة في مصر اليوم بل تلك التي تعود إلى ثلاثة أو أربعة آلاف عام، حينما كان للأشياء اسم آخر وكان يعيش بشر مختلفون على ضفاف النهر، حلمنا، على عكس هرقليطس[42]، بالاستحمام في مياه النهر ذاته وذلك الاندهاش الذي ستفرضه علينا الآثار الحجرية، التي توقفت عندها عقارب الساعة؛ حلمنا بمياه النهر الجارية لأنها كانت وستظل كما هي.

يصف خوان جويتيسولو[43] الرحلة في الكلمات التالية: "سماء صافية ومعابد نوبية ومسار بين اثنين من أكثر بقاع العالم جمالًا وإثارة للعواطف"، لعدة أيام تمكنا من نسيان كل شيء، أتربة

42- فيلسوف يوناني ينتمي لحقبة ما قبل سقراط وتميزت كتاباته بالغموض والحزن وعرف بالفيلسوف الغامض والفيلسوف الباكي ومن أشهر مقولاته "إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين، لأن مياها تتجدد من حولك باستمرار".

43- أديب ومفكر وصحفي إسباني تتميز كتاباته بالجودة والرقي ويهتم كثيرا بالآثار اللغوية والثقافية العربية في المجتمع الإسباني وسبقت له زيارة عدة دول في الشرق الأوسط مثل مصر وإيران وتركيا والكتابة عنها.

القاهـرة وصخـب الحياة بصورتهـا الحالية والازدحام ولـذة صعوبات التواصل مـع ثقافـة أخـرى، وانغمسـنا فـي هـذا الماضـي الذي ينتصـب قويًـا من بين الأنقـاض، والـذي يُعـد بالنسـبة للكثير من الغربييـن مرادفًا لمصـر، لأن مصر اليـوم تخلـو مـن الأهميـة بالنسـبة لهـم، بـل ربمـا تكـون غيـر موجـودة من الأسـاس، تتعلق الرحـلات التي تنظمها وكالات السـياحة دائمًا بمصر القديمة والفرعونيـة، فتلـك النسـخة الميتـة والمدفونـة والتـي يصعب تخميـن كل ما تحويـه وفـك شـفراتها تُعـد أسـهل فـي المواجهـة مـن مصـر الحاليـة؛ الحيـة والقاسـية التـي تخلـو مـن المومـيـاوات السـاكنة، والمليئـة بأفـراد وتيارات لا تتوقـف عـن الحركـة والحديث والسـؤال والطلـب والمضايقة أو الابتسـام، أو فـي النهايـة محاولـة إثبات أنهـم موجودون.

السـفينة التـي تقدمـت بمفردهـا وسـط التيـار (فقـط فـي مـرات قليلـة للغايـة صادفتنـا قـوارب سـياحية صغيـرة تدعـى الفلوكـة أو أخـرى سـريعة بمحـركات تخـص الشـرطة) والفـارق الـذي كان يفصلنـا عـن ضفـاف النهـر وذلـك الجسـر المعلـق الصغيـر الأشـبه بالشـرفة الموجود في سـطحها، كلها عوامـل سـاهمت فـي إكسـابنا ذلـك الشـعور بالانعـزال التـام عـن العالـم داخـل نفـق الزمـن الـذي سـافر بنـا إلـى ذلـك التاريـخ البعيـد، كنـا نعيـش داخـل فقاعـة وأصبـح مـن السـهل افتـراض أن كل شـيء لا يـزال كمـا كان منـذ خمسـة آلاف عـام، مـا أهميـة وجـود مئذنـة أو سـماع نـداء اللـه أكبـر للصلاة بيـن الحيـن والآخـر؟ مـا أهميـة أن يكذبونـا بقولهـم إن الآلهـة القديمـة ماتـت وولـدت أخرى جديدة؟ مـا أهمية أن يُكذبنـا صوت المحرك

الـذي حـل بديـلا لريـاح الشـمال التـي كانـت تحـرك قـوارب الفلوكـة منـذ 500 قـرن؟ فهنـاك كانـت تنتصـب الجبـال بهيئتهـا القاحلة على شـكل أهرام طبيعيـة فـي الضفة الشـرقية وهناك في الضفة الأخـرى كان يوجد المزارعون وهـم يحرثـون الأرض الخضـراء سـنتيمترًا تلـو الأخـر، الـكل يرغـب في عيش ذلـك الخيـال بوضـع "مصـر" هكـذا؛ بيـن قوسـين، للعـودة للأمس، كنـا نبحر فـي صمـت النهـر ليـلا فـي رحلة ربمـا تحاكـي واحدة مـن تلك التي قـام بها رمسـيس أو نفرتيتـي، نحـن السـائحين الصينييـن والنرويجييـن والأمريكييـن والكولومبييـن كنـا مجـرد تشـويش مـن لحـم ودم غـارق فـي فرحـة هـذه الرحلـة الخياليـة، كان هنـاك ضجيـج آخر يصنعـه حديث المرشـدين الذي لا ينتهـي واللطـف المبالـغ فيه مـن قبل النُـدل، ولكن هذا هو مـا كان موجودًا ولـم تكـن هنـاك طريقـة أخـرى للقيام بهـذه القفـزة الزمنية سـواه.

صفـرة جبـال الصحراء وميـاه النهر القاتمـة والعميقة والضفاف المكتسـية بالخضـرة الكثيفـة، كل هـذا بجانـب الأهرام وبقيـة الآثار الدينيـة والجنائزية حينمـا تراهـا مـن هنا تكتسـب كل أبعادهـا، وحدتهـا وأيضًا ألمها؛ السـواقي التـي ترفـع المـاء ودوران العجـول أو الحميـر بهـا، وتيـار النهـر القـادم مـن الجنـوب العميـق؛ مـن بحيـرة فيكتوريـا فـي مهمتـه لمحاربة الصحـراء، هذا التبايـن الحـاد بيـن الحيـاة والموت؛ خُضـرة الحقـول المزروعة التـي يفصلها خـط واضـح ومثالـي عن رمـال الصحراء، الطيـور التي تنعق من فـوق النخيل ويبـدو نعيقهـا خلابـا بعـد سـماع أبواق القاهـرة التـي لا تنتهي.

كنـا نتوقـف كل يـوم فـي مرسـى ونهبـط لمشـاهدة واحـدة مـن الروائـع، أحتفـظ بتأملـي لنوعيـن مختلفيـن مـن الأعمـدة المنتصبـة نحو السـماء في تحـد للزمـن كأكثـر تجربتين شـغفًا فـي حياتـي بأكملهـا؛ الأول منهما طبيعي وقائـم منـذ أكثـر مـن ألفي عام دون أن يسـقط، إنها أقـدم المخلوقات الحية علـى وجـه البسـيطة ولو كان لديهـا أعين فربمـا كانت راقبت عـن بعد تغير الأسـر الفرعونيـة الحاكمـة، أتحـدث عـن السـيكويا العملاقـة، تلـك الأشـجار الضخمـة بمحميـة يوسـيميتي بشـرق كاليفورنيا، النوع الأخـر الأكثر قدمًا من السـيكويا العملاقـة والـذي لا يـزال قائمًـا هـو من صنـع الإنسـان، يتكون من الحجـارة وعليـه كتابـات بالهيروغليفية ويُشـكل واحدًا من أضخـم الآثار التي حققهـا الخيـال، إنهـا أعمـدة بهـو معبـد الكرنـك، كان المرء ليحـب أن يكون ابنًـا ووريثًـا لهـؤلاء الرجـال الذيـن ربما فـي ظل حالـة من الوهم السـاحر أو أزمـة فـي حب المجهول شـيدوا هذا الخليـط من التناسـق والعظمة والروعة والجمـال، لا يجـب علينـا نحـن معشـر أدبـاء الرحـلات إهانـة الصفـات عبـر الإسـراف اللغـوي واسـتخدام كلمـات مسـتهلكة في شـئون غير هامـة لصالح المبالغـة والابتعـاد عـن الدقـة فـي الأمـور البديهيـة، ولكـن إذا لم تسـتخدم كلمـات ضخمـة أمـام هـذه الأعمـدة وتلك الأشـجار فسيسـتحيل اسـتخدامها أمـام أي مـكان آخـر، بـل ربمـا يجـب منعهـا نهائيًـا، مائـة وأربعـة وثلاثـون عامـودًا أقامهـا بعـض ممـن دُعـوا أمنحتـب وعـدة ممـن قيـل لهـم رمسـيس كخليـط مـن التناسـق والعظمـة التـي تدعـو للتأمـل، لا أسـعى للدخـول فـي تفاصيـل فنيـة لا أعرفهـا لكـي لا يصبـح الأمـر مجـرد محاولـة منـي بالتظاهر

عبـر نسـخ مـا هـو موجـود فـي الكتـب، إذا لـم تذهـب لن تـرى، لن تشـعر، هـذا الأمـر مثـل الحـب (من خـاض تجربته، يعـرف طعمه)، لا بد أن يعيشـه كل شـخص بمفـرده ومـن مـر بـه سـيفهمك حتـى ولـو شـرحت لـه الأمـر بكلمـات تغيـب عنهـا الدقـة، هنـا لا توجـد صـور أو أفـلام صالحـة لنقـل كل شـيء، بالطريقـة ذاتهـا التـي لا توجـد بهـا قيمـة لأي تفسـير قـد يحدثونـك بخصوصـه أمـام السـيكويا العملاقـة، أو لأي قطعة لحاء يقدمونهـا لك أو لأي كاميـرا تليفزيونيـة تعـرض الأمـر أمامك، السـفر لا يسـتحق العناء أبـدًا مثلما يسـتحقه فـي هذيـن المكانيـن اللذين سـلم لنا فيهمـا الفن بصحبـة الطبيعة أفضـل مـا لديهمـا، عظمتنـا وبؤسـنا هنـاك؛ فـي انعـكاس أروع وأسـمى مـا قـد تنتجـه أيـاد وعقـول البشـر وفـي الوقـت ذاتـه هزيمتهـم التـي لا يمكن تجنبهـا علـى يـد المـوت والزمن، من ضمـن الدروس الأخـرى التـي تركتها لنا المعابـد والمقابـر الموجـودة عنـد هـذا القطـاع مـن النيـل، الـذي يبـدأ مـن طيبـة ويصـل لسـونو وربمـا أبعد بعض الشـيء عند أبـو سـمبل، درس خيانة الأحياء.

يعـرض لنـا رحالة كولومبي آخر هو خوان سـييرا الأمـر بهذه الطريقة: "كل مـا سـيتبقى منـا سـيتعرض للنهب والتدمير علـى يد الناجين منـا"، خوفنا من الموتـى وتبجيلهـم واحترامنـا لأسـلافنا هـي فكرة بشـرية مباركـة لا يلتزم بها أحـد تقريبًـا، القاعـدة هـي النهـب والدمـار والسـرقة والاسـتيلاء علـى كل ما هـو بعيـد وتدنيـس كل ما كان مقدسًـا عند آخريـن، الديانـات الجديدة أثناء تظاهرهـا بأنهـا أكثـر حكمة وأكثـر عقلانية وأكثر قدسـية عملـت على إزاحة

تلك القديمة بقوة الأيدي والسيوف والرماح، مسجد دخيل وفي غير موقعه يغزو ويُحقر من قيمة معبد الأقصر عن مدخله أو صلبان قبيحة وكنائس قبطية متواضعة في وسط المعابد النوبية المذهلة؛ رهاب الجنس المسيحي الذي قص كل مظاهر العري الرفيعة التي رسمها الكهنة القدامى؛ مذابح على طراز العهد الجديد تفرض نفسها على أعظم محاريب الوثنية؛ في الوقت الذي تُزين فيه المسلات ميادين لندن وباريس وتُعرض تماثيل رائعة (نهبها القنصل دروفيتي) ومقابر كاملة في المتحف المصري بتورينو وتوابيت مذهلة في متحف الفنون الجميلة في بوسطن وفي اللوفر وفي برلين ولندن وأيضًا في القاهرة.

على الرغم من النهب الذي استمر لقرون، إلا أننا هنا في المناجم الأصلية التي استُخرج منها كل شيء تقريبًا، كنا لا نزال نلهث من رؤية التناسق المثالي الذي حققه فنانون عباقرة (شكرا للرب أنهم لم يسعوا وراء الأصالة) عملوا على نسخ أعمالهم من بعضهم بعضًا مع إضافة تعديلات طفيفة قرنًا تلو الآخر، لو افترضنا أن الفن الغربي لم يتقدم سنقول إن كل الرسوم، مثلما هو الحال من هيرونيموس بوش[44] حتى بيكاسو، كانت تتكرر بشكل شبه متطابق في الفن المصري مع المرور البطيء لمئات السنين، كان المطلوب هو الولاء التام لنموذج معين، إنها تلك الثقة التي ربما لا يعرفها فقط سوى الفنانين الكلاسيكيين؛ فلأن كيفيدو ولوبي

44- رسام هولندي عاش في بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وجونجورا[45] كانوا يدركون صعوبة التفوق على قصائد السونيتو التي ألفها بتراركا[46]، لجأوا إلى تقديم أعمالهم بطريقته، ليصبح أكبر إنجاز فني لديهم هو تحقيق أكبر شبه معه، هذا هو نفس ما كان يحدث مع الفن التعبيري في مصر القديمة الذي يتميز بروعة هذا النوع من القوافي المتكررة في كل رسومه النموذجية، تأتي دائمًا في وضع مثالي لا يمكن تحسينه ويسهل التعرف عليه، جذع الجسد من منظور أمامي والوجه من آخر جانبي؛ ساق تسبق الأخرى وتنورة، هيئة متناسقة بها يدان تتحركان وبجوارها ورقة بردي أو نخلة أو بطة أو تمساح، تتبقى مسلات قليلة في مكانها، وأقصد بهذا القول المكان الذي كان مفترضًا لها في الأساس، تنتصب واحدة عند مدخل معبد الأقصر العظيم بينما توجد أخرى لم تكتمل في محاجر سونو، المسلات (تلك الكلمة التي لا تبدو لنا جديرة بالاحترام ووصلت عن طريق الإغريق الذين أطلقوا على هذه الأعمدة المثالية ذات الرءوس المدببة لقب "أعواد تخليل الأسنان")[47] هي الأخرى أحد مظاهر النموذجية المتكررة، لا يطرأ عليها أي تغييرات في أبعادها تقريبًا ودائمًا ما تنظر نحو السماء وهي ترسل إشارة صامتة نحو الأعالي.

45- فرانثيسكو كيفيدو ولوبي دي فيجا ولويس دي جونجورا: مجموعة من أشهر الشعراء الإسبان القدامى.

46- فرانشيسكو بتراركا: أحد أهم شعراء عصر النهضة في إيطاليا.

47- يقصد الكاتب أصل كلمة Obeliscos الإسبانية والتي تعني المسلات والمشتقة من كلمة Obeliskos التي كانت تعني باليونانية القديمة «عود تخليل الأسنان»، وهو اللفظ الذي اختاره الإغريق لوصف المسلات في القدم

لا تـزال التماثيـل الضخمـة التي احتسـب تلاحمهـا الحجري بدقة مدهشـة تنظـر إلينـا بعلـو سـامٍ، وعلـى الرغـم مـن تحطـم أجسـادها، إلا أنهـا بوجهها تدعونـا لمواصلـة عبادتهـا كما لـو كانت حقا هـي الأكثر قوة وعـدلا ومثالية، أمـام نفـس هـذه التماثيـل توجهـت برجـاء، ألا يصـل تعصـب حركـة طالبـان المختـل إلـى هنـا لتدميرها بناء على أسـباب سيئة السـمعة وليـدة الانغلاق الذهنـي، أصبـح هنـاك دمـار كثيـر بالفعـل ولكـن علـى الأقل يجـب أن تظل الأمـور كمـا هـي دون أن تنهـار بصورة أكبر، بعد خمسـة آلاف عام أو سـبعة آلاف عـام، مـا الـذي سـيبقى من مدينـة الفاتيكان؟ هل سـيتمكن السـائحون عـام 7600 مـن مشـاهدة قطـع التصوير الجصـي الخاصة بمايـكل أنجيلو في كنيسـة سيكسـتينا؟ سـيكون هـذا الأمر، لو حـدث، معجزة بنفـس عظمة تلك التـي لا يـزال بإمكاننـا رؤيتهـا فـي بقايا العبـادة القديمـة، من الممكـن جدًا أن تندثـر المسـيحية فـي غضون خمسـة آلاف عام، ولكن مـن المحتمل أيضًا بشـكل كبيـر أن تنسـاب مشـاعر البشـر فـي المسـتقبل مـع موسـيقى باخ أو فـن بيرنيني.

لنعـد مـرة أخـرى لـ"مدينـة فاتيـكان" مصـر التـي تعـود لآلاف السـنين، لم تكـن التماثيـل والآثـار فقـط هي مـا تعرضـت للنهب (الـذي كان فـي الكثير مـن الأحيـان لإنقاذهـا، لأنـه هنـا كمـا حـدث أيضًا فـي رومـا، لم تكـن قليلة تلـك المـرات التي اسـتخدمت فيها الآثار القديمة كأحجار أسـاس لدور عبادة جديـدة سـواء كانـت دينيـة أو وثنية)، كان يتـم تصدير كل شـيء عبر مجرى النيل الذي يذهب بالمياه والكنوز نحو القاهرة أو أبعد منها نحو المتوسـط،

لنضع مثالا بسيطًا، في كل بوتيكات العالم بالقرن الـ19 كانت تباع قارورة الـ(موميا) أو المومياء كعلاج لكل داء، ما هي الـ(موميا)؟ مسحوق مصنوع من مومياوات مطحونة ابتيعت من مصر، مصير حزين بالنسبة للمومياوات، يجهز المرء- لنفسه- قبل وفاته مسكنًا أبديًا وجسدًا لا يفسد ليدفن بأوراق بردي رائعة التزيين مع كتاب الموتى ليعرف كيف سيتصرف في يوم الحكم النهائي، لينتهي الأمر به مباعًا على هيئة دواء شرب لعلاج السعال في بوتيك بهولندا أو الصين لرجل كل ما يعاني منه هو نزلة برد أو ربما السل، كان يجري العثور في وادي الملوك على مومياوات لا تعد ولا تحصى لصناعة أشكال متنوعة من هذا الدواء، سواء كانت مومياء فرعون أو أمير أو قطة أو موظف، فإن هذا الأمر لم يكن يفرق مع السعال، لأن أثر تخفيف حدة الأمر كان واحدًا، ليت الأمر اقتصر على عدم معرفة الرغبات الأخيرة لهؤلاء الراحلين وليت الأمر اقتصر على طحن أجسادهم لعلاج السعال أو الكبد، بل إن كل أفكارهم تم اختزالها للعدم.

في سونو، ومع سونو أيضًا، تناسى العالم ما اكتشفه إراتوستينس، الأمين العظيم لمكتبة الإسكندرية في حقبة البطالمة قبل الميلاد بمائتي عام، لم يكتشف هذا الرجل الاستثنائي، الذي كان عالمًا في الرياضات والجغرافيا والفلك وشاعرًا، أن الأرض كروية فقط، بل كان يعرف مقاسها أيضًا، لا تزال مدينة أسوان الحالية تحتضن البئر التي ارتكز عليها إراتوستينس للقيام بقياساته، لقد احتسب بأسلوب سهل وعبقري حجم دائرية

الأرض بقياس المسافة بين الإسكندرية وأسوان، مع حساب زاوية ظلال أشعة الشمس في نفس اليوم الذي كانت تضيء فيه عموديًا البئر الواقعة في المدينة الجنوبية، لكن البشر نسوا وخانوا هذه المعرفة الاستثنائية طوال قرون، بل وأنه في يومنا هذا لا يعرف بعض المرشدين المحليين حتى بوجود هذا الأمين العظيم لمكتبة الإسكندرية وطريقة قياسه العبقرية لتلك الكرة التي نسميها العالم، ربما كان ليصبح من الأفضل أن يستولي أمين مكتبة أخرى على اكتشافه العظيم وينقله لبشرية واصلت طوال عقود، بسبب غياب أثر الناسخ المتواضع، تصديقها لخطأ أو وهم أن الأرض مستوية أو شبه دائرية أو على شكل طبق صغير، هذا ما كان يفعله الفراعنة على الأقل، الاستيلاء على إنجازات أسلافهم، فعلى أعمدة معابد الحكام الذين وصلوا لاحقا للسلطة كانوا يضعون خراطيشهم فوق تلك التي تخص أسلافهم لكي ينسبوا لأنفسهم بناء ما شيده فراعنة آخرون، لم يفعلوا هذا فقط، بل كانوا أيضًا ينهبون مقابر أسلافهم لجعل حياتهم أو مماتهم أكثر ثراء، كما اعترف الفرعون مري كا رع لنجله، إن أغلب المومياوات المخبوءة كي لا يراها أحد حتى يوم البعث (باستثناء الإلهين أوزوريس وأنوبيس الموجودين في العالم الآخر) قد تعرضت للتفكيك والتفريغ والتدنيس، قلة هي التي تبقت كاملة بعد أن أنقذها كهنة مخلصون في العصور القديمة ووضعوها بدون كنوزها في مقبرة واحدة، كأحد أشكال العطف الأخير، هناك أيضًا مومياء الملك الصغير الشهير عن حق (بسبب الشكل المدهش لمقبرته أكثر

مـن بطولاتـه المعدومـة) تـوت عنخ آمون وكنـزه الجنائزي، الذي نجا بشـكل إعجـازي مـن محـاولات النهب، تحتـاج هـذه العجائب إلى متحـف بمفردها وليـس مجـرد قاعـات مكتظة مثل تلك الموجـودة اليوم في متحـف القاهرة، علـى الرغـم مـن هـذا لا يـزال غيـر قابـل للتصديـق ذلـك الإخـلاص، الـذي دُفـن بـه هـؤلاء البشـر الفانيـن مثلنـا تمامًـا لكنهـم يتمتعـون بهبـة الخلـود وفقـا لديانـة سـادت بين شـعب يقـوم نظامه على أسـاس قابليـة تصديق أي شيء.

كان اللصـوص هـم نابشـو المقابـر ومكتشـفوها فـي وادي الملـوك والملـكات والكثيـر مـن المواقـع الأثريـة الأخـرى بشـكل أكبـر مـن العلمـاء أنفسـهم، كانـت الكلمـة العليا للجشـع أو الاحتيـاج وليس للقيمـة التاريخية، يقـص جـان فيركوتيـر[48] أن "صائـدي الكنـوز كانـوا كثيريـن في مصـر لدرجة أنهـم فـي القـرن الرابـع عشـر كانـوا يدفعـون ضرائـب كحرفييـن"، المغارات المليئـة بالكنـوز مثـل تلـك التـي تخـص علـي بابـا كانـت قائمـة منـذ آلاف السـنين فـي مصـر وربمـا لا تـزال هنـاك مغـارات أخـرى غيرهـا، لـم يعـد أحـد يفكـر بالفعـل فـي أنـه يجـب احتـرام رغبـة هـؤلاء الراحليـن، لـم يعـد فـي قـدرة حفنـة مـن العظـام الملفوفـة بـأوراق إصـدار أي أمـر، حتـى ولـو كانـوا فـي حياتهـم السـابقة يُعبـدون مثـل الآلهـة، لـذا تعمـل بعثـات مـن كل جامعـات العالـم هنـا طـوال شـهور وسـنوات، مـن أجـل إخـراج معبـد مـن تحـت الأرض، أو لفـك شـفرات مقبـرة مدمـرة أو لترميـم بـروز

48- عالم مصريات فرنسي ومن أشهر مؤلفاته كتاب "مصر القديمة".

منخفض، أو التنقيب في قلب الجبل حيث ربما لا يزال يوجد جسد لم يُمس لأميرة أو أمير.

خزانة الميت وخيانة الأرامل والوصايا التي يتحدث عنها كونديرا[49]، كل هذه ثوابت في البشرية، فالمذكرات التي تركها بيرتون مترجم (ألف ليلة وليلة) وقص فيها رحلاته لمصر وعدة دول أخرى مُزقت ودُمرت على يد أرملته، هذا يحدث بصورة سنوية مع أوراق كل الكتاب ودفاتر مشاريع الرسامين وإرث الأثرياء والتدابير الجنائزية للفقراء، حينما يفقد المرء صوته يضيع معه حقه وإرادته وقدرة الدفاع عن نفسه، في إحدى الليالي أثناء تواجدنا على متن السفينة سمعت (ك) وهي تتناقش مع (آ)، كانتا تتحدثان عن بعض أوراقي التي لن أنشرها أبدًا لأنها مكتوبة على هيئة أبيات سخيفة، قالت (ك) إنها جيدة وربما تكون أفضل ما كتبته، بينما رأت (آ) أنها عار، حينما أرحل فإن أول من تلمس هذه الأوراق ستنفذ رغبتها دون أن يهمها أي شيء فكرت فيه أو قلته، من يرغب في تحقيق شيء من أوراقه، عليه ألا يتركها تحت رحمة أصدقائه المخلصين (ماكس برود)[50]، وربما أيضًا تحت رحمة زوجات متعطشات لحقوق المؤلف (السيدة بورخيس)[51]

49- ميلان كونديرا: روائي وفيلسوف فرنسي من أصول تشيكية ومن أشهر أعماله "كتاب الضحك والنسيان" و"الخلود" و"الهوية".

50- مؤلف وصحفي تشيكي اشتهر بسبب صداقته مع فرانتس كافكا ونشره لأعماله عقب وفاته.

51- يقصد الكاتب السيدة ماريا كوداما أرملة خورخى بورخيس وهو أحد أهم كتاب القصص القصيرة في تاريخ الأرجنتين وأمريكا اللاتينية والذي توفي عام 1986.

أو أبنـاء متمرديـن أو معاهـد بائسـة تتبع مؤسسـات زائفة، كل مـا لا يتعرض للحـرق سينشـر وكل مـا كانـت هناك رغبة في نشـره سـينتهي فـي المحرقة، لهـذا كأحـد أشـكال تطهيـر مأسـاتي فـي الليلـة ذاتهـا وكمـن يقطـع أوراق زهـرة، ألقيـت دون أي نـدم كل أبياتـي نحـو النيل.

فـي زاويـة متسـعة بالنيـل، بالقـرب مـن شـلالات أسـوان (هي سـريعة في الحقيقـة)، كنـا نبحـر شـراعيًا علـى متـن فلوكـة قديمـة يقودهـا ربـان نوبي سـاحر، "خطيبـي النوبـي"، هكـذا كانـت تناديـه (ك) وهـي تدير معـه حوارًا طويـلًا بالإنجليزيـة، بالقـرب مـن المدينة يمكـن رؤية الكـوارث، فندق يلتهم بهيكلـه جزيـرة بأكملهـا، ولكـن أيضًـا يمكـن رؤيـة مـا جـرى إنقـاذه؛ حينمـا قـرر شـخص مجنـون تحويـل جزيرة صغيـرة إلى حديقـة نباتيـة، كان الإبحار لطيفًـا، عكـس التيـار ومـع ريـاح الشـمال ونسـمات تداعـب الوجـه، هـي النسـمات ذاتها التي كان يستنشـقها الصيادون المسـئولون عن توفير الغذاء للفراعنـة، غمسـت يـدي فـي ميـاه النهـر وأنـا أكـرر تلـك الحركـة القديمـة التـي يفعلهـا كل مـن سـافر عبـر النيـل، ولكـن لـم يكـن هنـاك أحد يسـتحم فـي مياهـه خـلال هـذا الزمـن الجديـد الـذي انعدمـت فيـه الثقـة، فبخلاف الميـاه فـإن التيـار يجلـب معـه الكثيـر مـن السـموم، سـواء كانـت طبيعيـة (البكتيريـا الجبـارة) أو صناعيـة وسـامة، ضربـت الرياح الأشـرعة وأبحرنا هذا المـرة مـع التيـار الـذي كان ضعيفًـا، لهـذا هبطنا مـن المركب بحركـة ملتوية بطيئـة، تناولنـا الطعـام بأيدينـا فـي منـزل رباننا، خطيـب (ك) النوبـي، تناول

الطعـام باليديـن أمـر جيـد بعـد عـدة سـنوات مـن اسـتخدام أدوات المائدة والعصـي الصينيـة، المـذاق حـاد وحـار وقـوي وبدائـي، إذا مـا كنـت تشـعر بالجـوع سـيبدو مذاقـه لـك أفضـل مـن طائـر السـمان، يقـدم سـكان هـذه المناطـق وجباتهـم مـع قطعـة مـن الخبـز الطـري المقطـع، جلسـنا علـى الأرض وشـمس الغـروب الطويـل تنخفـض فـوق أكتافنـا، لـم يكـن هنـاك أي موسـيقى واقتـرب بعـض النعـاج الحزينـة بمحيا يشـبه أصحابها وهي تشـتم الرائحـة لتطلـق مـن حيـن لآخـر ثغـاء لا يمكـن فـك شـفراته بالنسـبة لنـا، تمامًـا مثـل تلـك الكلمـات التـي كان يتحدث بهـا مضيفونـا النوبيـون بينهم، تناولنـا مشـروبًا سـاخنًا ثـم غسـلنا أفواهنـا بإنـاء فـي أيدينـا، كانـت هنـاك لحظـة نسـيان بسـيطة أصبحنـا فيهـا مـرة أخـرى قبيلة مـن البشـر البدائيين، "بدائيـون" كلمـة قبيحـة، سـأقول مـن البشـر القدامـى أو الأفارقـة أو البشـر الأصلييـن، كل العشـائر التـي سـكنت العالـم سـبق ومـرت مـن هنـا، جلسـوا هكـذا علـى الأرض وتناولـوا الطعـام بهـذه الطريقـة، ربمـا تكـون كذبـة أو مجـرد وهـم ولكـن حينمـا أغلـق عينـيّ أرى أن هذا هـو ما حـدث بالطريقة ذاتهـا التـي أثـق بهـا فـي كوننـا لا نـزال أحياء.

عدنـا إلـى القاهـرة جـوًّا وحلقنا طـوال الرحلة تقريبًـا فوق نهـر النيل، إبرة البوصلة تتجه نحو الشـمال وهذا هو نفس مسـار واتجاه المياه، المنظر كان رائعًا ومؤثرًا بشكل بدد مخاوف الطيران، فتأمل الجمال أهم من الموت، تلك الكسـوة الخضراء التـي لا تصدق على الضفتين والتضاريـس الجافة للصحراء، كلهـا أشـياء تعمـل بتأثير أشـبه بالتنويـم المغناطيسـي، ينمحي المرء نفسـه

ووعيـه وتذهـب العينـان فـي رحلـة للبحث عـن الروعـة، لدينا شـيء نملكه ولـم يكـن موجـودًا لـدى القدمـاء، هـم لـم يـرون مصرهـم أبـدًا مـن هـذا المنظـور؛ المنظـور العلـوي، منظـور الطيـور والآلهـة، إذا مـا كانوا قـد عبدوا الآلهـة، فـإن هـؤلاء بسـبب ذلـك المنظر مـن أعلى لأسـفل، ربمـا كان عليهم أن يعبـدوا المصرييـن بصـورة أكبـر، إذا مـا كانـت هنـاك آلهـة تنظـر للبشـر فإنهـم سـيعبدوننا بسـبب جهدنـا العنيـد عديـم الفائـدة لمجابهـة المـوت ولاختلاسـنا آو أحيانًـا اكتسـابنا لقطـع مـن فتـات الحيـاة، علـى الرغـم من أن صفاءهـا غيـر المبالي يثير الاسـتياء فـي بعض الأحيان، إلا أن السـماء غالبًا ما تكـون رائعـة حينمـا ننظـر للأعلـى، ولكن الأكثـر تنوعًا وتشـويقًا هـي الأرض حينمـا تنظـر إليهـا مـن السـماء؛ حينمـا تـرى فيهـا انعـكاس العمـل الصبـور للبشـر؛ وبالأخـص حينمـا تحلق فـوق وادي النيل العظيم، كسـوة مـن الحياة تحـارب ببـؤس صحـراء المـوت التي تحاصرها، سـنتعرض للهزيمـة في يوم ما ولكـن هـذا اليـوم لـم يـأت بعـد، نعمـل بهذا الإصـرار وهـذا الإيمـان الأعمى الـذي لا يوجـد لـه أي أسـاس والـذي يرتكـز على الوهـم العابر بأننـا خالدون قبـل المـوت، يعلـم عقلنـا أن المـوت سـيأتي ولكـن لحسـن الحـظ لا نصدق هـذا المنطق.

هبطـت الطائـرة وسـط دوامـة مـن التـراب الصحـراوي وامتـدت المدينـة القبيحـة الصفـراء المضجـرة أحاديـة الشـكل مثـل السـرطان وهـي تغطـي بلونهـا المحتضـر حتـى تلـك الخضـرة التـي كانـت سـرقتها مـن الصحـراء فـي يـوم مـن الأيـام، تبـدو سـاكنة مـن أعلـى ولكـن حينمـا تصل فـإن الغليان والأصـوات العالية تُكذب هـذا الظن،

لـم نضطـر هـذه المـرة لمكافحـة الحميـر والحماليـن وسـائقي الأجـرة لأن أشـرف سـائق الأجـرة الخـاص بنـا كان ينتظرنـا وفتـح لنـا الطريق بيـن صراخ ولكـز بالأكـواع، وفـي ظـرف نصـف سـاعة كنـا فـي فنـدق (كوزموبوليتـان)، بينمـا كانـت (ك) تقـرأ، و(آ) تأخـذ قيلولـة، بدأتُ فـي تحريـر ذكرياتي حول المنظـر الإلهـي الـذي شـاهدته مـن علـو، حينمـا حـل المسـاء خرجنـا فـي نزهتنـا المعتـادة بشـوارع وسـط البلـد التـي دائمًـا مـا كانـت تنتهـي فـي المقهـى المفتـوح بجانـب (ريش)، أجريـت اتصالي المعتـاد بحامد أبو أحمد وتلقيـت واحـدة مـن هـذه الإجابـات التـي لـم تعـد بي طاقـة لكتاباتهـا، من أنـت ومـن تظـن نفسـك يـا حامـد أبو أحمـد؟ لمـاذا أعتقـد أنني فـي حاجة إليـك إذا لـم أكـن أعرفـك؟ إذا مـا ظللـت صامتًا مثـل كله آلهـة الأوليمب (أو مثـل البقيـة، كل البقيـة)، سـأُرهق يومًـا مـا مـن مناجاتك.

كان يا ما كان.. كان هناك هرم في مصر

مصر ليست مصر، أو كقول أفضل فإن ما يتبقى من مصر هو مجرد آثار، ما يطلق عليه اليوم مصر لا تربطه أي صلة بمصر الكتب، أو مصر التي يبحث عنها الغرب ويحلم بها منذ حملة نابليون في 1798 أو إعلان جان فرانسوا شامبليون في سبتمبر 1822 أنه تمكن من فك شفرات الهيروغليفية، تلك الكتابة التي ظلت لا تنطق ولا تسمع منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام، أو منذ سيطرة المسيحيين على البلد عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية وتحريم كل الديانات الأخرى أو محوها، بداية من بقايا تلك الفرعونية، الخير المسيحي دفن معابد ومحا أساطير وشعائر أكثر من كل الديانات الأخرى مجتمعة (التي يفترض أنها أكثر توحشًا)، أنقاض في المكسيك ومثلها في جواتيمالا وكولومبيا وبيرو وأمريكا الشمالية ومصر، هذا هو ما تركته العصابات المسيحية (قتلة الآلهة باسم رب آخر يفترض أنه أقل غضبًا) لدى دخولها في اتصال مع ديانات أخرى.

مصر اليوم ليس لها أي صلة بهذا العالم القديم أو بـ"جنون المصريات" الذي عاشه الغرب طيلة قرنين، مصر، على الرغم من رفضنا الاعتراف بهذا الأمر، ليست أيضًا تلك الدولة القابعة في مخيلتنا منذ ترجمة بيرتون لـ(ألف ليلة وليلة) في 1885، ذلك

الكتاب الذي لم يُطبع لا في مصر أو أي دولة عربية أخرى، لم تعد مصر هذا البلد، المقارب للخيال أكثر من الواقع، والذي ولدت فيه الفنون والتقويمات، وصنعت فيه آلهة من إرث الإغريق، وحدثَتْ فيه معجزات موسى، وتحققت فيه نبوءات يوسف، وتعرض فيه اليهود لسوء المعاملة، وكان نهرًا للكتابة والتاريخ والرياضيات والديانات، ليست أيضًا شرق المخيلة الذي ابتكر الغرب أغلبه؛ الزاخر بالعطور والإثارة والإباحية والقصص المثيرة، مصر اليوم مختلفة عن مصر الكتب والخيال، ما يحدث هو أن الأشياء حتى ولو حافظت على اسمها فإن جوهرها يتغير، مصر اليوم هي مصر بالنسبة للعرب ومصرايم بالنسبة لأبناء عمومتهم الساميين اليهود، وكلا الاسمين يشيران إليها بالكامل أو لعاصمتها القاهرة، اسم مصر الآخر، الذي ربما يكون الأكثر جمالًا ودقة والوحيد الذي لا يزال يرتبط جزئيا بالواقع هو (الأرض السوداء) أو (كيميت)، لأنها أشبه بقبضة حياة مرفوعة في وجه الصحراء، أو الأرض الحمراء للإله سيت.

علاقة مصر الحديثة بتلك القديمة مثل تلك التي تجمع إسبانيا اليوم بالحضارة التي رسمت كهف ألتاميرا[52] أو كولومبيا الحالية بالحضارة التي صنعت مقابر تييرادينترو[53]، هناك شرخ

52- يقع في شمال غرب إسبانيا وهو من أوائل الكهوف المزينة برسوم الحيوانات التي اكتشفتها الإنسانية حيث ترجع تلك الرسوم إلى العصر الحجري القديم الأعلى، لهذا يحمل كهف ألتاميرا قيمة تاريخية كبيرة.

53- نقع بمقاطعة كاوكا الكولومبية وتنتمي لفترة ما قبل الحقبة الإسبانية وأدرجت في قائمة التراث الإنساني الخاصة باليونسكو منذ عام 1995.

اجتماعـي وثقافـي وربمـا أيضًـا عرقـي مـع الماضـي الفرعوني، يلجـأ الحكام والساسـة للاسـتيلاء علـى هـذا الماضـي المجيـد لتعويـض افتقادهـم الحالي لأي مجـد. كان مصـدر الهـام موسـوليني أيضًـا هـو الرومـان حينما غـزا (دون نجاح) الحبشـة، ولا تغيب أبدًا إشـارة السياسـيين البيروانيين والمكسـيكيين إلـى أتاوالبـا[54] أو عظمـة أهرامـات تيوتيـواكان[55]، كما لـو أن فوجيموري[56] أو الحـزب الثـوري المؤسسـي[57] كان لهمـا دور في هذه الإنجازات، الإسـبان دومًـا حينمـا يشـعرون بنقـص الفلاسـفة ورجال الدولـة لديهـم يتحدثون عن سـينيكا[58] وهارديـان[59]، بمعنـى آخـر نحـن جميعًـا نتشـابه ونخلـط الثقافة بـالأرض، علـى الرغـم مـن أنـه ما يحـدث فـي الواقع أنـه على الأرض نفسـها تمـر ثقافـات مختلفـة واسـتثنائية أو أخـرى خائنـة وقابلـة للكسـر، الجغرافيا وحدهـا لا تُعـرف البلـد، الشـيء الوحيـد الـذي يتشـاركه مصريـو اليـوم مـع القدمـاء هـو مجـرى النيـل (مـع بعـض التغيـرات) وخصوبـة الدلتـا وقطـاع الـري المتـاح علـى جانبيه.

54- أخر حكام حضارة الإنكا القديمة التي كانت تشمل تشيلي وبيرو والإكوادور.

55- مدينة أثرية قديمة تقع بالقرب من مكسيكو سيتي وتضم أهرامًا ومقابر وقصورًا ويعني اسمها "المكان حيث يصبح الرجال آلهة".

56- ألبرتو فوجيموري: رئيس سابق لبيرو في الفترة بين 28 يوليو 1990 وحتى 17 نوفمبر 2000 ودخل السجن في 2007 بسبب تهم بالفساد وانتهاكات لحقوق الإنسان.

57- أحد أهم وأكبر الأحزاب السياسية في المكسيك وينتمي له الرئيس الحالي إنريكي بينيا نييتو.

58- لوكيوس أنايوس سينيكا: فيلسوف وكاتب مسرحي روماني ولد في مدينة قرطبة الإسبانية، لهذا يحب الإسبان التباهي به.

59- إمبراطور روما في الفترة بين 117 وحتى 138 وولد في بلدة إيتاليكا القديمة بالقرب من مدينة إشبيلية الإسبانية ولهذا أيضا يحب الإسبان التفاخر بهذا الأمر.

أروع ما في مصر هو ماضيها، ذلك الماضي المتسع الذي تمخضت فيه الإنسانية عن مجموعة من أكثر الآثار إثارة للدهشة وأكثر الأعمال الفنية مثالية، ربما يكون عامل الإكراه الجغرافي هو ما ساعدهم لأنهم كانوا مجبرين على الميل للاستقرار، فإذا ما تحركوا أكثر من اللازم، كانوا يجدون رمال الصحراء الجرداء في وجوههم، لم يتعرضوا للغزو أو للإبادة للسبب ذاته أيضًا، ذلك الحاجز الرملي الذي كان يبعد أعداءهم عنهم، ولكن لكي تتحدث عن مصر العميقة والبعيدة والغامضة (التي تكثر فيها الأسئلة عن الإجابات)، ولتتحدث عن مصر وأحجارها، يجب أن تدرس لسنوات وربما طوال حياتك وليست لدي نية أن أصبح عالمًا في المصريات بين ليلة وضحاها، أكتب عن القاهرة وليس عن المصريين القدماء والشيء الوحيد الذي يجب أن أسجله هو تلك الصدفة أنه على نفس هذه الأرض بالضبط ازدهرت عاصمتان فرعونيتان كبيرتان، الأقدم هي منف وتقع على 24 كلم جنوبي القاهرة، أما الأخرى فهي هليوبوليس على بعد 31 كلم شمالا، هليوبليس، التي كانت مسقط رأس فراعنة الأسرة الخامسة وإلهها الرئيسي هو رع، أصبحت اليوم حيًّا حديثا تقطنه الطبقة المتوسطة العليا ويحتوي على أهم مطارات البلاد، ولكن لم يتبق منها أي شيء أو ربما آثار قليلة من عظمتها القديمة. تعد القاهرة، في وسطها وبعض أحيائها السكنية، بالفعل مدينة حديثة، ولكن بقيتها تبدو كسلسلة متتابعة من القرى المتربة المليئة بالمنازل الريفية القديمة التي تخلو من أهم الخدمات الأساسية، تلك الأجواء

القرويـة والريفيـة تجعـل الأمر يبـدو كأن "الفلاحين" وصلوا بالـكاد أمس من إحدى بلـدات الدلتا.

لنعـد إلـى منـف التـي تبـدو أشـبه بتجمـع كبيـر مـن المنـازل الصغيـرة الفقيـرة، ولكـن إذا مـا حفـرت بضعـة أمتـار قليلة، ربما سـتة أو سـبعة تحت سـطح الأرض الحالـي، فـلا تـزال هنـاك بقايا واحدة مـن أقدم عواصـم العالم القديمـة موجـودة (كانت أول عاصمـة لمصر الموحدة ويُقال إن من أسسـها هـو الفرعـون مينـا قبـل الميـلاد بثلاثـة آلاف عـام، وإن كان مـن المرجـح أن هـذا الأمـر حـدث بعدهـا بقـرون)، تعـد ملامحهـا الأكثـر وضوحًا فـي الوقت الحالـي هـي التماثيـل الضخمـة التـي أُنقذت مـن بيـن أنقاضها، الأكثـر إثارة للدهشـة هـو ذلـك الذي يخص رمسـيس الثانـي والذي يتخطـى ارتفاعه أكثر مـن عشـرة أمتـار وعلى وجهه ترتسـم ابتسـامة سـاحرة، كان يجـب أن يكون منتصبًـا ولكننـا الآن نـراه متمددًا، كان هـذا التمثال يقف شـامخًا عند مدخل معبـد بتـاح فـي منف القديمـة، وهذه التركيبـة بين الحرفين السـاكنين (ب) و(ت) القادمـة مـن الإلـه بتـاح هـي التـي اسـتمدت منهـا مصـر اسـمها، كان تعميـدًا يونانيًـا قادمًـا علـى مـا يبـدو مـن أقـدم اسـم معـروف لمنـف وهـو (تيكوبتـاح) أو (منـزل بتـاح) ليعبـر إلـى اليونانيـة كـ(إيجيبتـوس) ومنها إلى بقيـة اللغـات، يجـب التعامـل مـع هـذه البيانـات بحـذر، علم الاشـتقاق في مجملـه كمـا هـو معـروف يرتكـز على الصـوت بنسـبة 10% ومثلهـا للمعنى أمـا الــ80% المتبقية فهـي للخيال.

تقع أهرام الجيزة أيضًا بالقرب من القاهرة، لم تكن القاهرة في الأساس تمتد حتى هناك ولكنها بسطت كيانها الآن، لكي يصل رحالة القرن التاسع عشر والذين سبقوهم للأهرامات، كان يجب عليهم القيام برحلة طويلة على ظهر الحمير أو الجمال، وقبل وجود الجسور الحالية فوق النيل كان يجب عليهم السفر في أكثر من سفينة وهو الأمر الذي كان يزداد صعوبة في شهور الفيضان، يا لسعادتهم! الأهرام الآن تقع في حيز القاهرة، أو بمعنى أصح فإن القاهرة استولت عليها وابتلعتها وتعمل على خنقها، هذا التأثير لا يصب في صالحها لأنه أصبح من المستحيل الاقتراب منها، حسنًا، يقترب المرء منها بالطبع ولكنه لا يلاحظ أنه اقترب، لأنه يفعل هذا عبر شوارع وبنايات تغطيها.

لم تعد رؤية الأهرام من بعيد ممكنة، رأيناها للمرة الأولى ونحن في الحافلة الصغيرة التي أقلتنا حتى هناك دون أي شعور بالخدر، النظرة الأول تولد حالة من الارتباك الذهني، تظهر فجأة كما لو كان الأمر اغتصابًا بصريًا، هذا بخلاف أنه بفضل التليفزيون والسينما وكل ما هو على شاكلتهما فإن الأمور فقدت جانبًا كبيرًا من عامل المفاجأة، أجواء الـ(ديجا فو) تسيطر على كل شيء، مثل أول مرة تذهب فيها إلى حوض الأسماك الكبير لتشاهد القرش الأبيض الضخم، ولكنك بالفعل قد شاهدته سابقًا بكل وضوح في أفلام (ديسكفري) الوثائقية؛ أو كأول مرة ترى فيها أسدًا في رحلة سفاري، ولكنه كان أكثر وضوحًا وقربًا في قناة (أنيمال بلانيت)، أفقد التلفاز العالم جانبًا كبيرًا من سحره،

انتـزع الوهـم مـن الواقـع قطعًـا كثيـرة مـن زينتـه، وفـي هـذه الحالـة أيضًـا فإنه بجانب سـرقة المفاجأة على يد الشاشـات، هناك أيضًا سـرقة المسـاحة التـي ارتكبهـا النمـو الجغرافـي لأكثـر عواصم الإسـلام كثافة سـكانية، بسـبب النمـو الحضـري السـرطاني الـذي لا تحكمـه قياسـات، فـإن الأهـرام الرائعـة القديمـة أصبحـت محاصـرة بتجمعـات سـكنية وبنايـات وشـوارع ومسـاجد، بـل وأيضـا وبـؤس المقابـر الجديـدة بجانـب عظمـة تلـك القديمة.

بخـلاف هذا، كيف ستشـعر بالعظمـة، إذا كان بائعـو أوراق البردي الزائف يطاردونـك ويهجمـون عليـك أيضًا بأهـرام بلاسـتيكية صغيرة؟ كيف ستشـعر بهـا إذا لـم يكـن هنـاك فرصـة لمحاولـة تسـلق حجـارة الأهـرام حتـى قمتها، كمـا فعـل مـارك تويـن أو كمـا لـم يفعـل نابليـون؟ (ليـس لأنه لـم يرغب بل لأن الملـوك لديهـم مخـاوف من السـقوط، بمعنى أصح في السـخافات)، في النهايـة يشـعر المـرء بكونـه ملزمًـا على النطـق بالعبـارات المعروفة مسـبقا بخصـوص الاندهـاش والروعـة، ولكن في البداية يسـتحيل إخـراج الأهرام من إطارهـا الكريـه، مبان رهيبـة لا تنتهي ومطاعم مقليات وبيتـزا هات وكنتاكي وبائعيـن مخادعيـن ورائحة فضلات حادة تسـيطر على المكان، أثناء محاولتنا الهـروب ممـن يعرضـون التقاط صـورة معك مقابـل إكرامية (وهـم متنكرين فـي صـورة عـرب أو بـدو أو فقـراء أفقر من الفقراء أنفسـهم)، شـاهدنا اثنين مـن السـائحين الفرنسـين يأخـذان "قطعـة من الهـرم"، كان توين يسـخر من رفقـاء رحلتـه الأمريكيين الذين تسـلحوا بمطـارق وأزاميل وأخـذوا قطعًا من

حجـارة الأهـرام أو إصبـع مـن قـدم رمسـيس وأشـياء من هـذا القبيـل، طوال قـرون ظـل النهـب قائمًـا علـى هـذا؛ اسـتقطاعات صغيـرة، يحـدث الشـيء ذاتـه مـع حائـط برليـن (فـي كل أنحـاء العالم يمكـن رؤية قطع منـه) أو مع سـور الصيـن العظيـم أو مـع تماثيـل سـتالين أو قطـع صليب المسـيح (التي لـو اجتمعـت معًـا لشـكلت غابة، كما يقـول فولتيـر)، لدينا فـي ميديين أيضًا ذخريتنـا المقدسـة، فـلأن كارلـوس جارديـل أشـهر مطربـي التانجـو علـى مر العصـور توفـي فـي مجالنـا الجـوي، بيعـت طيلـة عقـود فـي ميدييـن قطـع مـن جيتـاره المحطـم، التـي كانـت كثيـرة لدرجـة تكفـي لتشـكيل 10 فـرق موسـيقى وتريـة، هـوس التـذكارات والذخائر المقدسـة والاسـتقطاعات التي لا فائـدة منهـا موجـود أيضًـا فـي القاهرة، على الرغـم من أنه ممنـوع نظريًا، لـم نرغـب فـي أخـذ قطعة من الهـرم (غير حقيقيـة بكل تأكيد لأنهـا لم تكن سـوى حصـوة)، كل مـا كنـا نرغـب فيه هو رؤيـة الأهرام في هـدوء بدون أثر المدينـة أو صائـدي التـذكارات والباحثين عن البقشـيش.

لكـي نتطهـر مـن هذا الإحبـاط الأول، كانت تجـب علينا العـودة مبكرًا في الصبـاح التالـي بـروح مختلفـة وعبـر طريـق جديـد (ذلـك القادم مـن إمبابة يجعلـك تـرى الأهـرام مـن بعيـد ومنظـور مختلف بـكل العظمة التـي تنقلها الكتب)، يجب أن تسيطر على حواسك وتتعامل بحرفية مصور محترف مع كل الضجيج البصري والسـمعي الذي يحيط بها، وهكذا سـتتمكن في النهاية من مشـاهدة الأهرام كما لو كنت طفلا أو مسـافرًا من هؤلاء الذين لم يكن سـبق

ورأوا شـيئًا قبـل حقبـة السـينما والتليفزيـون، حينهـا سـتتمكن مـن الدخـول فـي حالـة تناغـم مـع روعتها.

العزلـة والصحـراء والصمـت هـي أفضـل العناصـر التـي يجـب أخذهـا في الحسـبان لتفهـم الأثـر الهائـل الـذي تشـكله الأهـرام، مجموعة مـن الحجارة الضخمـة ذات الهيئـة المثاليـة التـي يأخـذ إلـه قيلولتـه داخـل قاعدتهـا، الاسـترخاء ضـرورة لسـماع صـوت أنفاسـه الهادئـة ولكـي لا يوقظـه أحد من نومـه المؤقـت بيـن الخلـود الـذي يلاحقـه وينتظـره، هـذا الأمر يلاحَـظ أمام أهرامـات سـقارة ودهشـور الواقعـة علـى بعد 35 كلـم من القاهـرة أكثر من هرمـي خوفـو وخفـرع، فـي دهشـور، منـذ حوالي عـام تقريبًـا، أعيـد افتتاح الهـرم الأحمـر الـذي شـيده نفـس مـن بنـى الهـرم المائـل، الفرعـون سـنفرو والـد خوفـو ومؤسـس الأسـرة الرابعـة الـذي توفـي عـام 2551 قبـل الميـلاد، يدرج القليل من السـائحين دهشـور في رحلاتهم، لأن وكالات السـفر بشـكل عـام تكتفـي فقـط بالجيزة وسـقارة، لهذا فـإن المرء يمكنه الدخـول في عزلة تامـة للهـرم الأحمـر، يهبط النفـق بانحناء قوي ويشـعر المسـافر الوحيد بأنه يدفـن نفسـه تحـت الأرض حيث ينبـض قلب وحش بـريء وصامت، تعمقت وتعمقـت أكثـر وأكثـر كأنهـا رحلـة نحـو واحـد مـن تلـك الأخاديد التـي كان مسـافرو الأسـاطير يسـتخدمونها للدخـول لهاديـس[60] فيمـا ظـل مربـع ضوء المدخـل الحـاد خلفـي وامتـدت الظـلال أمامـي، حينمـا تصـل لحجـرة الهرم

60- ملك العالم السفلي في الأساطير الإغريقية القديمة.

الرئيسـية وتعتـاد الأعيـن علـى نقـص الإضـاءة، فـإن هرمًـا آخـر مـن الهـواء ينفتـح أمـام الأعيـن نحـو الأعلـى، ينتهي هيـكل التسـقيف في زاويـة بعيدة، فـي ظـل وجـودي هنـاك وسـط هـذه المقبـرة العظيمـة الفارغـة (لـم يُعثـر علـى أي تابـوت فـي آخـر مـرة فُتحت؛ لـم يتعرض الإلـه للسـرقة ولكنه فقط فـي مـكان أكثـر عمقًـا) تذكرت كلمـات أندريـس أولجين "في يوم مـن الأيام سـينهار كل هـذا" ومثلما فعل أيضًا هو الآخر سـارعت بالخـروج لكي لا أمنح القـدر فرصـة كبيـرة لكـي يقع هـذا الانهيـار الأخير فوق رأسـي، الأهـرام هي مقـر القيلولـة الطويلـة للفراعنـة ولكـن نحـن الجُـدد لا نرغـب فـي المـوت، حتـى ولـو كانـت تنتظرنـا مقبـرة في هـرم ما.

"التفكيـر فـي قلـة مـا كان سُـيعرف فـي حالـة عـدم وجـود المقابـر أمـر مدهـش، إذا مـا كانـت الفائـدة الوحيدة للإيمان بالنجاة مـن الموت هي ترك هـذا الإرث لنـا، فـإن هذا التبرير يكفي؛ بكل تأكيد للأجيـال اللاحقة المتأخرة مثلنـا وليس بالنسـبة لصانعيها"، هذه القطعة الإنشـائية الموجـزة لكانيتي[61] (حكمـه دائمًـا كانـت علـى الصـورة ذاتهـا، قطـع إنشـائية صغيـرة) يمكـن تطبيقهـا بشـكل مثالـي علـى الأهرامـات ومصـر، يا لقلة مـا كنا سـنعرفه عن هـذه الحضـارة الهائلـة! إذا ما كانـوا أكثر عقلانيـة وريبة وشـككوا في الحياة الأخـرى وأهميـة مقابـر فراعينهـم، بفضل هـذا الخيـال الواهم الرائـع، تعرفنا

61- إلياس كانيتي: كاتب وروائي وباحث ألماني حصل على جائزة نوبل للآداب ومن أشهر أعماله المعروفة في الشرق الأوسط "أصوات مراكش".

علـى عاداتهـم وسـر أبجديتهم ورسـومهم المثالية ومنحوتاتهـم التي لا يوجد لهـا مثيـل، لا يهـم أن يؤمـن المـرء بالأوهـام؛ ولكـن عظمـة البشـر تكمن في عمليـة ابتكارهـا، فنحـن فـي النهايـة نقـدم أفضـل مـا لدينـا فـي تصوراتنـا الساذجة.

أثنـاء زيارتنـا لدهشـور تحققـت مـن الفـوارق الشـخصية بيـن زوجتـيَّ، كانـت (ك) مجازفـة وشـبه متهـوّرة، لهـذا ظلـت في الأسـفل أكثر من سـاعة، منتشـية بوهـم أنهـا هي نفسـها موميـاء مدفونة أو لصة كنوز وأشـياء وأشـياء أخـرى، اقشـعر بدنهـا من الأفـكار والتصورات التـي تولدت في رأسـها ولكنها تسـلقت بعدهـا- بـدون خـوف- واحدًا من السـلالم الضيقة التـي تفضي إلى حجـرة أخـرى أكثـر بعـدًا، كانت (آ) علـى العكس منها، لم تهتـم بقضاء وقت طويـل وعـادت قبلـي يخالجها شـعور بالدوار ورهـاب الاحتجـاز، كانت لديها أحاسـيس كثيـرة مثـل (ك) وربمـا أكثر ولكنها لـم تتحملها وارتعبـت، وجدتها فـي الخـارج تتنـاول الطعـام بـكل ود مـع الحـراس (هـي تفضـل الواقـع على الخيـال) وتتحـدث معهـم عبـر الإشـارات، أما (ك) فتأخـرت كثيـرًا لدرجة أنها حينمـا خرجـت كنـا بدأنا نشـعر بالقلـق عليها.

غفـت (ك) علـى كتفـي أثنـاء عودتنا نحـو الفندق في سـيارة الأجرة مع أشـرف واسـتندت برأسـي على رأسـها، ابتعدت للحظة لكي أشـتم شـعرها الـذي بـدا لـي منعشًـا، فـي الوقـت ذاته كانـت يدي اليسـرى تتحسـس فخـذيَّ (آ) اللتيـن لا تـزالان تحافظـان علـى قوامهمـا خلف

سـروال جينـز أنهكـه الزمـن، فكـرت أنـه ربمـا نكـون نحـن جميعًـا معشـر الرجـال لدينـا امرأتـان، واحدة نمسـك بيدها والأخرى تسـكن رءوسـنا، القول بـأن الأمـر ذاتـه يسـري بالنسـبة النسـاء ليـس مـن ضمـن مهامـي أو آرائـي الصالحـة، كلنـا نعيـش فـي مكانيـن مثـل المصريين القدمـاء، مـن ناحية في الأرض والواقـع المحـدد والثقيـل مثـل الحجـارة، وفـي الجانـب الآخـر داخـل تصوراتنـا ورغباتنـا في تحقيق شـيء مسـتحيل لا نسـتطيع تسـميته، وربما لا يكـون لـه وجـود من الأسـاس، ولكننا ننجـو بفضل هذا الوهم، إن هناك شـيئًا مـا ينتظرنـا؛ إن كل شـيء لا يتعلـق بمـا يحدث فـورًا، إنه بعيـد ودائمًا يوجد وعـد بحيـاة مختلفـة ومكان آخر وأشـياء أخرى؛ أشـياء لا نعرفهـا، هذا هو ما ظننتـه يحـدث علـى الأقـل وأنا بيـن زوجتـيّ بعد زيـارة أروع مقابـر الأرض.

فن الخداع وانهياره

كان بومبيوس الكبير، الذي شكل مع كراسوس ويوليوس قيصر أضلاع الحكم الثلاثي الذي قاد روما قبل ميلاد المسيح بنصف قرن، رجلا دائمًا ما يحالفه التوفيق؛ عذب اللسان ويمتلك شخصية ساحرة تمكنه من إغراء النساء والسيناتورات والجيوش، ولكن غروره دفعه للإصرار على خوض معركة فرسالوس في البلقان، تعرض للهزيمة، على الرغم من أن قواته كانت أكبر من خصمه، حيث اخترق قيصر تحصيناته وأتم عملية إذلاله، كما قص لنا فلوطرخس[62]، هرب بعدها مع قلة من أتباعه ولكن قيصر لم يتوقف عن ملاحقته.

على الرغم من أنه كان لا يزال قادرًا على حشد جيش كبير، إلا أن العمى كان قد أصابه بالفعل، لم يعرف أين يختبئ، كان عليه الاختيار بين الشرق والغرب، ولكن الشرق كان به أسوأ أعداء روما، الفرثيون، أما الغرب فكان به قادة حزب روما الجمهوري الذي يتبعه ولكنه كان يخجل من المثول أمامهم عقب هزيمته، جاء بعدها الحل؛ طريق بين هذا وذاك؛ ليس الشرق أو الغرب، تلك الكلمة القاتلة: "مصر"، كان بطليموس الرابع عشر زوج وشقيق

62- مؤرخ وفيلسوف يوناني شهير ومن أهم أعماله "السير المقارنة لعظماء الرومان واليونان".

كليوباتـرا يوجـد فـي ميناء بيـن مصر وسـوريا يسـتعد للحـرب ضـد زوجتـه وشـقيقته وبعـث بومبيـوس الكبيـر لـه رسـولًا ليخبـره بأنـه داخـل إحـدى سـفن هـذا الأسـطول الصغيـر القابـع فـي الخليـج يوجـد واحـد مـن أكبـر قـادة رومـا طالبًـا ضيافتـه، اجتمـع بطليمـوس صاحـب الخمسـين عامـا مـع جنرالاتـه ومستشـاريه لاتخـاذ القرار، رفضت الأغلبية السـماح برسـو أسـطول بومبيـوس ولكـن أحـد الصوفييـن الإغريـق وكان أسـتاذًا في البلاغة والشـرور اقتـرح شـيئًا مختلفًـا، معاملـة الزائـر بشـكل جيـد واسـتقباله وتقديـم خدمة لقيصـر فـي الوقـت ذاتـه؛ بمعنـى آخـر التظاهـر بـأن بومبيـوس مرحـب بـه والسـماح بدخولـه ثـم اغتيالـه، وافـق المصريـون علـى الخطـة الكريهـة وقـرروا إرسـال قـارب صغيـر لجلبـه للشـاطئ، شـعر أصدقـاء بومبيـوس بـأن هـذا الاسـتقبال علـى متـن قـارب صغيـر يعـد غريبًـا بالنسـبة للـواء، بـل إمبراطـور، ولكـن الاسـتعدادات علـى البـر كانت تبـدو كتجهيزات لاسـتضافة ملكيـة، فالملـك وحاشـيته وجيشـه يتخـذون تشـكيلًا للترحيـب بـه، هبـط بومبيـوس للقـارب الصغيـر وتوجـه المجدفـون بـه نحـو الميـنـاء وهـو يراجع الخطـاب الـذي سـيلقيه أمـام بطليمـوس، أو بالأصـح ذلـك الخطـاب الـذي لـن يلقيـه أبـدًا؛ حيـث اخترق جسـد هـذا الرجـل، الـذي كان قبلهـا بعـدة شـهور واحـدًا مـن أقـوى القـادة علـى وجـه الأرض، سـيفا رومانييـن كانـا معـه علـى متـن القـارب الصغيـر بمجـرد وصولـه إلـى البـر، التف فـي ردائه ولفـظ أنفاسـه الأخيـرة لتشـهد زوجتـه مـن على متـن إحدى السـفن مصرع بومبيـوس الكبيـر، قطـع أتبـاع بطليموس رأسـه وتركـوا جثـة الإمبراطور على

الشـاطئ وحينمـا عُرضـت لاحقـا علـى قيصـر فـي الإسـكندرية أشـاح بوجهه مرتعبًـا بعدمـا رأى رأس غريمـه النبيـل الـذي قتـل غـدرًا بـدون أي معركـة.

هنـاك قصـة خيانـة شـهيرة أخرى فـي مصـر، أرض الخدع، يتعلـق الأمر هنا بمحمـد علـي، الفـلاح الأمّـي القـادم مـن ألبانيـا الـذي حـدّث مصـر بتنفيـذ خطـط نابليـون واحـدة تلـو الأخـرى وتخلـص مـن المماليـك الذيـن هيمنـوا علـى مقاليـد الحكـم فـي البـلاد طيلـة قرون عبـر خدعتيـن، وقعـت الخدعة الأولـى فـي 1805 حينمـا كان هناك نـزاع مع المماليك بخصـوص افتتاح قناة متفرعـة مـن النيـل، لأنهـم كانـوا يـرون أنـه لا يحـق له تـرأس الاحتفـال لأنه اختصـاص للسـلطة، لـذا أقـدم الأخير على القيـام بالأمر ليـلًا، دون أن يتمكن المماليـك مـن منعـه، لـذا نظمـوا لاحقـا احتجاجًـا ليفاجئهـم علي في شـارع ضيـق ويطلـق عليهـم النيران، هـرب الكثير مـن المماليك ولكـن الوقت أتاح لخمسـين منهم الاختباء في أحد المسـاجد، تحصنوا هناك حتى استسـلامهم بعـد أن جـاء لهـم وعـد بأنهـم سـيحتفظوا بحياتهـم واحترامها، ولكـن حينما سـلموا أنفسـهم فـي النهايـة تعرضـوا للتعذيـب والقتـل فـي حضـور "علـي" نفسـه ثـم أُرسـلت رءوسـهم المليئـة بالنشـارة إلـى القسـطنطينية لإظهار أن "علـي" هـو مـن يمتلـك السـلطة في مصـر، وليسـت طائفـة المماليك.

بعدهـا بسـت سـنوات عـاد المماليـك للوقـوع فـي المصيـدة؛ تلـك المصيـدة التـي شـكلت هزيمتهـم وتصفيتهـم النهائيـة، وقـع الأمـر

فـي الأول مـن مـارس 1811 بمناسـبة تجهيـزات إرسـال حملـة ضـد طائفـة مسـلمة فـي نجـد، اسـتدعى "علـي" زعمـاء المماليـك لاحتفاليـة ووليمة في القلعـة، مقـر حكمه، اسـتقبلهم صباحًا بحفاوة وضيافـة كبيرتين، كان الجميع متأنقيـن، يتحدثـون ويشـربون القهـوة كأفضـل الأصدقاء، لا يمكـن أن يصبح محمـد باشـا أكثـر ودًا مـن هـذا! نظـم موكبًـا بعـد الوليمـة حيـث كان يجب علـى الـكل السـير فـي صـف واحـد عبـر ممـر ضيـق خـارج القلعـة، سـارت قـوات الباشـا فـي الأمـام وحينمـا أصبـح كل المماليك داخـل الممـر، أُغلقت كل الأبـواب الموجـودة فـي الأمـام والخلف، إنهـا المصيدة المثالية، لا يتسـع الممـر سـوى لحصانيـن بالـكاد وسـقط المماليـك- الذيـن لـم يتمكنـوا- مـن الهـرب واحـدًا تلـو الأخـر بطلقـات جنـود الباشـا القادمـة مـن أعلـى لتتحول القلعـة إلـى مذبـح، تعـرض الكثيـر منهـم بعـد إصابتهـم للطعـن بالسـيوف الحدبـاء وقطع رءوسـهم لعرضها على سـنون الرماح، في ظـرف دقائق قصيرة قتـل 470 مـن المماليـك غـدرًا ضمـن هذه المذبحـة وفي الوقـت ذاته تلقى حـكام كل محافظـات مصـر أمـرًا باسـتخدام السـلاح مـع كل ممثلـي طائفـة المماليـك الأحيـاء، صـودرت كل ممتلكاتهـم وليـس لصالـح الدولة، بل رأسـها محمـد على باشـا نفسـه، أصبحت كل أرضـي مصر بعد تجريد المسـاجد من سـلطاتها ونـزع الشـيوخ من معاقلهم ملكية خاصة للباشـا العظيـم، كان هذا الفعـل البربـري الدمـوي، الـذي يشـبه قصص السـلاطين والحمـلات الصليبية المخيفـة فـي العصـور الوسـطى، بمثابـة تعميد بالـدم لولادة مصـر الحديثة.

تقـول كل الأدلـة السـياحية إنـه حينمـا تصـل إلـى مصـر فـإن أول نصيحـة دائمًـا هـي أن تجعـل الشـك رفيقـك الدائـم، ولكـن هـذه النصيحـة ظالمـة، لأنـه حاليًـا لا تتعـرض للقتـل إلا فـي حـالات نـادرة للغاية، هم فقـط يبحثون عـن أفضـل مكسـب مـن وراء المعامـلات التجاريـة، إنهـا خدع صغيـرة، مثل تلـك المـرة التـي توجـه فيهـا طفـل نحـو زوجتـي الثانيـة (ك) وطلـب منهـا بـكل بـراءة أن تسـديه خدمـة وهـي كتابـة: "عيـد ميـلاد مجيـد" بالإنجليزية فـي البطاقـة البريديـة التـي سـلمها لهـا، وافقـت زوجتـي بترحـاب ودعاهـا الطفـل للاسـتناد على مكتب اسـتقبال بأحـد المتاجر وأثنـاء كتابتها للكلمات أغلقـوا أبـواب المحـل وظهـر رجل مصري ضخـم ليطلب منها أن تسـدد ثمن البطاقـة البريديـة لأنها أفسـدتها، لـم تتجرأ زوجتي وهي تفكـر في المماليك وربمـا وجـود خنجـر مخفـي أسـفل ذلـك الجلبـاب علـى الاعتـراض أكثر من مرتيـن وانتهـى بهـا الأمـر وهـي تدفـع خمسـة جنيهـات، حينمـا علمـت أنـا بالخدعـة لاحقـا كان فكـري يتأرجـح بين التصـرف كبطل يسـعى وراء الثأر أو قبـول الأمـر كمصيـر لا يمكـن للسـائح تجنبـه في مصـر، كان الطريـق الثاني هـو خيـاري الـذي ربمـا أحبـط زوجتيَّ.

"خـاف مـن الغريـب"، هكـذا تقـول الحكمـة المصريـة فـي إشـارة بـكل تأكيـد لمـن كانـوا يمـرون بأراضيهـم أثنـاء توجههـم نحـو مكـة، لمـاذا يجـب الخـوف مـن الغريـب؟ ربمـا لأنه يمـر ولا يعـود، فيدرك أنـه قـادر علـى تـرك حسـابات دون تصفيتهـا؛ أو لأنـه يعلـم أنـه لـو ارتكـب خطـأ فلـن يدفع ثمنـه، أو إن صـح القول لأن الغريـب بسـبب

رؤيتـه للكثيـر من الأمور كان لديه الوقت الكافي لنسـيان الطبيعة الإنسـانية، كل الأماكـن بهـا لصوص ومنافقـون ومصطنعو الود الزائـف ومحترفو الضحك علـى الذقـون، الغريـب فقد هواجسـه وأحكامه المسـبقة وربمـا أيضًا عقله، هنـاك نـوع آخـر مـن الغرباء وهو الأسـوأ، هو مجـرد طائر يمر؛ إنه المسـافر أو بالأصح السـائح.

يجـب ألا تثـق فيـه هـو الآخـر أو مـن الأفضـل أن تسـتخلص أكبـر فائـدة منـه فـي أقـل وقت ممكـن لأنه أيضًا لـن يعود، يتعرض السـائح فـي القاهرة لنتـف ريشـه وإذا لـم يـأت مسـتعدًا، فإنـه خـلال الأيـام الثلاثة التـي يقضيها هنـا لـن يتعلـم شـيئًا، يحصـل سـائقو الأجـرة منـه علـى عشـرات وربمـا عشـرينات الأضعـاف ممـا يتقاضونـه مـن القاهرييـن، يطلـب منـه التجـار خمسـة أضعاف سـعر الأشـياء، أمـا الفصال الـذي ينصح به المرشـدون يجعل الأسـعار تبـدأ فـي الأسـاس مـن قيمـة مرتفعـة، ولكـن لا يجب أن يصـل الأمر لابتـكار حكمـة معارضـة "خـاف مـن المصرييـن يـا غريـب"، لا، هـذا ليـس صحيحًـا، هنـا بشـكل كبيـر لا وجود للسـرقة خفيـة أو بالإكـراه وبالتالي أيضًا القتـل، صحيـح أنـه وقعـت بعـض الأحـداث الفظيعة فـي الأقصـر والمتحف المصري بسـقوط عشـرات السـائحين قتلـى على يد متعصبـي الإيمان، ولكن هـذا الأرقـام مقارنـة بملاييـن السـائحين الـذي يمرون مـن هنا كل عـام تعد ضئيلـة للغاية، هل ستسـتمر الأمـور على المنوال ذاته؟ احتفظت المؤشـرات المنخفضـة للغايـة بخصـوص عـدم الاسـتقرار الأمنـي بمعدلاتهـا جزئيًا بفضل تطبيـق عقوبـات قاسـية وربما أيضًا بسـبب نـوع من التدين المحـدد للغاية،

ولكـن إذا مـا انفـك العقـد الاجتماعـي فـي مصـر فـإن أحـدًا لـن يتمكـن من وضـع قدمـه هنـا، فـي أماكـن أخـرى كانت الــ16 مليون نسـمة التي تسـكن القاهـرة والفقـر المستشـري بين سـكانها ليصبـح تربة خصبة لإنتـاج كوارث، ولكـن هنـا علـى الرغـم من هـذا تمكنـوا هنا من تحقيـق أعجوبـة صنع نوع مـن المعيشـة الهادئـة رغمًـا عـن أنـف التكـدس، فـي كل مـرة سـرت بيـن الشـوارع وامتعضـت فيهـا مـن الضجيـج والتراب والروائـح السـيئة والقمامة، كان علـيّ تذكيـر نفسـي بأنـه هنا علـى عكس ما يحدث في بـلادي لا يقتلون بعضهـم بعضًـا؛ هنـا لا يقتلونـك مـن أجـل سـرقة محفظتـك ولا يطعنونـك لكـي تنـزع حـذاءك أو سـاعتك، فـي كل مرة سـرت فيهـا احتفظـت دائمًا في رأسـي بأحـد تعاليـم مصـر القديمـة التـي ظهـرت فـي تلـك الوثيقة الشـهيرة المعروفـة بـ(برديـة أنسـينجر) والتـي تقول: "الأجنبي عبد لشـخص ما في أي مـكان، يثيـر غضـب الجمـوع دون فعـل شـيء ودائمًـا مـا يوجد أحـد يمارس شـروره ضـده دون أن يرتكـب أي سـوء"، انطلاقًـا مـن تفكيـري فـي هـذه الوصيـة القديمـة، حاولـتُ دائمًـا تجنـب أي تصـرف قـد يقربني مـن كراهية أبنـاء هـذا البلـد، وكانت المسـاجد أكثر الأماكن التي خشـيت فيهـا إهانتهم.

المساجد

كم عدد المساجد والمدارس القرآنية ومقابر الأولياء التي زرناها؟ لم أعد قادرًا على الإحصاء منذ عدة أيام، بعدما أصبحت كل جواربي مدبوغة من كثرة الخطوات التي سرتها بقدميَّ فوق السجاجيد المتربة، مسألة خلع الأحذية قبل الدخول (في المنازل اليابانية والصينية وكل المساجد) ليست أمرًا ساريًا في بلادي التي تعد ضاحية للغرب، الأكثر أهمية بالنسبة لنا هو الحفاظ على نظافة أقدامنا (محمية بالأحذية والجوارب) وليس الإبقاء على المنزل نظيفًا، يقول البعض إن مسألة الدخول حافيًا تعد إشارة للخنوع أكثر من كون الأمر يتعلق بالنظافة، لكن ربما يكون الأمر يتعلق بعادة السجاجيد الشرقية ورمال وقذارة مدن العصور الوسطى، إذا ما وصلت عبر شارع مليء بروث الأحصنة والماشية ومياه الصرف والقمامة والفواكه المتحللة، فإن ما يلتصق بحذائك سيكون مقززًا، أما الرائحة التي قد تتركها على السجاد فستكون غير قابلة للإزالة، سيكون الأمر أقل خطورة، إذا ما كانت أرضية بيت العبادة من الرخام أو البلاط كما يحدث معنا لأن هذه يمكن غسلها، نحن الأكثر أنانية نقلق بخصوص التراب القليل الذي قد يتراكم في باطن أقدامنا، أما هم فأكثر تطلعًا وتضامنًا، لذا يقلقون بخصوص اتساخ مكان تجمعهم، أو بالأصح نظافة بيت الرب.

تغيـرت الأمـور كثيـرًا، لم يعـد من يصل للمسـاجد هم المسـافرون الغرباء القادمـون مـن الصحـراء أو رعاة الجمـال والماعز، لا، من يصل للمسـاجد هنا يأتـي قادمًـا فـي حافلـة أو شـاحنة أو سـيارة أجـرة أو المتـرو، غالبًـا ما يفعل هـذا الأمـر بحـذاء رياضـي وليـس صنـدل التمشـية، كلهـا أمـور لهـا صريرهـا بشـكل يجعـل الأمـر يبـدو سـيئًا، هنـاك عُطَـل تمـاس بيـن الإسـلام والغـرب أو بيـن الغـرب وكل الديانـات التـي تُؤخـذ علـى محمـل الجـد، لأن الغـرب هـو المـكان الـذي يضعـف فيـه الديـن، هـذا الخليـط بيـن مكونات الإسـلام ومكونـات الغـرب الـذي يميـز القاهـرة يخلـق نوعًـا مـن التداخـل الدائم، لا تنتصـر الحداثـة ولا يتمكـن الماضـي أيضًـا مـن فـرض نفسـه ليكـون الناتـج نوعًـا صعبًـا مـن التعايـش لا يستسـلم فيـه أي منهمـا بسـهولة، طالما سـارت الأمـور بـدون عنـف فـإن هـذا الخليـط العقيـم سـيتمكن مـن النجـاة، ولكن الصعوبـات قـد تنجـم عنهـا أحـداث كبرى.

زرنـا مسـجد الحاكـم؛ ذلـك الخليفـة المجنـون[63]، نزعنـا أحذيتنا بخشـوع وسـرنا أيضًـا بخشـوع فـوق بعـض فضـلات الحمـام، علـى الرغـم من الأسـوار مصانة بشكل جيد، إلا أن الجامع لا ينطبق عليه الأمر ذاته أو يمكن القول إن الاعتنـاء بـه ليس على القـدر المطلوب، وهو الأمر الـذي لا يحدث مع الكثير من المساجد هنا، توجد قمامة في بعض الأركان وحصائر بدلا من السجاجيد الضخمـة، ربمـا يكـون السـبب وراء هذا الإهمال هو سـمعة الجنـون الخاصة

63- يقصد الكاتب الحاكم بأمر الله.

بالحاكم، تكريمًا لذكراه قبلت زوجتيّ اللتان شعرتا بنوع من الاشمئزاز في باطن قدميهما، بعدها اتخذت وضع القبلة نحو مكة وسجدت ولامست جبهتي الحصيرة، إذا ما كان البابا يقدم اليوم على الصلاة في المساجد ويشير في حديثه إلى محمد الذي لا يؤمن به، فلماذا لا يمكنني القيام بهذا الأمر؟ صليت، صليت بدون أي فائدة ولكن لم أطلب شيئًا أو أعرض شيء أو أحتج على شيء، صليت مثل الببغاوات التي تردد ببراءة الكلمات المخجلة التي نُعلمها لها، هذا الفعل الكافر؛ تظاهري بأنني مؤمن في أرض غير المؤمنين (أو العكس) يذكرني بصعوبة التعايش في الأرض ذاتها بين ديانتين، حالة اليهود في مصر هي الأكثر شهرة.

وفقًا للكتاب المقدس وفي سِفر الخروج فإن الرب أرسل على مصر عشرة أوبئة لأن فرعون لم يسمح لبني إسرائيل بترك أراضيهم التي كانوا يعيشون فيها كالعبيد، كان الوباء الأول هو الأكثر أثرًا، لمس هارون بعصاه مياه النيل فتحولت كل مياه مصر إلى دم؛ ليس فقط النهر بل الآبار والقنوات والخزانات، نفقت الأسماك ولم يكن لدى الناس أي شيء ليشربوه ولكن الفرعون لم يتأثر، كانت الضفادع هي الوباء الثاني حيث خرجت من المياه وغزت الأراضي بوثبها، أما الثالث فكان البعوض، "كل تراب الأرض صار بعوضًا في جميع أرض مصر"، أما الوباء الرابع فكان الذباب الذي غزا فقط أرض المصريين دون بيوت اليهود، "فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده وفي كل ارض مصر خربت الأرض من الذبان"، لم يسمح فرعون لليهود بتقديم

أضاحيهـم للـرب فجـاء خامـس الأوبئـة الـذي ضـرب البهائـم "فماتـت جميع مواشـي المصرييـن (الجيـاد والحمير والجمـال والعجـول والماعـز) وأمـا مواشـي بنـي إسـرائيل فلم يمـت منها واحـد"، الضربة السادسـة كانت البثور وحتـى سـحرة فرعـون لـم ينجـو منهـا ولكن قلـب الأخير ظـل متحجـرًا، ربما كانـت الضربـة السـابعة هـي الأكثـر غرابـة علـى منـاخ مصـر، الرعـد والبرد؛ ذلـك الثلـج الكثيـف الـذي كان يقتـل أيًا من يلحـق به على الأرض سـواء كان رجـلًا أو إنسـانًا، لأن "الـرب أمطر بردًا عظيمًا على أرض مصر" وفسـد عشـب الأرض ودمـرت كل الأشـجار، كان الوبـاء الثامـن أكثـر شـيوعًا وهـو الجـراد الـذي وصـل "ليمـلأ بيوتـك وبيـوت جميـع عبيدك وبيـوت جميـع المصريين الأمـر الـذي لـم يـره آبـاؤك ولا آبـاء آبائـك منذ يـوم وجـدوا علـى الأرض إلى هـذا اليـوم"، الضربـة التاسـعة كانـت الأكثـر سـوادًا، الظـلام و"لـم يبصر أحد أخـاه ولا قـام أحـد مـن مكانـه ثلاثـة أيـام ولكـن جميـع بنـي إسـرائيل كان لهـم نـور فـي مسـاكنهم"، ولكـن الفرعـون لـم يطلقهـم حتى جـاءت الضربة العاشـرة التـي أفضـت إلى مـوت الأبكار، "فيموت كل بكـر في أرض مصر من بكـر فرعـون الجالـس على كرسيه إلـى بكر الجاريـة التي خلـف الرحى وكل بكـر بهيمـة"، رفـض فرعـون فـي البداية الاستسـلام أمام هـذا التهديـد ولكنه تحقـق بالفعـل "لأنـه لـم يكن بيـت ليس فيـه ميت"، فـي النهايـة ومع هذه الضربـة الأخيـرة أطلـق فرعـون بني إسـرائيل[64]

64- كل ما هو موجود بين علامتي تنصيص في هذه الفقرة هي آيات أو أجزاء من آيات من سفر الخروج.

لـم تؤثـر الضربـات العشـر التوراتيـة فقـط علـى مصـر، كان هنـاك وبـاء خطيـر للغايـة ذكرتـه كتـب التاريـخ ولـم يكـن مكتوبًـا فـي صيغة أسـطورة؛ إنـه الطاعـون الأسـود الـذي وصـل للقاهـرة في خريـف عـام 1348، جاء هذا الطاعـون مـن الصين ومر بآسـيا الصغرى وسـوريا والمتوسـط، كان وباءً قاتلًا، ولكنـه أقـل عنصريـة مـن الضربات المذكورة فـي الكتاب المقـدس وأثر أيضًا علـى أوروبـا والمسـيحيين لنفـس عدد السـنين، الأمـر الوحيد الذي تتشـارك فيـه الأوبئـة الحقيقيـة أنهـا قائمـة علـى أسـاس المسـاواة، ومثـل رقصـات المـوت المرعبـة في لوحـات هيرونيموس بـوش فإنها تقتل الأثريـاء والفقراء والبابـاوات والأباطـرة والفلاحين والعبيد والبوذييـن والمحمديين والملحدين واليهـود والمسـيحيين، لـم يصـل الطاعـون الأسـود فـي القاهـرة خلال شـتاء هـذا العـام إلـى أقصـى معدلاتـه ولكن مـع ارتفاع الحـرارة في الربيـع، وصل أسـوأ أوبئـة "مصـر العصـور الوسـطى" لذروتـه فـي حصـد الأرواح، كانـت الجثـث تنتشـر فـي الشـوارع لأنـه لـم يكـن هنـاك وقـت كاف لدفنهـا، حتى فـي المقابـر الجماعيـة، كانـت أكثـر شـوارع القاهـرة ازدحامًـا خاويـة، ومـن أصـل تعـداد يقـارب 400 ألـف نسـمة توفـي نصفهـم، فيمـا هـرب أكثـر من مئـة ألـف للريـف أو توفـوا عقـب المجاعـات التـي أعقبـت الوبـاء العظيـم، تحولـت القاهـرة لمدينـة أشـباح مليئـة بالبيـوت والمنـازل الفارغـة التـي لا يقطنهـا أحـد، ضريبـة العشـور طُبقـت هنـا حرفيًا؛ فمن كل عشـرة أشـخاص توفـي واحد.

يحـدث أحيانًـا أن المآسـي الكبـرى تقـع بالنفـع علـى البعـض

بـل وحتـى علـى شـخص بمفـرده، لذا فـإن فتـى أصهـب لا يتجاوز عمـره 12 عامًـا أصبـح سـلطانًا حينمـا انتهـى الوبـاء الأسـود وكل ممتلـكات مـن رحلـوا دون وجـود ورثـة (لأنهـم أيضًـا قضـوا) ومنـازل وأراضـي مـن هربـوا وكل الأصـول العقاريـة وغيـر العقاريـة للأثريـاء؛ مجوهراتهـم وذهبهـم وعملاتهم أصبحـت ملـكًا للفتـى حسـن. بنـاء علـى التربيـة العقائديـة لمستشـاريه الدينييـن، توصـل السـلطان الشـاب إلـى أن الطاعـون، مثـل كل الأوبئـة، كان عقابًـا مـن السـماء علـى خطايـا البشـر التـي لا تنتهـي، ولكـي لا يتكـرر هذا الأمـر ولاسـتخدام الثـروات الرهيبـة التـي وقعـت بين أيديـه قرر إنشـاء أكثر مسـاجد القاهـرة إبهـارًا؛ بناء هائل لدرجـة جعلته يظن أن العلـي حينما يراه سـيخفف من غضبه، مسـجد ومدرسـة السـلطان حسـن التي جرى العمل في تشـييدها مـا يقـرب مـن عقـد من الزمـان والـذي كان مجهـزًا أيضًـا لاحتضان جثمـان مؤسسـه المملوكـي؛ ذلـك السـلطان الشـاب الـذي جلـب أفضـل مهندسـي العمـارة والحرفييـن مـن إسـبانيا المسـلمة ليختلـط ذلـك العربي-الأندلسـي مـع أكثر العـادات قدمًا هنا ويكـون الناتج أجمل مـدارس القاهرة القرآنيـة، أسـقف دائريـة مرتفعـة وأعمـدة هابطـة طويلة ومـآذن مبتكرة لم تُـر مـن قبـل وأبـواب ضخمـة تحمَّـل خشـبها كبيـر المقـاس مـرور القـرون، وسـاحة للوضـوء ذات طلـة غايـة فـي الجمـال لدرجـة قـد تُميـت الاشـتياق للفـردوس نفسـه، وتصميمـات أسـتاذية فـي الأسـقف والأعمـدة الدائريـة، عمـل فنـي دينـي لكـي يخفـف اللـه مـن غضبـه وليحتضـن جسـد السـلطان بعـد مماتـه، لـم تكتمـل خطـط حسـن بحذافيرها حيـث إن مدفنـه الجميل

ظلّ فارغًا مثل بعض توابيت الفراعنة، لم يضم رفاته، لأنه في عمر السادسة والعشرين، وكما جرت العادة بين المماليك أقدمت فصيلةٌ معارضه على قتله، ومُزِقت جثته إلى أجزاء وألقيت في الصحراء والجبال ولم يعثر أبدًا على بقاياها، ما بقي هو مسجده الكبير الذي وُلد بعد الطاعون ومن الخيال؛ ذلك الأثر العظيم الذي نتأمله اليوم بفضل الأوبئة.

مظاهر الإيمان

الهـراء الـذي يُفـرض به الإيمان متطابـق في كل أنحاء العالـم، واعظو التلفاز الأمريكيـون، وواعظـو الإذاعـات الكولومبيـون وميكروفونـات القاهـرة وشـيوخ التلفـاز فـي مصـر. يسـتخدم أصحـاب الحضـور والهيبـة فـي بيـوت العبـادة والأئمـة فـي المسـاجد التكنيـك ذاتـه، التكـرار العاطفـي- وليـس المقنـع- للعبـارات ذاتهـا، مـن المعـروف أن الابتهـال القائـم علـى اسـتخدام الأسـلوب البلاغـي القديـم الـذي يرتكـز على الجنـاس (بدء أو إنهـاء كل جملـة بالكلمة- أو الكلمـات- ذاتهـا) ينتِـج تأثيـرًا مُسـكرًا لمسـتمعيه، يجـب تكـرار الأمـر وقتًا كافيًـا، حبـذا لـو أُلـزم المؤمنـون بتنفيـذ حركـة إيقاعيـة مـا، الرقـص والصـوت مثـل المخـدرات يولـدان شـعورا بهجر النفـس والراحة، دندنة الملاهــي الليلية والواعظيـن همـا الشـيء ذاته.

تكـرار لفـظ اللـه آلاف وآلاف المـرات يرفعنا إلى نوع من فقـدان الوعي الذي يمكـن تعريفـه كعمليـة انتقـال أو تواصـل مباشـر مع الـرب؛ مع القـوة الخالقة؛ مـع الواحـد الـذي يرغـب الجميـع فـي التواصـل معـه، يلتقـي بعـض الجماعات الصوفيـة التـي يكثر أتباعها فـي القاهرة أحيانًا من أجل (جلسـات الذكر)، والتي ترتكـز تحديـدًا علـى تكرار لفظ الله بصـورة إيقاعية لا تتوقـف، "خرف صوفي"، هكـذا يصـف أندريـس أولجيـن هـذه المسـاعي التي يقوم بهـا أحفـاد الفراعنة، يبـدو لـي أيضًـا أن برامج البث الدينية طوال الـ24 سـاعة أثنـاء رمضان يعد نوعًا

مـن الخـرف الصوفي، ولكـن علينا ألا نعتقد أن المسـلمين وحدهم هم أصحاب هـذا الخـرف، الأمـر أشـبه بوصـول البابـا لكاتدرائيـة جوادالوبـي في المكسـيك، أو صـلاة الألـف يسـوع فـي عيـد الصليـب بكولومبيـا[65]، نحـن جميعًـا مجانيـن حينمـا يحلـم العقل.

مـن كل الكلمـات التـي ورثناهـا مـن العربية ربمـا تُعـد (Ojalá) هي الأكثر اسـتخدامًا، وبعـد قضائـي عـدة أيـام هنا أصبح هـذا الأمر مفهومًا بسـبب كثرة اسـتخدام المسـلمين لعبـارة "إن شـاء اللـه"، بـات هـذا الإرث مفهومًـا بسـبب الإفـراط فـي اسـتخدام هـذا الاسـم المقـدس، يفسـر هـذا الأمـر شـيئًا آخر من ضمـن الخصائـص المحليـة، لوحـة الآلات الكاتبـة بالعربيـة بهـا زر مخصـص لكلمـة اللـه وآخـر لمحمـد، يتعلـق جانـب كبيـر مـن الأدب وكل مـا يُكتـب بالديـن أو بضـرورة الإشـارة إليـه، لهـذا يتكـرر دائمًا اسـما الرب والنبـي لدرجة أدت لتخصيـص زر لـكل منهمـا.[66]

إذا بُعـث إراسـموس روتـردام[67] (الـذي انتقـد بقسـوة فـي عصـر النهضـة الإيمـان الظاهـري والنفـاق المتمثـل فـي اهتمـام الكثيريـن بإظهـار تصرفاتهـم الرحيمـة علـى المـلأ قبـل أن يكونـوا صالحيـن

65- احتفالية دينية تقام في كولومبيا في الثالث من مايو كل عام ويردد فيها المؤمنون الممارسون اسم يسوع ألف مرة ظنًا منهم أن هذا الأمر سيقيهم من أي شرور محتمل في العالم المقبل فيما يعرف باسم "صلاة الألف يسوع".

66- حاولت التأكد من مدى صحة المعلومة ولكن كل ما توصلت إليه أن بعض نماذج الآلات الكاتبة القديمة بالعربية كانت تحتوي على زر لكتابة "صلى الله عليه وسلم" وآخر لـ"سبحان الله".

67- فيلسوف هولندي ومن رواد الحركة الإنسانية كان لديه اهتمام كبير بمسألة التعليم ولهذا توجد في أوروبا مجموعة من برامج المنح الدراسية في شتى المجالات باسمه.

فـي الأسـاس) للحيـاة في القاهـرة فإنه سيسـتأنف بـكل تأكيد كتابـة انتقاداته حـول التباهـي بالأفعـال الرحيمة، مشـاهدة الجنود الذين يحرسـون الكثير من المواقـع السـياحية فـي مصـر وهـم يحملـون فـي يـد هـراوة سـوداء صغيـرة، بينمـا تتدلـى مـن الأخـرى مسـبحة إسـلامية ملونـة يعـد أمـرًا مثيـرًا للتعجب، وحتـى نحـن الذيـن اعتدنـا علـى رؤيـة قتلـة يرتـدون الكتفيـات[68] وشـفيعة للقتلـة المأجوريـن [69] يبـدو لنـا هـذا الخليـط مـن العنـف والأسـلحة الناريـة والديـن فظًـا بصـورة كبيرة.

مظاهـر الإيمـان لا يمكـن أن تصبـح أكثـر وضوحًـا ممـا سـأقوله، فـي البدايـة حينمـا وصلـت للقاهـرة كنـت أظـن أن هناك عنصـرًا جينيًّـا يُوَرَّث للذكـور يجعل هنـاك بقعـة (حسـنا سـأقول وحمـة قاتمـة) موجـودة فـي جبهتهـم، ولكـن بعـد ملاحظتـي للأمـر بصـورة أفضـل أدركـت أنهـا مسـمار لحمـي؛ أشـبه بكوع أسـود صغيـر فـي المـكان الـذي كانـت توجـد بـه عيـن سـيكلوب أوديسـوس، ذلـك القـرن الـذي ينمـو فـي منتصـف الجبهـة (أحيانًـا فـي مقدمـة الأنـف أو مـا بيـن الحاجبيـن) هـو بـكل بسـاطة تأثيـر الاحتـكاك مـع السـجاجيد في وقـت الصلاة،

68- رداء كنسي.

69- يتعلق الأمر هنا بما يعرف في المسيحية بالتعبد المريمي (Marian Devotion) الذي يكون موجهًا لشخص مريم العذراء ويرتبط غالبًا بخصوص تجليها المفترض في مكان ما، بالنسبة لصلة هذا الأمر مع القتلة المأجورين وتجار المخدرات في كولومبيا، فإن السر الذي يدور حوله الموضوع هو تدين جانب كبير من المجتمع الكولومبي بما فيهم الخارجين عن القانون الذين يعتبرون أن العذراء أو قديسين معينين سيشفعون لهم عن آثامهم، لذا يعملون على تبجيلهم والصلاة لهم وزيارة كنائس وأديرة مخصص لهم، يصل الأمر داخل هذا الخليط بين الدين والجريمة إلى أبعاد أخرى، مثل رفع تاجر المخدرات الشهير بابلو إسكوبار من قبل البعض إلى درجة القديسين عقب مقتله.

يسـمونها بالعربيـة "زبيبة"، يقص ماكس رودنبيك[70] أن الكثير من السياسـيين المصرييـن قبـل ظهورهـم أمـام العامـة يزرعـون هـذه الزبيبـة، لكـي يظهـروا لهـذا الجمهـور أنّهم مسـلمون صالحون.

البقشيش

يخبرك كل المسافرين وأغلب الأدلة السياحية، عبر ممارسة "وظيفة النسخ القديمة المعروفة بالتزوير الأدبي" (كما يقول خوان جيوتيسولو)، بأنه في القاهرة يكفي أن يحيوك بـ: "صباح الخير" لكي يطلبوا بعدها منك هدية أو إحسانًا أو إكرامية؛ بمعنى آخر، البقشيش، يقص مارك توين أنه لكي لا يتعرض للدفع بقوة أثناء صعوده لقمة الأهرام ولكي لا تنخلع ذراعاه من عملية السحب القوية فإنه كان يدفع البقشيش لمساعديه المصريين في بعض الدرجات. أغلبية الشباب المبتسمين الذين سيقتربون منك في الشارع وينضمون لطريقك عقب سلسلة من الأسئلة اللطيفة سيسعون هم أيضًا وراء الإكرامية لأي سبب بسيط مثل إشارة بالإصبع نحو مكان القلعة، أو المتحف القبطي، لهذا كان من المدهش للغاية بالنسبة لي وأنا حديث العهد بالقاهرة أن يعطوني حسنة بدلا من طلبها مني.

كنا دخلنا في صباح يوم الجمعة، المقدس بالنسبة للمسلمين، إلى مسجد صغير بشارع الصليبة، لماذا دخلنا هناك؟ لأن إطار الباب الرئيسي كان عبارة عن عمود مصري ممتد أفقيًا عليه كتابة بالهيروغليفية، كما حدث في روما حيث شُيد الكثير من الكنائس الكاثوليكية باستخدام بقايا المعابد الوثنية، فهنا نهب الكثير

من المساجد أحجار معابد مصر القديمة من أجل مبانيها، تركنا الأحذية في أماكن لحفظها بالمدخل وتوجهنا لتأمل المحراب، أي ذلك المكان الرئيسي الذي يحدد اتجاه القبلة نحو مكة.

كانت هناك مجموعة من عشرين أو ثلاثين امرأة يجلسن على شكل دائرة، كن يتحدثن بصوت منخفض في أحد أطراف القاعة الرئيسية للمسجد ثم اقترب رجل مؤمن مسلم عجوز حافي القدمين- يرتدي بذلة ورابطة عنق على الطريقة الغربية- منهن وأخرج رزمة من الأوراق المالية الخضراء الجديدة، كل واحدة منها بقيمة خمسين قرشًا أي نصف جنيه مصري، مدت النساء أيديهن له وحصلن سعيدات على الحسنة، ما زلن يتراءين لي الآن وهن يقبلن الأوراق ويخبئونها بين طيات ملابسهن الواسعة قبل أن يقمن بمد أيديهن مجددًا ليحصلن على المزيد، لم يكن الرجل العجوز يتابع من اللاتي تأخذن النقود مجددًا، كان بكل بساطة يوزع الأوراق على كل الأيادي الممتدة، بحث بعينيه بعدها على المزيد من المؤمنين في المسجد حتى رآنا في النهاية ونحن نتابعه بأعيننا، تقدم نحونا ممسكًا برزمة الأوراق النقدية في يده، حاولنا في البداية رفض هذه الحسنة، ولكن وجهه كان جادًا وملامحه يبدو عليها الإصرار، حصلنا على هذا "البقشيش" وقررنا الاحتفاظ به كتميمة، رمضان أيضًا هو شهر الإحسان وهذا الرجل الطيب كان ينفذ وصايا النبي، لم يكن ما حصلنا عليه في الحقيقة "بقشيشًا"، كما شرح لنا سليم لاحقا، بل "زكاة"، يقول سليم بنبرة تحمل شيئًا من السخرية "الفقراء لديهم الحق في

الحصـول علـى شـيء مـا ممـن يمتلكـون الكثير".

بعدهـا بعـدة أيـام فقـدت (أ) سـوارًا فـي المقعـد الخلفـي لسـيارة أجـرة، كانـت قـد ابتاعتـه بـكل سـعادة مـن شـارع الفضيـات بسـوق خـان الخليلي وتسـبب ضياعـه فـي تغيير حالتهـا المزاجية، لهـذا وكمحاولة مني لمواسـاتها ذكـرت لهـا أحـد تعاليـم محمـد، أن كل مـا تفقـده أو يسـرق منـك يحسـب لـك كصدقـة وبهـذه الفكـرة واسـت نفسـها، تبدو لـي أطروحـة النبـي نافعة لكـي لا تأسـف بشـدة علـى السـرقات، لأن كولومبيـا تتعـرض فيهـا للسـرقة فـي أغلـب الأوقـات، لـن نتعـذب كثيـرًا، السـرقة هي صدقـة للفقـراء، ولكن الأفضـل أن نذكـر حديـث محمـد كامـلا، "ما من مسـلم يغرس غرسًـا، إلا كان مـا أكل منـه لـه صدقـة ومـا سـرق منه لـه صدقـة".[71]

71- الحديث بالكامل من صحيح مسلم، باب المساقاة، فصل الغرس والزرع: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة".

الجِمَال

يقول فلوبير، "الجمل واحد من ألطف الأشياء، أنا لا أمل من مراقبة هذا الحيوان الغريب، يسير مثل الحبش ويهز عنقه مثل البجعة، يصدر صراخًا قد أموت لمحاكاته، أتمنى أن أتعلمه ولكنه أمر يصعب تحقيقه بسبب تلك القرقرة التي تهتز في خلفية صوت الشخير الذي يصدره"، إذا ما كان هناك حيوان راعيًا للمسافرين أو قديسًا حاميًا لهم ويجب أن نتخذ حركته كمصدر لإلهامنا فيجب أن يكون الجمل. الدروموميميا هو مصطلح يطلق على هوس الترحال أو تلك الحالة التي لا يقدر فيها بعض الأشخاص على البقاء في مكان واحد لفترة طويلة، هذه التسمية، التي تُذكر بكلمة (dromedario)[72]، جاءت في مكانها الصحيح، لأنه لا يوجد مسافرون أكثر قوة وصبرًا من الجِمال.

قمنا بجولة في سوق الجِمال بإمبابة للتعرف عليها عن قرب، صاحبنا اثنان من أعز أصدقائنا الكولومبيين؛ ليلي وماوريسيو، كان مجيئهما أشبه بنسمة مفاجئة؛ تلك السعادة التي تصحب أيام الوصول الأولى كانت مزينة بالشمبانيا والويسكي والحماس، لاحظت تجدد معنويات زوجتيَّ الاثنتين بعد وصول ليلي

72- كلمة إسبانية تعني: الجمل وحيد السنام.

وماوريسـيو، اللذيـن سـيقضيان معنـا أيامًـا قليلـة، أصبحتا تتحدثـان أكثر من ذي قبـل بـل وربمـا أكثـر مـن المطلـوب بفضـل تلـك النشـوة التـي تصيـب أبنـاء البلـد الواحـد حينمـا يتقابلـون فـي بلـد آخـر بعيـد وغريـب ليتمكنـوا فـي النهايـة مـن الحديـث بلغتهم، إنهمـا تحبان الثرثـرة كطفلتيـن صغيرتين، كانـت قـد مـرت علينـا عدة أسـابيع ونحـن نتحدث الإنجليزية بشـكل سـيئ، لـذا أصبحـت قدرتنـا على السـباحة بحريـة في بحر الإسـبانية بمثابة سـعادة كبـرى، بخـلاف هـذا، دائمًـا ما يصـل القادمـون الجـدد بحيوية جديـدة وهو أمـر مُعـدٍ، بـدت الأمـور سـاحرةً ومضيئـةً بصـورة أكبـر بالنسـبة لنـا، هـل السـبب هـو النبيـذ الذي جلبـاه؟ لا! هما النبيذ نفسـه بعينيهما المنتعشـتين وفرحتهمـا ولكنتهمـا، ربمـا كان إرهـاق السـفر لعدة أسـابيع متراكمـة حينها قـد أخـذ يضربنـا دون أن نـدرك في ظـل روتين الجمـل المتكررة بيـن ثلاثتنا (نحـن جميعًـا ينفـد منـا مخـزون الكلمـات)، أخيـرًا بدأنـا فـي الحديـث عن أشـياء أخـرى، وأصبـح تغييـر الموضوع والمحـاور ممكنًا، بينما لفـت الزائران نظرنـا لأشـياء لـم نكـن نلحظهـا، (آ) و(ك) تبدوان أكثر شـبابًا في هـذا اللقاء (كانـت "آ" تتحـاور مـع ليلـي و"ك" مـع ماوريسـيو)، تتحدثـان وتصرخـان لدرجـة أننـي شـعرت بالوحـدة وأنـا أشـاهد الجِمال.

كان أول الجِمـال التـي شـاهدناها مقتـولا وملقـىً علـى جانـب الطريـق فـي مقلـب نفايـات مرتجـل علـى هيئـة تـل مـن القـذارة، كان الكثيـر مـن هـذه الجِمـال، التـي انتفـخ بعضها فيمـا أصبح الآخر بالفعـل عبـارة عـن عظـم وجلـد ومومياوات فارغـة، مقطـوع الرأس

كأن تلـك الـرءوس كانـت تُعـرض فـي مـكان آخـر بغـرض الإهانـة العامـة، كنـت أفكـر فـي مـا حـدث للمماليـك ولكـن، الإهانـة العامـة لمـن؟ يفتـرض أن الإهانـة العامـة كانـت دائمًـا مـن نصيب الموتـى، ولكن من يسـتحق حقًّا الإهانـة العامـة هـم دائمًـا الجـلادون، في تلـك اللحظـة بالضبط، مـرت ثاني مجموعـة نراهـا مـن الجمـال بصحبة جلاديهـا، كانت لا تزال علـى قيد الحياة ولكـن الجزاريـن الذيـن ابتاعوهـا سـيذهبون بها نحـو المذبح، مـرت الجمال مـن أمامنـا على متن شـاحنة وهي تشـعر بالاسـتياء والذعر مـن حركة النقل، ولكـن هـذا كان مجرد تخمين، فنحن البشـر ليس لدينا مستشـعرات لتفسـير إشـارات ولغـة وجـوه الحيوانـات، إذا كانـت تمتلكهـا بالفعـل، مـرت الجمال بوجوههـا القاتمـة والتـي لا يمكـن أن نفسـرها فـي رحلـة سـتنتهي بتحولهم للحـم رخيـص لأفقـر أبناء القاهرة الذين يسـعون لإضافة شـيء مـن البروتين لنظامهـم الغذائـي التقليـدي الـذي يكثـر فيـه الخبـز والبصل، سـيمرر الجزار سـكينه علـى رقابهـا وهـو يتلـو كلمـات مـن القـرآن بخصـوص التضحيـة بها، لحـم الجمـل ذو الطعـم الحـاد الذي لا يمكن نسـيانه هو الأرخـص؛ لا يمكن نسـيانه بسـبب الذكـرى المتكـررة التـي تركها طـوال اليوم، اضطـراب وتقلص فـي المعـدة بصحبـة تجشـؤات سـامة ناجمـة عن صعوبـة هضمه.

تقـع إمبابـة علـى بعـد حوالـي 40 كلـم مـن وسـط القاهـرة بعـد المـرور على مجموعة من التجمعات السـكنية الفقيـرة للغاية بالضفة الغربيـة للنيـل، تأتـي الجمـال مـن أسـوان علـى متـن القطـار ولكنهـا تصـل إلـى أسـوان فـي الأسـاس بعـد السـير فـي قوافـل كبيـرة تقطـع

صحـراء النوبـة لتهبـط بعد ذلك في اتجاه السـد العالي قادمة من السـودان، رعـاة هـذه الجمـال الذيـن يعملون علـى تربيتهـا ونقلها من أصحاب البشـرة السـمراء، يتمتـع أغلبهـم بصفاء الذهـن ولا يتحدثون كثيـرًا ولكنهم يتعاملون بقسـوة مـع بضائعهـم، يمـوت الكثيـر مـن الجمـال أثنـاء الرحلـة ولا يمتنـع الرعـاة عـن معاملـة هـذه الحيوانـات الوديعـة بكل وحشـية ممكنـة، فكرت أثنـاء رؤيتهـم يضربـون ظهـور ووجـوه الحيوانـات الهادئـة بعصيهـم بـكل غضـب وهـم ينزلونهـا، فـي أن الرعـاة أنفسـهم ربمـا لـم يتعرضـوا لمعاملـة أفضـل، يسـتقبلهم فـي إمبابـة الوسـطاء المحلييـن الذيـن سـيبتاعون حصصًا معينـة لبيعهـا بدورهـم للجزارين أو في حالات أخرى لمزارعين لمسـاعدتهم فـي أعمـال الحقـل أو لبعـض الأفـراد الذيـن سيسـتخدمونها كوسـيلة للنقـل أو مصـدر للجـذب السـياحي حـول الآثـار الفرعونيـة (دولار مقابـل الصعـود فـوق الجمـل، يبـدو الأمـر رخيصًـا للغايـة حتـى تضطـر لدفـع 10 دولارات مـن أجـل الهبـوط ويجـب عليـك أن تسـددها لأن الجمـل مرتفع مثـل منصة القفز).

يقـدم كتـاب أندريـس أولجيـن عـن مصـر حـوارًا طريفًا بيـن الـراوي وأحد الجمـال؛ فبينمـا كان أولجين يمتطي الحيوان بدأ الأخير في الرد على أسـئلته وكبدايـة أعطـاه درسًـا فـي علـوم الحيوان "يجـب أن أوضح لك، لسـتُ جملا، أنـا، كمـا تـرى من النظرة الأولى، وحيد السـنام، مصر ليس بها جِمال، لا يوجد سـوى وحيد السـنام فقط مثلي أنا وكل أشـقائي الذين تراهم هنا، كلنا لدينا سنم واحد أما الجمال فتمتلك سنمين كبيرين، ولتعلم أيضًا أن الجمل ينتمي

لآسيا الوسطى أما أفريقيا فليس بها سوى وحيد السنام مثلي، على الرغم من أننا حيوانات استأنسها البشر منذ أكثر من خمسة آلاف عام، إلا أننا وصلنا لأرض مصر في وقت متأخر للغاية، كان العرب هم من جلبونا إلى هنا بعد غزوتهم في القرن السابع بعد الميلاد، لهذا لن ترى أبدًا أي تمثيل لوحيد السنام أو حتى الجمال في لوحات ومنحوتات المصريين القدماء".

على الرغم من أن جمل أولجين كان دقيقًا للغاية في إصراره على عرض علم تصنيف الأحياء، إلا أن "جمل" هو الاسم النوعي لكلتا الفصيلتين، ولكن صحيح أن الجِمال الموجودة في مصر لها اسم علمي محدد وهو (Camelus Dromedarius) التي لا تمتلك سوى سنم واحد أقل من فصيلة أبناء عمومتهم (Camelus Ferus) الموجودة في آسيا الوسطى والتي تمتلك سنمين، صحيح أيضًا أن رسوم مصر القديمة لا تظهر بها الجمال، ولكن ما يُرى فيها هي أشياء لم تعد موجودة في مصر الحديثة، أفيال وأفراس نهر وظباء وتماسيح، كانت المجموعة الحيوانية أكثر ثراء بشكل كبير منذ خمسة آلاف عام ولكن نمو الصحراء سمح فقط ببقاء (أو ربما وصول لأنه لم يكن موجود سابقًا) أفضل حيوان مؤهل لمواجهة المناخ ولتحمل مسارات التجارة العربية، الجمل. لم تكن الأحصنة موجودة لا في المملكة القديمة ولا الوسطى؛ حيث وصلت أثناء المملكة الحديثة نحو عام 1550 قبل الميلاد وبداية من هذه اللحظة بدأت تظهر على الرسوم الجدارية، ولكن يوجد الكثير من الجمال في الكتاب المقدس وهو النص الأقدم من

القـرآن، لـذا فـإن وصـول الجمال لهـذه الأراضي (التـي كان اليهـود موجودين بهـا)، يجـب أن يكون أقـدم مما يظـن أولجين.

كان لـدى كل الرحالـة نحـو الشـرق الأدنـى تقريبًـا شـيء لذكـره بخصـوص الجِمـال، يقـص خـوان جويتيسـولو ما كتبـه علي بـاي (أو دومينجـو بايا وهو اسـمه بالكتالونيـة)[73] عنهـا بقولـه: "قـدم وصفًـا معبـرًا لمجلس الجمـال على شـكل حلقـة بجـوار العشـب وهـي تتنـاول طعامهـا فـي قضمـات صغيـرة كـ»أحـد أشـكال الأدب والأخـلاق العاليـة«، يذكرنـا هـذا الوصـف بمشـهد مشـابه فـي (أصـوات مراكـش) والـذي كان إليـاس كانيتـي يـرى فيـه (أي في المشـهد) هـذه الحيوانـات كمجموعـة مـن السـيدات الإنجليزيـات اللاتـي يشـربن الشـاي في هـدوء".

تحـدث كيبلينـج هـو الآخـر عـن الجِمـال؛ ففـي مؤتمـر أقيـم عـام 1830 بالجمعيـة الجغرافيـة الملكيـة تحت عنـوان (بعض مفاهيم الترحـال)، كانت روائـح الرحـلات هـي محوره، ارتكـب خطأ بخصـوص هذه الحيوانـات حينما قـال إن واحـدة مـن أفظـع الروائح على وجـه الأرض هي عـرق الجمل، ولكن الحقيقـة تقـول إن الجمـال لا تتعـرّق أبـدا، أعـرف هـذا لأنـي تعلمتـه مـن بحـث لأنطونيـو بيليـث حول بعض خصائـص التأقلم البطوليـة والخيالية لهذا الحيوان:

73- دومينجو فرانثيسكو باديا هو رحالة ومستشرق وجاسوس إسباني زار عدة دول بالمنطقة مثل المغرب وقبرص ومصر والجزيرة العربية ولبنان والأردن وفلسطين وتركيا وانتحل صفة شخص مسلم وذهب إلى مكة لأداء الحج بصورة ظاهرية ويعرف أيضا باسم "علي باي العباسي".

"الجمـل لا يمكنـه أن يتعـرّق أو يلهـث لأن هاتيـن العمليتيـن المُلطفتين لهمـا تكلفـة مائيـة ورفاهيـة لا يمكـن أن يسـمح بهـا لنفسـه فـي وسـط الصحـراء، لتجنـب التعـرق، يمتلك الجمل قـدرة على رفع حرارته الجسـدية بمقـدار سـت أو سـبع درجـات مئويـة، مـا يتسـبب فـي خفـض عملية تبـادل الحـرارة دون أن تسـبب لـه هـذه الحالـة أضـرارًا جسـمانية، هـذا الحيـوان الاسـتثنائي قـادر علـى شـرب مئـة لتر مـن المـاء في مـرة واحدة، يخلطهـا لاحقـا بطعامـه ويحتجزهـا فـي معدتـه لفتـرة طويلـة تحسـبًا لأي أجـواء معاكسـة، حينمـا يتعـرض لنقـص المياه يعمـل على تأييـض الدهون ويحصـل منهـا علـى الهيدروجيـن والذي- عَبْـرَ خلطِهِ مع الأوكسـجين الذي يتنفسـه مـن الهـواء- يشـكل الميـاه (مقابـل كل كيلـو مـن الدهـون ينتج لتـرًا مـن المياه)، يسـتخدم الجمل نسـبة صغيرة مـن الميـاه الموجودة في الـدم، وهـو الأمـر الـذي يختلـف كثيـرًا عمـا تفعله بقيـة الثدييات بمـا فيها الإنسـان، حيـث أنهـا جميعًـا أمـام نقـص الميـاه تلجـأ لإخراجهـا مـن بلازما الـدم، وبهـذه الطريقـة يصبح الدم أكثـر كثافة ويتوقف عن الـدوران ويأتي الموت".

تجولـتُ فـي إمبابـة ومعلومـات الكتب هـذه داخل رأسـي وقارنت البيانـات التـي قرأتهـا بمـا شـاهدته عينـاي، جِمـال الكتـب والمُخيلـة اصطدمـت فجـأة بالواقـع، يوجـد المئـات بـل وربمـا الآلاف مـن الجمـال وكلهـا تخضـع لعـذاب صغيـر، سـاقها اليسـرى الأماميـة مثنية ومربوطـة لأنهـا وفقـا للرعـاة تسـتخدمها للنهـوض وبهـذه الطريقـة يجبرونهـا علـى فعـل الأمر بسـرعة أقل، من ضمـن فوائدهـا أيضًا أنها

لا تجعـل أيًّـا منهـا يذهـب بعيـدًا ليختلـط مـع قطيع رعـاة آخر. علـى الرغم مـن كل هـذا واضطرارهـا للتنقـل علـى هيئـة كيـان أعـرج بثلاثة أرجـل (عبر القفـز)، إلا أن الجمـال حافظـت علـى طابعهـا الأبـي والسـامي وأصبحـت مطيعـة برغبتهـا، وكمـا يقـول مؤلـف إنجليـزي "لـم تعـد تبالـي عبر سـموها النبيـل بالاحتياجـات الدنيويـة مثـل الطعـام والميـاه"، كان رمضان قـد انتهى وفجـأة مـر علـى خاطـري أن عـادة الامتنـاع عن الميـاه والطعام هـذه، أقصد الصيـام، ربمـا لـم تكـن أمـرًا إلهيًـا، بـل اسـتلهامًا قادمًـا مـن ذلـك الحيـوان، الجمـل؛ تلـك الماكينـة البيولوجيـة التـي يمكنهـا قضـاء مـا يقـرب مـن شـهر دون طعـام أو شـراب.

تناولنـا كوبًـا مـن الشـاي مـع ملك سـوق الجمـال، محمـد عبدالعلـي الذي يقـول إنـه منحـدر مـن نسـب النبـي، والذي عمل أسـلافه منـذ قديـم الزمان فـي تجـارة الجمـال، يتمتـع بأناقة قديمة في ملابسـه ووقـاره وإيماءاته، كان حـذاؤه المصنـوع مـن جلـد النمـر الأصلي يلمـع أسـفل جلبابه، بينمـا صوته الخشـن يتـرك القليـل الـذي يمكـن سـماعه، كلمـات أحادية المقاطـع تنطق مـن خلـف ابتسـامة شاسـعة، كان الرعـاة السـودانيون بوجوههـم السـمراء الرائقـة أسـفل عمائمهـم البيضـاء يعاملونـه باحتـرام كبيـر، طريقتهـم حينما كانـوا يتوجهـون بكلامهـم للملـك تبدو لي مسـتوحاة مـن الجِمـال، أما الملك فحينمـا كان يتحـاور معنـا فكانـت طريقتـه هـو الآخـر تبـدو مسـتلهمة مـن الجِمـال، هـذه الجِمـال التـي علـى الرغـم مـن علو نسـبها تركـع أمامنـا لكي نمتطيهـا، إنـه هـذا الهـدوء المطيـع للمخلوقـات العليا.

يحتـوي اسـم هـذا الحيـوان باللاتينيـة (Dromedarius) ربمـا علـى أكثـر مـا يعـرف كيانـه وهو الترحـال، (Dromo) تعني السـير أو الركـض، لهذا فإن منعهـم مـن الحركـة بثنـي هـذا الطرف وربطـه وقطعه بهـذه الطريقـة يبدو مؤلمًـا بصـورة أكبـر، التبلـد البعيـد المرسـوم علـى وجوههـا يجعـل ضربـات السـوط التـي تتلقاهـا بشـكل دائـم أكثـر إهانـة وألمًـا، اعتـدت منـذ الصغـر علـى رؤيـة أبقـار وأحصنـة تخضـع للتعذيـب ولكـن مـع الجِمـال خرجـت عـن إطـاري المعتـاد وتـراءى لـي مـا لا يـراه المـرء دائمًـا، قربنا الشـديد من الحيوانـات وقسـوتنا ووحشـيتنا معهـم، المتوحشـون هـم نحن لأننـا لا نقدر علـى الشـعور بالتعاطف بخصـوص معاناتهم، حينمـا كان المصريون القدماء يقدمـون علـى تحنيـط طائـر أبومنجـل أو يعبـدون ثـورًا، ربما كانوا يحسـون بهـذا القـرب الـذي لا نشـعر بـه والـذي عبـر عنـه موزيـل[74] بصـورة أفضـل ذات مـرة حينمـا قـال: "إذا كان الرب قد اتخذ جسـد إنسـان، فإنـه ربما اتخذ أو يجـب أن يتخـذ شـكل القطـة". هـذه الآلهة المصريـة التي كانـت تعتليها رءوس الحيوانـات والدقـة المتناهيـة التـي كانت ترسـم بهـا أو تحنط بها هي شـهادة علـى الحقيقـة، الحيوانـات هي أبنـاء عمومتنا، أقاربنا الأكثـر قربًا في سلسـلة التطور.

ليصـل هـذا الشـعور جيـدًا ولتفهـم ظلـم قسـوتنا مـع الثدييـات

74- كاتب فلسفي ألماني توفي في 1942 عن عمر يناهز 41 عامًا ومن أشهر أعماله "رجل بلا صفات" و"توحد قصتين"، فيما تعتبر روايته "رجل بلا مؤهلات" التي توفي قبل أن يكملها واحدة من أكثر الأعمال تأثيرًا في أدب الحداثة.

(نستعبدهم ونعذبهم ونأكلهم) يجب علينا الخروج بعيدًا عن الإطار، إذا ما خرج المرء عما يبدو رائجًا، وفَكَّر- على سبيل المثال- في مذبح تتعرض فيه الأحصنة للطعن، أو إذا ما تعرف على سوق تجبر فيها الجمال على السير على ثلاثة أقدام، ربما يتمكن من الشعور بِذُلِّ ضربات السوط وألم المنقرة ورفض الحبال المقيدة للأعناق وخطوط الدم الناجمة عن الجلد، ربما إذا ما تأملنا أفيالًا تُقتل للحصول على أنيابها العاجية أو الفناء الوشيك للخراتيت التي يؤمن اليابانيون بأن قرونها تتمتع بقدرات علاجية إعجازية للضعف الجنسي، ربما فقط إذا ما تأملنا هذه الحالات البعيدة عن عاداتنا اليومية، لتمكنا من ملاحظة الظلم المأساوي الذي نعامل الحيوانات به، بكل تأكيد في بلد مثل بلدي، حيث لا تزال ترتكب مجازر بشرية، قد يبدو لفت الانتباه لتعذيب الحيوانات أمرًا سخيفًا، ولكن ربما تكون هناك رابطة ممكنة بين هذين النوعين من الوحشية، هؤلاء الذين يعذبون الكلاب والحمير وأولئك الذين لا يشعرون بأي شيء بعد إساءة معاملة الأبقار والأحصنة، يعملون على تعويد وعيهم على كل ما هو متوحش ودموي. من ناحيته كان الصيد تدريبًا من أجل الحرب، طريقة لتحسين مهارة الرماية ولإبقاء الرماح مسنونة، كانت هناك وصية، تعرفها كل الديانات القديمة في مصر ولكنها أصبحت في طي النسيان مع عاداتنا اليهودية والمسيحية، تقول: "لا تسِئ معاملة البهائم"، نحن معشر البشر لسنا سوى ثدييات تمتلك مخًّا أكثر تطورًا، هذا التطور هو ما يمنحنا ميزة المكر أمام

الحيوانـات وسـمح لنـا باسـتعبادها، ولكـن يجـب أيضًـا أن يمنحنـا فضيلـة أخلاقيـة وهـي التعاطـف.

الجمـال (مثـل الأبقـار والخنازيـر والخرفـان والأحصنـة والتيـوس) واحـدة مـن ضمـن عبيدنـا الكثيريـن الموجوديـن مـن أجـل العمـل وتوفيـر اللحـم، ولكـن بعـد أخـذ أكثـر مـن جولـة فـوق ظهـر جمـل حـول الأهرامـات وبعـد تنـاول اللحـم الجملـي مـع الفـول (طبق البقوليات الشـعبي فـي مصر) وبعد تجربـة الجبـن المصنـوع مـن لبـن الناقـة (أحـد أنـواع الجبـن البـري الـذي تصنعـه قبيلـة أفريقيـة) وبعـد شـراء أجمـل سـجادة امتلكتهـا طـوال حياتـي (المصنوعـة مـن وبـر الجمـل والمصممـة والمصبوغـة فـي إحـدى واحـات مصـر) لمسـت بيـديَّ ولسـاني وقدمـيَّ وجسـدي كل ظلمنـا القائـم علـى الاسـتعباد، وكأحـد أشـكال التوبـة قـررت أننـي لن أقدم أبـدًا لتنـاول أي لحم سـواء جملـي أو مـن أي حيـوان آخـر طـوال فترة إقامتـي المتبقيـة في مصر، لعـدة أسـابيع تفهمـت النباتيين ولـم أعد أرغب في أن يصبح جسـدي مقبرة مظلمـة للحيوانـات التـي نلتهمهـا، فـي ظـل بحثـي عـن مطعم نباتـي، عدت للاتصـال بحامـد أبـو أحمـد الذي لم يكـن موجودًا فـي منزله بـكل تأكيد، لم تفهـم الزوجـة مـن جانبهـا سـؤالي فأغلقـت الخـط وارتسـمت علـى وجهـي ملامـح جمل مستسـلم.

الكلاب والقطط

تظهر حيوانات الموتى أحيانًا بجانب أصحابها في الرسوم الفرعونية القديمة، قط مخطط أو كلب يساعد الصياد أثناء عمله، لا تزال هناك مومياوات محفوظة بحالة جيدة للقطط، تلك الحيوانات شبه المقدسة مثل الثيران والتماسيح والجعران، لم أر الكلاب تقريبا في قاهرة اليوم، إذا ما كانت ميديين مليئة بكلاب الشوارع (المرعوبة والتائهة والمسعورة) وفي بوسطن دائمًا ما تحظى الكلاب بعناية ملاكها (الذين بكل التزام ينظفون حتى آخر قطعة من قذارتهم)، وإذا ما كنا في مدريد وباريس يجب أن نسير برادار في أحذيتنا لتجنب تحول باطنها لمصدر للرائحة المزعجة، فإن الكلاب لا تُرى في القاهرة بصورة كبيرة، ربما كأحد أشكال الولاء للديانة الفرعونية يظهر- على النقيض- الكثير من القطط، في مقهى الفيشاوي على سبيل المثال، نهارًا، يمر الكثير من القطط بين الطاولات التي تتنازع مع بائعي السجاجيد والمناديل على المساحة المتوافرة، القطط هي من تحكم حيوانات الشوارع في مصر اليوم وربما مصر الأمس، إذا ما كان المقياس هو عدد الرسوم والمومياوات، كانت مومياوات القطط غزيرة لدرجة أنه جرى تصدير طن من القطط المحنطة نحو إنجلترا والتي عقب تحويلها لمسحوق كانت تعتبر بمثابة ورقة تجارية رابحة

بالنسـبة للإنجليـز، وفقـا لهيـرودوت فإنـه "حينمـا تمـوت القطـط فـي مصـر تنقـل إلـى مدينـة بوبسـطة[75] حيـث تحنـط ثـم تدفن فـي مخازن مقدسـة، الـكلاب تدفـن فـي المدينـة نفسـها ولكـن فـي مقابـر خاصـة"، أمـا الدببـة والذئـاب فإنهـا، وفقـا للمـؤرخ الإغريقـي، لـم تكن تمتلـك الحـظ ذاته حيث كانـت تدفـن "فـي نفـس الموقـع الـذي عثـر فيـه علـى جثثها".

هنـاك تبايـن بيـن زوجتـيَّ فـي كل شـيء وعلـى مـر الرحلـة رفعتـا رايـات الخـلاف وكان بينهمـا تناكـف بالعبـارات بخصـوص الـكلاب والقطـط، تفضـل (آ) القطـط و(ك) الـكلاب، ووفقًـا لهمـا، فـإن هـذا التفضيـل يكشـف اختلافًا عميقًـا فـي الشـخصية بيـن كل البشـر، تشـيد (ك) بوفـاء الـكلاب ولكـن (آ) تقـول إن هـذا هـو أكثـر مـا يثير اسـتياءها فـي الـكلاب، وفاؤهـا، خاصة تلك التـي تتعـرض للضـرب منـا، لهـذا تثنـي علـى تعالـي واسـتقلالية القطط وهو الأمـر الـذي لا تـراه (ك) كذلـك بـل تعتبـره مجـرد غـرور أحمـق، لاحظـت أن صفـاء الأسـابيع الأولـى كان قـد بـدأ فـي الانكسـار بينهمـا، هنـاك شـيء مـن المـرارة فـي نظراتهمـا وتعليقاتهمـا كمـا يحـدث كثيـرًا فـي الرحـلات المشـتركة حينمـا تتطـور الخلافـات بسـبب حماقـات، لـم أحـاول الوسـاطة فـي هـذا النقـاش وسـعيت للبحـث بصـورة أكبـر عمّـا يخصنـي (أقصـد مـا يوجـد فـي المدينـة لأننـي لا أفضـل التدخـل فـي مـا يخـص شـخصية

75- بوبسطة أو تل بسطة هي إحدى عواصم مصر القديمة وكانت تقع بالقرب من موقع مدينة الزقازيق حاليًا.

كلٍ مـن زوجتـيَّ) ووجـدت أن هيمنـة القطـط الحاليـة على الـكلاب لم تكن أمـرًا دائمًـا فـي القاهرة، يقـول أنطونيـوس جونزاليس فـي مذكراته بخصوص الرحلـة التـي قـام بهـا عـام 1666: "كان عـدد الـكلاب فـي مصـر لا يمكـن احتسـابه، لـم يسـمح الأتـراك لأحـد بقتلهـم لأن هذا الأمـر بالنسـبة لهم كان خطيئـة كبرى".

تغيـر كل شـيء فـي هـذه القـرون الثلاثـة، ربمـا لأن الأتـراك طُـردوا منـذ نصـف قـرن، فكمـا قلـت بالفعـل عدد الـكلاب التـي ترى فـي القاهـرة اليوم قليـل للغايـة، يمتلـك ماكـس رودنبيك تفسـيرًا دينيًّا لمسـألة القطـط الكثيرة والـكلاب القليلـة، "إذا مـا تباهـت المدينـة بوجـود عـدد مدهـش مـن قطط الشـوارع الودودة، فإن السـبب وراء هذا الأمر يعود في جانب كبير منه إلى أن النـاس يطعمونهـا باسـم النبـي الـذي يقـص عنه أنـه ذات مرة قطـع جزءًا مـن جلبابـه لكـي لا يضايـق قطـا كان نائمًا في حجـره، الكلاب علـى العكس مـن هـذا يجـري تجنبهـا لأن محمدًا لـم يكن يقبـل اقتناءهـا، وكان يرفض أي اسـتخدام لهـا سـوى فـي الحراسـة أو رعايـة الماشـية"، كتب لي خوان سـييرا وهـو كولومبـي آخـر قطع البـلاد عكس تيار النيـل نحو مصر العليا: "بالنسـبة لحيوانـات مصـر، فهنـا وربمـا بتأثيـر مـن هيـرودوت توجـد كل أصنـاف البهائـم السـريالية، فـي أحـد الطـرق التي تذهب مـن الأقصر لـوادي الموتى شـاهدت جاموسـة ورديـة بلـون الخنازيـر الموجـودة فـي إنجلتـرا، وبعدهـا فـي أسـوان شـاهدت حصانًـا لونـه خليـط بيـن الأبيـض والبرتقالـي وشـعره مصبـوغ بلـون الحنـة المصرية، سـنام الجمال والأبقـار ذات القـرون الطويلة

وسحب البعوض والحقائب البلاستيكية التي تبحر كأنها مشيمات عبر النيل، للأسف لم نر تماسيح حتى الآن ولكن سنواصل البحث عكس التيار حتى نجدها".

سيتوجب عليهم الوصول للنيل الاستوائي لأن التماسيح انقرضت تقريبًا في مصر ولم يتبق منها سوى صور ومومياوات، يتبقى أيضًا لدينا الوصف الطريف لهيرودوت الذي قاله بخصوص هذا الحيوان: "هذه هي خصائص التمساح، عيناه مثل عيون الخنازير وأسنانه طويلة مثل الأنياب وعلى عكس بقية الحيوانات ليس لديه لسان ولا يمكنه تحريك فكه السفلي وهو أمر يتفرد به أيضًا لأنه الحيوان الوحيد في العالم القادر على تحريك فكه العلوي وليس السفلي"، يتشابه هيرودوت وأرسطو هنا في تقديم وصف لا يرتكز على الملاحظة بل ما يتخيلانه، كان أرسطو يقول إن النساء كائنات معيبة لأن عدد أسنانها أقل من الرجال (لم يخطر بباله أبدًا فتح أفواههن وعد ما يوجد بداخلها جيدًا)، هيرودوت فعل الشيء ذاته ولم يركز نظره جيدًا في التماسيح لأنه لو شاهدها عن قرب للاحظ أنها مثل بقية الحيوانات لا يتحرك سوى فكها السفلي وتمتلك لسانا.

عملت زوجتاي منذ هذه المحادثة بخصوص الكلاب والقطط (كانت الأعراض بدأت في الظهور سابقًا) على التكشيرعن أنيابهما يوميًا لدرجة جعلتني تقريبا أستمع لزمجرة تصدر منهما، كنّا نأكل في إحدى الليالي وطلبت (آ) حمامًا مشويًّا لتقول (ك) إن

الرائحـة المقـززة بجانبهـا تجعلها لا تسـتمتع بتنـاول طبق الحمـص، احتجَّتْ (آ) لأنهـا أفسـدت طعامها بتعليقهـا، وطلبـت منهـا أن تكـف عـن تعليقاتها غيـر الملائمـة، ولكـن (ك) ردت بوصـف (آ) بأنهـا خبيـرة فـي كل شـيء وبالأخـص الأشـياء التـي لا نفـع منهـا، ذكرتهـا بأنـه ليـس مـن الضـروري قول الحقيقـة دائمًـا فهنـاك حقائـق أسـوأ مـن الأكاذيـب وأنهـا لا ترغـب فـي أن تظـل (آ) تحـدد المواعيـد ومـا هـو جميـل أو قبيـح فـي القاهـرة أو ذوق الملابـس السـيئ والجيـد، قالتها هكـذا صراحـة: "لا تخبريني مجـددًا بما هو قبيـح أو جميـل، أنـا أعـرف مـا الذي يعجبنـي وما يُعـد جميلًا حتـى ولو كان علـى الأقـل بالنسـبة لي وحـدي"، لم تصمـت (آ) ودافعت عن نفسـها بقولها إن (ك) هـي مـن تفـرض دائمًـا مـا الـذي يـؤكل وفـي أي سـاعة وبـأي نكهة، حاولـت الفصـل بينهمـا وتوجيـه دفـة الحديـث نحـو منطقـة أخـرى ولكـن نقطـة الخـلاف بينهمـا أصبـح لا يمكـن تجنبها، أيًّـا كان ما كنت سـأقوله فلن يحـدث اتفـاق بينهمـا أبـدًا، قالـت (ك) لـي وهـي تشـير بإصبعها:

- انظر القمر المكتمل، يا لجماله!

- ليس مكتملًا، نحن منذ يومين في مرحلة هلال آخر الشهر.

سـألتني (ك) وهـي تضعني كحكم بينهما، "أنـا أراه مكتملًا وأنت؟"، أجبتها بـكل دبلوماسـية غيـر مفيـدة "أعتقد أننا فـي مرحلة هلال آخر الشـهر ولكن فـي هذه اللحظة يبـدو مكتملًا".

أخبرتني (ك) في هذه الليلة أنها قد فاض بها الكيل وستذهب إلى الزقاق المجاور لـ(ريش) وستكتب خطابًا لأحد مراسليها، ذلك الإسباني، لتخبره بأنها قررت تقديم موعد عودتها إلى كولومبيا على أن تقضي عدة أيام في مدريد، أخبرته أنها ستصل في الأسبوع التالي، كانت تعرف أنه لا يزال يجب علي البقاء للاستمرار في رحلتي لاكتشاف الشوارع من أجل الكتاب.

بقيت (ك) لأسبوع آخر ولكن ساد التوتر بينهما بصورة يومية، لا وجود للصراخ أو الجذب من الشعر أو حتى السباب المباشر ولكنهما لم تتفقا في أي شيء، كنا في سوق خان الخليلي وقالت (آ) لأمريكية أنها تتعرض للخداع في سعر التمثال المصري المعروض عليها، لم يكن البائع وحده هو من شعر بالاستياء؛ عنفتها (ك) أيضًا لأنها أضرت بتجارة مضمونة لذلك الرجل، ولكن (آ) ردت عليها وهي تضع يديها على وسطها بصوت حاد أشبه بالصراخ: "لن تخبريني بما يتوجب عليّ فعله"، لم تعودا أبدًا للخروج معا أو الإعجاب بالأشياء ذاتها، في ذلك الصباح الذي توجهت فيه بـ(ك) نحو المطار تظاهرت (آ) بأنها نائمة وتظاهرت (ك) بإيقاظها، كان وداعهما بقبلة إجبارية في الخد لكن لم يصل الأمر لحد العض، عدت للفندق مفتقدًا واحدة من نسائي، وداعًا (ك) الزوجة المتكبدة لوقت قليل للغاية، كنت رفيقة رحلة لا غبار عليها.

القمامة

كتب فلوبير في إحدى رسائله المصرية الأخرى: "هنا تُفهم كل التباينات حينما تلمع الأشياء الرائعة بين الغبار"، بالنظر من أي مكان مرتفع في القاهرة، فإن أول ما يلاحظ هو أن المدينة مليئة بالحطام، القمامة والحطام في الأفنية وأسطح البنايات وأركان كثيرة وتقريبًا كل الأزقة التي تبتعد عنها برامج السائحين أو تبتعد عن أحياء الأثرياء، طوب وأكياس قمامة ممزقة أو أجزاء من أسوار منهارة وحديد صدئ ومقاعد منزوعة الأحشاء وحيوانات نافقة (قطط وخراف منتفخة ومتعفنة وطيور) وأبواب مكسورة وطاولات وبلاطات محطمة وقطع من البلاستيك، وفوق كلّ هذا الحطام يرقد غطاء من التراب والرمال، ولكن فجأة ينتصب أمامك بكل روعة سور قديم مذهل أو مئذنة ذات التفافات متناغمة أو أبواب فصّلها فنانون عباقرة، أو سلسلة من النوافذ المذهلة المصنوعة من المرمر، الأرض عبارة عن غطاء من التراب والرمال والقمامة ولكن غالبًا هناك زحام من الأشخاص في شوارع القاهرة، لدرجة تجعل الشارع والأرض والغبار نفسه يختفي أسفل أقدام الجموع بعد أن كنسته خطى الأحذية والصنادل، يصبح كل شيء مغطى بخطى وأجساد البشر.

القاهرة القديمة؛ قاهرة العصور الوسطى، كانت لتتحول على

أيـدي أخصائيـي التخطيـط العمرانـي الإيطالييـن إلـى مـكان حالـم، لكـن بالنسـبة لنـا ولكـي نراهـا يجـب أن ننزع نظـارات الاشـمئزاز من علـى أعيينا لننفـض التـراب وننسـى الرسـائل الرهيبـة التـي تخطرنـا بها الأنوف ونتناسـى الصخـب الشـيطاني الـذي يغتصـب آذاننا، وفي النهاية وسـط خـدر الحاضر، سـنتأمل "هـذه الأشـياء الرائعـة التـي تلمـع بيـن الغبـار". قلـت "بيـن يـدي الإيطالييـن" مـدركًا أننـي أفكـر مثـل هـؤلاء السـائحين الذيـن يحبـون أجواء العصـور الوسـطى المبتذلة، قلـت "المبتذلة" تحديدًا لأن لـذة هذه المدن لا تثيـر العواطـف بالشـكل الكلي الكافـي؛ لأن بقايا العصور الوسـطى الأوروبية حاليًـا ليسـت سـوى نسـخة محملـة، ربمـا بمقاييـس (ديزنـي) مـن العصـور الوسـطى الحقيقية.

مـن يرغبـون فـي رؤيـة العصـور الوسـطى الحقيقيـة التـي لا تـزال حيـة وفـي طـور الغليـان عليهـم بالمجـيء للقاهـرة القديمـة. بـدلًا مـن الاقتصـار علـى سـحر سـوق خـان الخليلـي المميـز الـذي لا يمكـن التشـكيك فيـه، عليهـم بالتعمـق فـي الشـوارع الأكثـر بعـدًا وأصالـة بمنطقـة القصبـة؛ تلـك التـي تبـدأ مـن عنـد بوابـة القاهـرة الشـمالية (بـاب زويلـة)، وبيـن أزقـة ومتاهـات تفضـي حتـى الفسـطاط مرورًا بمسـجد ابـن طولون، تسـود أجواء العصـور الوسـطى هنـاك كمـا كانـت غالبًـا منـذ سـبعمائة عـام، فهنـا بـكل تأكيـد تبـدو الأمـور أكثـر شـبهًا بالواقـع، ذلـك الواقـع الـذي عاشـته أوروبـا منـذ سـبعة أو ثمانيـة قـرون، وليسـت أجـواء العصور الوسـطى التـي حدثتها سـبعة قـرون مـن التمـدن والتحضـر، هنـا لا يـزال كل شـيء حاضـرًا وحيًّـا،

القمامـة والحيوانـات الحيـة والنافقـة والقـذارة والروائـح ؛الخليـط غيـر المتجانـس لمئـات المتاجـر الصغيـرة، وآلاف المنتجـات والفقـر المجـاور لبنايـات هائلـة عفـا عليهـا الزمـن؛ أطفـال يعملـون وشـيوخ مثقلـون فـي الشـوارع بأمراضهـم وكربهم وبؤسـهم، تنتشـر محلات الجـزارة وتعرض جثث وأحشـاء الجمـال والخـراف والأبقـار دون أي إخفـاء للحمهـا الـذي فارقتـه الـروح، أحيانًـا فـي بعـض الأماكـن الأكثـر عناية، تلتـف اللحوم بقمـاش أبيض مغمـوس فـي محلـول ملحـي كأنهـا موميـاوات فـي مرحلـة التحنيـط الأولى، لقـد شـاهدنا عامة كل اجـراءات الذبح، تختلـط فصائل كثيرة مـن الحيوانات فـي أقفـاص خشـبية صغيرة، كمـا كان الأمر يحـدث غالبا منذ قـرون، الدجاج والبـط فـي الجـزء السـفلي وأعلـى منهـا الديـوك والحمـام وبعدهـا الأرانـب وطيـور أخـرى، يذبحهـا الجـزارون ويفرغـون أحشـاءها أمـام الزبائـن، توجـد تحـت أقدامهـم أوعيـة معدنيـة كبيـرة مملـوءة بميـاه عكـرة ودهنيـة يميـل لونهـا للحمـرة، يغمسـون الطيـور المذبوحة في مياه سـاخنة ثـم يعمل طفل علـى نتـف ريشـها والـدم والعفـن يغطـي أظافـره، يُذبـح الأرنـب مـن جـزة واحـدة ثـم يسـلخ بسـكاكين حاميـة، سـكاكين ودمـاء منسـابة وذبـاب.

تختلـف أسـعار اللحـوم، يباع كيلو اللحـم الجملي بتسـعة جنيهات والضأن بـ21 جنيها والبقري بـ18 جنيها والدجاج بأربعة جنيهات، أما بالنسبة للخنزير، فعلى الرغم من أن المصريين القدماء كانوا يأكلونه في مناسـبات معينة، إلا أنـه الآن أصبـح محرمًـا كما ينص الإسـلام، وهـو الأمر الذي يتطابقـون فيه مع

العبرييـن، بعـد ذلـك بقليـل فـي الأمـام ظهـرت جبـال الفواكـه المتربـة بين صـراخ البائعيـن، قمنـا بتجربـة البرتقـال، سـيكون مـن الصعـب أن يوجـد ما هـو أفضـل وأطعـم منـه، كل شـيء هنـا أصلـي وقـوي وقـذر وجيـد وحلـو ومتسـخ وصاخـب، كانـت هـذه صفـات كثيـرة معـا ولكـن هـذا هو مـا عليه الأمـر فـي الحقيقـة، كانت هناك نسـاء يجلسـن علـى الأرض وكل منهن يضع علـى حجـره قرنبيطًـا هائـل الحجـم، أضخـم أنـواع القرنبيط فـي العالم تنمو فـي الدلتـا، حيوانـات تجـر عربـات ودراجـات ناريـة لا تنجـح فـي العبـور مـن بيـن الجمـوع وأطفـال يركضـون بيـن هتافـات البائعيـن، هنـاك محلات للفحـم فـي كل مربـع سـكني ويقـف صناعـه علـى الأبـواب متفحميـن أيضًا بنفـس لـون بضاعتهـم التـي تعطـي رائحتهـا أفضـل طعـم لتبـغ الأراجيـل، نـودي للصـلاة مـن المـآذن وفـي الوقـت الـذي كان يسـتعد فيـه المؤمنـون للذهـاب للمسـاجد، وصلنـا لشـارع الملابـس الداخليـة، إذا مـا كانت النسـاء مـن الخـارج متحفظـات ومحتشـمات بصـورة كبيـرة، فوسـط هـذه الجبـال مـن الدانتيـل والتُـل مختلفـة الألـوان أدركنا أن "الفرفشـة" محفوظـة للأجواء ذات الخصوصيـة، أجـرأ الملابـس الداخليـة موجـودة هنـا سـواء فـي الألـوان أو الأشـكال الموحيـة أو الشـفافية، مشـدات للصـدر وسـراويل داخليـة وقمصـان نوم وكورسـيهات وجـوارب شـفافة يصلها حزامان بسـراويل داخلية ضيقـة ورفيعـة، تفحصـت النسـاء الملابـس المرصوصـة بخيـال شـبق وهـن يختـرن وينتقيـن ويصطفيـن، ضحكـن بصـوت عـال حينمـا شـاهدن أننـا كنـا نراقبهـم، علـى محبـي سـيينا وأسـيزي وسـان جيميانـو وبيدراتسـا إذا

كانـوا يرغبـون فـي امتـلاك صـورة حقيقيـة عـن العصـور الوسـطى المجـيء للقاهـرة القديمـة، فهنا يوجد السـكان الذين يعيشـون في مسـاحات صغيرة ويتقاسـمون الهـواء والأرض مـع الحيوانـات ويلقون بأي شـيء علـى منازلهم ويعانـون مـن قلـة الميـاه الجاريـة، الانغمـاس وسـط الروائـح والهتافـات والتجـارة المحمومـة، حتـى ولو كانت فقيـرة، بين جموع النـاس تجربة قوية للغايـة، التغيـر لا يرتبـط فقـط بالمـكان بـل أيضًا الوقـت حيث يشـعر المرء حقًـا أنـه في زمـن آخر.

قصـت لنـا عائشـة لاحقًـا قصـة عـن واحـدة مـن زميلاتهـا فـي الجامعـة التـي تقطـن مـع عائلتهـا فـي هـذا الحـي الـذي ينتمـي للعصـور الوسـطى، كانـت شـعرت فـي يـوم من الأيـام بأن شـيئًا ما يتحـرك داخل فمهـا فأدخلت أصابعهـا لتخـرج بعدهـا يدها وعليهـا دودة بيضاء كبيرة، أحد أنـواع اليرقات؛ طفيليـات، لـم يبـد الأمـر غريبًـا فهـذه الكائنـات الأولية قـد تخرج مـن المرء فـي أي وقـت ومـن أي مـكان فـي الجسـد، الأخطر كمـا قالت عائشـة هو أن فتـرة حضانتهـا عـام كامل، أحد معارفها أيضًا كان شـعر لفتـرة بآلام في الأذن، لـم يكـن يسـمع جيـدًا ويعاني من نوبـات دوار حتى خرجـت دودة من أذنه فـي يـوم مـن الأيـام، طفيليـات أفريقيـا التـي تتسـلل أحيانًا من أي تشـققات فـي الأقـدام الحافيـة كانـت تهديدًا بعيـدًا، ولكنه ظلّ قائمًا معنا لمدة شـهور بسـبب التوهـم المرضي.

"عَشرة" و"شكرًا"

أصررت على تعلم كلمات قليلة بالعربية، كانت الأولى هي واحدة ذكرها جيرار دي نرفال في رحلته ووفقًا له فهي كلمة حيوية يمكن أن تريح في أي موقف، إنها الرد المثالي على أي شيء والإجابة النموذجية لكل الأسئلة والسؤال المثالي لأي موقف، يمكن القول بأنها أشبه بتعويذة "آبراكادابرا"، إنها كلمة "طيب!"، ما الذي يعنيه "طيب!"؟ بالنسبة لي لا أعرف، ولكن أفهم أن نيرفال يقول إنها مثل "OK" أو "حسنًا" أو "جيد"، توكيد أو لتوكيد التوكيد وربما تعبر عن قبول بسيط أو اتفاق مطلق، قلت: "طيب" كثيرًا ولكنها لم تكن مفيدة بالنسبة لي كثيرًا، ليس مثلما كان عليه الأمر مع نرفال ولا أعرف حقًا إذا كانت تنطق (Tayyeb) كما كانت مكتوبة أم (Tayyib) فهذه الـ"e" تبدو لي كـ"i".

ربما يكون هذا هو تأثير مرور السنين التي تغير اللغات بشكل لا يمكن تجنبه، لهذا اتجهت إلى الإفراط في استخدام كلمة (Shukran) الخالدة أو "شكرًا" والتي تستخدم للتعبير عن الامتنان والتي يمكن أن تعبر بها عن الرفض والقبول وقد تفتح لك طريق المرور أو الابتعاد عن أي مكان.

بالنسبة للتجارة فسأضع سعرًا موحدًا لكل شيء (سيارات الأجرة والمحارم والجلابيب والحليب والعطور)، هذا السعر هو

(áshara) أو "عشـرة"، عشـرة جنيهـات مصريـة، هـو ليس مبلغًا كبيـرًا ولكنه لا يـدو مهينـا فهـو ليـس قليـلًا أيضًـا، لأن المصرييـن لطفـاء ومتسـامحين ويسـهل التعامـل معهـم فمـن الممكـن أن تنجـو فـي القاهـرة عبـر ثـلاث كلمـات بعيـدًا عـن الإنجليزيـة السـيئة، اللغـة الشـائعة فـي أيامنـا الحاليـة، والتـي تنتشـر فـي كل الأرجـاء.

ريشة في اليد

أنا هنا من أجل دافع واحد، هو ذلك الدافع الذي يوفر قوت يومي، أنا هنا من أجل هدف واحد، الهدف ذاته الذي يختلط مع المعنى العميق لحياتي، العمل، عمل الكتابة، عثرت على الدافع في قصيدة قديمة للغاية تعود لنهاية حقبة الأسرة الثامنة عشرة منذ ثلاثة آلاف و300 عام، لا توجد وظيفة أفضل من وظيفة الكاتب كما يقول الشاعر في نصيحته التي تلقيتها:

"كن كاتبًا..
تنقذ نفسك من المشقة
تحمي نفسك من الأعمال
تنأى عن الفئوس والمجارف
وحمل السلال
تبتعد عن التجديف
وتحفظ نفسك من كل حزن مخيف
لن تصبح تحت جمع من الأسياد
أو حتى مالكي العباد
كن كاتبًا".

هذا صحيح والأدق أن تصبح ناسخًا أكثر من كونك كاتبًا، قارئ يترجم الهوس القديم الذي كتبه ناسخون آخرون وفي عملية نقله

يُعـدّل شـيئًا أو يضيـف تفاصيـل صغيـرة ليتركهـا جديـدة بشـكل مـا بعـد أن أكسـبها نوعًـا مـن الحيـاة، كمـا قلـت سـابقًا لـم يكـن فنانـو المعابـد، الذين عملـوا علـى تقديـم الرسـوم المصرية المذهلـة وكتابـة الرمـوز الهيروغليفية الجميلـة، يسـعون وراء الأصالـة، لأن هنـاك آخريـن قبلهـم بقـرون طـوال وجـدوا الطريقـة المثاليـة للقيـام بهذه الأشـياء، هـذا ما يجب أن أكـون عليه ككاتـب، لهـذا، فأثنـاء إبحـاري فـي مياه نهـر النيل كنـت أقرأ عـن النيل بدلا مـن النظـر للنيـل، هـذا هـو المصيـر السـعيد للكاتب وأيضًـا مأسـاته، أن كل شـيء بالنسـبة لـه، أكثـر مـن كونه تجربـة معيشـية، يرتبـط بحبـر الكلمات، أثنـاء زيارتـه لمصـر كتـب فلوبيـر لوالدته التي كانت تسـأله إذا مـا كان اتخذ فـي النهايـة قـرار الـزواج ليشـرح لها مصيـر الكاتب والفنـان، "سترسـم النبيذ والحـب والنسـاء والمجـد شـريطة ألا تصبـح رفيقًا للـكأس أو مغرمًـا أو زوجًا أو جنديًـا، الاختـلاط بالحيـاة يجعل الأمور تسـوء إمـا بمعانـاة أو متعة زائدة عـن الحـد، الفنـان فـي رأيـي كيـان متوحـش، شـيء يبتعـد عـن كل مـا هـو طبيعـي، كل المسـاوئ التـي تضربـه بهـا الألوهيـة تأتي بسـبب إصـراره على رفـض هـذا الأمـر البديهي، أنـه يعانـي ويُسـبب المعاناة".

شـاهدت تصـورًا لمحمـد، إنهـا منمنمـة[76] تركيـة تعـود للقـرن الـ18، علـى الرغـم مـن أنـه فـي الإسـلام يمنـع تقديـم أي صـورة

76- صورة مزخرفة تظهر في المخطوطات واشتهرت بها تلك البيزنطية والعثمانية والفارسية والهندية.

إلهيـة (الـرب لا يمكن تجسـيده)، إلا أنه توجد مدرسـتان تتعارضان بخصوص مسـألة شـرعية تقديـم تصـور لوجـه النبـي مـن عدمه، فـي مصر على سـبيل المثـال وبقـرار مـن جامع الأزهر، يمنع بشـكل كامـل أي تجسـيد للنبي، كان هناك وزير ثقافة مصري سـابق قام بنشـر دراسـة حول فن الرسـم الإسـلامي فـي دولـة أخـرى ولكـن مُنـع بيـع كتابـه فـي كل أنحـاء مصـر لسـبب واحد، كان الكتـاب بـكل تأكيـد يحتـوي علـى صـورة لمحمـد، الرسـم كان إسـلاميًّا لـذا كان مـن الطبيعـي أن يدخـل فـي هـذه القصـة، هـذه المنمنمـة التـي تقبـع أمـام عينـيَّ الآن (وربمـا كانت لتتسـبب في سـجني إذا ما عثـروا عليها معـي) رائعـة؛ ليـس لمـا تظهره بل بسـبب ما تخفيـه، وجه النبي ليـس مرئيًّا بـل مغطـى بحجـاب، العمامـة ووشـاح الرقبـة وأزرار الجلبـاب مرئيـة، لكـن الوجـه كلـه يختبـئ خلـف حجاب، تمامًـا مثل النسـاء المسـلمات المتدينات المنتقبـات، ربمـا هنـاك طريقـة غير ضـارة تقريبًـا للإرهاب في مصـر، أقصد إرهـاب الفكـر، التعاقـد مع طائـرة صغيرة تلقي بـ17 مليـون ورقة؛ 17 مليون صـورة للنبـي لتصـل واحـدة لـكل سـاكن فـي القاهرة، سـيكون هـذا الأمر لو حدث تدنيسًـا شـنيعًا.

أن تكـون كاتبًـا فـي مصـر ليس أمـرًا هينًـا، لا تربح كثيـرًا وهو عمل خطيـر، نحـن جميعًـا نعـرف الفتـوى بخصوص سـلمان رشـدي، والتي لـم تصـدر فـي مصر بـل فـي إيـران مـن قبـل نظـام آيـة اللـه، لكـن الأمـور صعبـة هنـا مثـل هنـاك، لكـي ينشـر أي عمـل أدبي فـي مصر لا بـد وأن يمـر عبـر رقابـة شـيوخ الأزهـر، أقـدم جامعـات القاهـرة

والعالـم الإسـلامي والتـي تعمـل منـذ أكثـر منـذ ألـف عـام، كنـت أقـرأ خبـرًا فـي جريـدة الأهـرام التـي تصـدر بالإنجليزية فـي القاهـرة، تاريـخ الخبر هو 28 ديسـمبر ولكنـه ليـس كذبـة أبريـل وهـذا هـو مـا يقولـه، "ألقـي القبـض علـى صـلاح الديـن محسـن، أحد الكتـاب المغموريـن والمدان بتهمـة ازدراء الإسـلام والتطـاول علـى النبـي محمـد، يـوم السـبت فـي مطـار القاهـرة قبل سـفره نحـو تركيـا"، كان محسـن فـي البدايـة قـد حُكم عليـه بالسـجن لمدة سـتة أشـهر ولكـن المتشـددين لـم يعجبهـم الحكم وقـرروا الاسـتئناف لتقام الجلسـة فـي 20 ينايـر، "إذا مـا ثبتـت إدانتـه، فإن محسـن قد يواجـه عقوبة السـجن خمسـة أعـوام وراء القضبـان"، هكـذا أنهـت الأهـرام الخبـر، خمـس سـنوات مـن السـجن هـي عقوبـة الهجـوم علـى الديـن وبالطبـع منـع كتابه أو حرقـه علانيـة، يقـص ماكـس رودنبيـك أنـه فـي العـام الماضي وبنـاء على مبـادرة مـن فصيـل إسـلامي متشـدد (ولاحقًـا بنـاء علـى قـرار مـن الأزهـر) تقـرر منـع نشـر روايـة معروفـة كتبهـا المؤلـف السـوري حيـدر حيـدر وهـي (وليمـة لأعشـاب البحـر)، الأحـكام الصادرة مـن الأزهر غير قابلة للاسـتئناف، هـم يفرضـون رقابتهـم علـى كل الأعمـال الأدبيـة التـي تسـعى وراء النشـر فـي مصـر وجانـب كبيـر مـن العالـم الإسـلامي، لـم يكـن تأكيـد حيـدر علـى أنـه مسـلم ولـم يرغـب فـي إهانـة أحـد بروايتـه لـه أي نفـع حيـث أصبح عملـه محظـورًا، بالطريقـة ذاتهـا التـي منعـت بهـا الجامعـة الأمريكيـة فـي القاهـرة مـن اسـتيراد أكثـر مـن 90 عنوانًـا أدبيًـا وتاريخيًـا بحجـة معارضتهـا للديـن. يؤكـد إبراهيـم أصـلان الكاتـب المصـري المعـروف أن المنـاخ

الفكـري يـزداد غرابـة بمـرور الوقـت فـي بـلاده ولهـذا السـبب فـإن الكتـاب يفرضـون رقابـة ذاتيـة علـى أنفسـهم، لا يشـعرون بالحريـة، مغلوبيـن علـى أمرهـم مـن ناحيـة بيـن حكومـة تحُـدُّ الحريـات مـع كل دقيقـة تمـر (سـواء حريـة الاجتمـاع أو التنظيـم أو التعبيـر أو النشـر)، ومخلصيـن عميانًـا لقضية الإيمـان يعملـون علـى رصـد التجديـف فـي غيـر موقعـه مـن الناحيـة الأخرى.

أن تكـون كاتبًـا فـي مصـر اليـوم هي وظيفـة خائنـة، فقد محفـوظ القدرة علـى اسـتخدام يـده اليمنـى، تلك التي كانـت يكتب بها، بعد اعتداء بسـكين مـن متشـدد كان يرغـب فـي قتلـه، لا يزال بعض كتبـه، على الرغـم من فوزه بجائـزة نوبـل، ممنوعـة هنـا ولا يمكـن قراءتهـا ولو لمـرة واحـدة لأن الأزهر وضعهـا فـي قائمتـه، أهم جائـزة أدبية في مصـر وأكبرها من الناحيـة المالية لا تمنح لمؤلف رواية أو ديوان شـعر، بل أفضل شـخص يتلو آيات القرآن، إن بيع ألف نسـخة من كتاب يعد نجاحًا كبيرًا بالنسـبة لأي مؤلف أدبي، ولكنه علـى الرغـم مـن هذا لا يحصل علـى عوائد الملكية الفكريـة الكافية من دور النشـر، ربمـا لـم يعـد أحـد في مصـر اليوم يتلـو النشـيد القديـم للكاتب، أن تكـون كاتبًـا دون أن تتبـع لوائح النظـام والنبي يعد أمرًا خطيـرًا، إلهنا القديم تحـوت، صاحـب رأس أبـو منجـل بمنقـاره المدبـب مثـل قصبـة الكتابة ومن يوثـق المحاكمـة النهائيـة فـي العالـم الآخـر، لـم يعد يحمينـا بصـورة كافية، ربمـا مـات هـو الآخـر مثـل بقيـة الآلهـة الأخـرى، حيث يبـدو أن البشـر في مصر، كما يحدث في أي مكان بالعالم، فانين وبالتالي فإن الآلهة ليسـوا أقل

فناءً منهم، إذن ليست هناك حاجة للحديث عن فناء الكتاب ومن يكتبون، حينما أفكر أن مصر، بين الدول العربية، تعد من أكثر البلاد انفتاحًا في السينما أو الأدب، يملأني التعاطف مع زملائي الكتاب في هذه المنطقة من العالم، لأنه حتى في كولومبيا، بلادي التي قد يقتلونك فيها أحيانًا بسبب ما تكتبه، يبدو لي المجتمع أكثر انفتاحًا على هذه الوظيفة التي تدور حولها حياتي، يا كُتاب مصر، لن يُترجم هذا الكتاب بكل تأكيد للعربية، لكن عبر الإسبانية التي تأثرت باللغة الجميلة التي تتحدثون بها وتكتبونها أرسل لكم تحية إعجاب وتضامن. متى سيصل إلى مصر فولتير الذي سيحررها من تدخل متعصبي الدين الشائنين؟

خمور الشرق

نبيـذ مصـر ليس سـيئًا؛ علـى الأقل هو أفضـل بكثير من نظيـره الكولومبي، جـودة الجعـة متوسـطة تمامًا مثل بلادي، يصنعون مشـروب الروم من قصب السـكر أيضًـا، ولكـن ذلـك الموجـود لدينـا والقـادم مـن جـزر الأنتيـل أفضل، بوجـه عـام لا تسـمح الديانـة الإسـلامية بتطويـر ثقافـة الكحوليـات، تنقطـع الصلـة مـع عـادات الماضـي المصـري في هـذه النقطة بشـكل كامـل تقريبًا، تظهـر علـى جـدران مقبـرة كامـس (الأسـرة السـابعة عشـر) رسـوم لمشـاهد مفرحـة للنبيـذ وحصـد الكـروم، كان المصريـون القدمـاء يزرعـون الكرمـة ويصنعـون أنواعًـا كثيـرة مـن النبيـذ بنكهـات ودرجـات مختلفـة لتحفـظ في جـرار مـن الخـزف وتخلـط مـع العسـل. عثـر فـي مقبـرة تـوت عنـخ آمـون- والكثيـر مـن المقابـر الأخـرى- علـى جـرار للنبيـذ محـددة ومختومـة بختـم الملـك، وعليهـا كتابـات توضـح عـام إنتاجهـا ومـدى حـلاوة النبيـذ، درجتيـن وثـلاث وخمـس، وصـولا إلـى ثمانـي درجـات مـن الحلاوة.

مـع بدايـة فيضـان النيـل، كان المصريـون يقيمـون حفـلًا للسـكر لتكريـم الإلهـة حتحـور (إلهـة النبيـذ والحـب، ذات القرنيـن)، كان الحفـل يزخـر دائمًـا بالقرابيـن السـائلة المُسـكرة، وصـل كـرم هـذه الإلهـة، كمـا تقـص بعـض أوراق البـردي، إلـى درجـة أنـه لـدى وصول

الموتـى إلـى العالم الآخـر بعدما أنهكتهم الرحلة، فإنها كانت تروي عطشـهم بإرضاعهـم النبيـذ مـن نهديهـا، كان هنـاك اعتقـاد سـائد- بـل تأكيـد- عنـد المصرييـن أن الفـردوس يبـدو مثـل تلـك اللحظـة التـي يُبعـث فيهـا الموتى لكـي يرضعـوا مـن صـدر الإلهـة حتحور.

كان النبيـذ ثمينًـا (بسـبب جودتـه وقلتـه) والوقـت الـذي تتطلبـه عمليـة إنتاجـه الطويلـة، لهـذا فإن الجعة كانـت متوافرة بكثرة للشـعب حيث كانت تصنـع فـي كل منـزل مـن خبـز الشـعير والمـاء مـع خلطـه بالتمـر لتقديـم واحـد مـن أكثر المشـروبات شـيوعًا، تؤدي عمليـة المنع الدينيـة، التي يزداد تشـددها بمـرور الوقـت، إلـى النظـر للشـاربين بشـكل سـيئ للغايـة، حتـى أولئـك الذيـن لا يثقلـون فـي الشـرب. طـوال قـرون كان هنـاك تسـامح كبيـر فـي مصـر مـع مـن لا يثقلـون فـي الشـرب ولكـن هـذا التسـامح آخـذ فـي التراجـع مـع كل يـوم يمـر، غالبًا مـا يعود العمـال المصريون من السـعودية، وهـم كثيـرون، بعـد قضاء عدة سـنوات مـن العمل هنـاك لتوفير مـا يكفيهم طـوال حياتهـم ولديهـم قناعة بأن النبيـذ (وليس الفارق النسـبي في الثروات الموجـودة تحـت الأرض) هـو مـا يجعل مصر أقل ثـراء من بقيـة جيرانها في الجنوب.

ذات مسـاء جـاءت عائشـة لزيارتنـا فـي الفنـدق، وجدتنـا نقـرأ ونحتسـي النبيـذ الأبيـض، دعوناهـا لشـرب كأس ولكنهـا نظـرت لنـا بذعـر لتقـول، "إنـه ذنـب كبيـر للغايـة"، بعدهـا بوقـت قليـل؛ ربمـا بسـبب العـدوى الناجمـة عـن سـعادتنا قـررتْ احتسـاء كأس ولكنهـا قالـت وهـي تشـير للسـماء:

"الله سيحملك في حسابك ذنب ما سيحدث وليس في حسابي"، قلت لها إن هذا ما سيحدث، لتنهي كأسها على جرعتين بسعادة وطلبت كأسًا آخر سيسجل في حساب (آ) وثالث سيسجل في حساب (ك) حتى ولو لم تكن موجودة، وكأس أخير سيضاف إلى كتابي الثقيل الذي أصبح بالفعل أضخم من الإنجيل والقرآن مجتمعين، ولكنه ليس مليئًا بالآيات أو السور، بل الخطايا، قضينا وقتا سعيدًا ومع قدوم المساء احتضنتنا عائشة مبتهجة وسعيدة ومتحررة وفي شعور السكر قلت لها: "حتحور، حتحور" لتضحك. كان النبيذ بالنسبة للمصريين القدماء أيضًا مرتبطًا بالسعادة، يقتبس آدا برسياني بعض الكلمات التي جاءت في بردية واحدية[77] تقول: "الرب جعل البشر يدركون كل سبل تخفيف المرض، وعرفهم على النبيذ لتخفيف أحزانهم"، يظهر النبيذ في اثنين من أشهر أعمال أدب الشرق أكثر من مرة، أتحدث عن رباعيات الخيام وألف ليلة وليلة، حتى سنوات ليست بالبعيدة كانت حفلات الزواج في القاهرة يُقدم فيها النبيذ (تخص هذه العادة في الوقت الحالي الطبقات الأكثر رقيًّا وميلًا للطابع الغربي)، يزيد هذا الأمر أكثر من غرابة معارضة الكحوليات البينة في مصر، يقص ماكس رودنبيك أنه في عام 1985 حينما داهمت الشرطة مكتبة قريبة من الأزهر، فإنهم صادروا من هناك 2000 نسخة مصورة من كتاب اعتبروا أنه "يخدش الحياء والأخلاق العامة للمجتمع المصري لأنه يدعو الشباب للفجور والفساد"، كان هذا الكتاب هو (ألف ليلة وليلة) وأسقطت محكمة الاستئناف التهم. كانت حياة عمر الخيام، الشاعر

77- (ق77) نسبة إلى الفلسفة الواحدية التي تؤمن بأن الطبيعة والألوهية حقيقة واحدة.

الفارسـي العظيـم والمسـلم الفاسـد بعـض الشـيء غالبًا أكثـر صعوبـة، كان كتب ذات مـرة:

"ولى بكَ العشق وحسو الشراب
وحَنَّةُ النّاي ونوح الرباب
فأطلق النفس ولا تتصل
بزخرُف الدُنيا وشيك الذهاب

لا تَشغل البَال بأمر القدر
واسمع حديثي يا قصير النظر
تنحْ واجلس قانعًا وادعًا
وانظر إلى لعبِ القضاء بالبشر

يا قلب إن ألقيتَ ثوب العناء
غدوتَ روحًا طاهرًا في السماء
مقامك العرش ترى حطَّة
أنكَ في الأرضِ أطلتَ البقاء

إن الَّذي يَذبل زهر الربيع
ينثر أوراقَ وجودي الجميع
والهمُّ مثل السمَّ ترياقهُ
في الخمَرِ فاشرب قدَر ما تستطيع" [78]

78- ترجمة أحمد رامي

هناك شيء تجب إضافته، هذه الحملة الإسلامية الخرقاء المعادية للكحوليات مطابقة في حماقتها للحملة التي تشن في الغرب ولا تزال مستمرة ضد المخدرات، سخافة السياسات التطهرية في الشرق تجعلنا نرى مدى سخافة السياسات التطهرية المطابقة لها في الغرب.

هَوَسُ الموت

كتب هيرودوت في عام 440 قبل الميلاد عقب رحلته لهليوبوليس ومنف وطيبة: "إن المصريين متدينون بشكل كبير، أكثر من أي عرق بين البشر"، تبدلت العادات والأديان أيضًا ولكن لا يزال القاهريون يحتفظون بعادة التدين، لا يُلاحظ هذا الأمر كثيرًا في الحياة اليومية ولكن، كما يحدث في كل الأنحاء، يصبح أكثر وضوحًا في التعامل مع مسألة الموت والموتى، يسارع المسلمون بدفن موتاهم، إذا ما كان الأمر ممكنًا في نفس يوم الوفاة طالما كان هذا الأمر قبل الغروب، ربما يُعد مناخ الصحراء الحار هو السبب وراء هذه العادة وذلك لتجنب التعفن السريع لجثث أحبائهم، كان الإغريق يحرقون جثث موتاهم، كما لا يزال يحدث في الصين والهند في تلك العادة التي بدأت أيضًا تشيع في الغرب، كان المصريون القدماء على الرغم من هذا يتعايشون 40 يومًا مع موتاهم الأكثر شهرة (هذا هو نفس عدد الأيام التي كان يختفي فيها نجم الشعرى اليمانية من ليالي المصريين ليظهر مجددًا كأنه بُعث من جديد)، طوال هذه الفترة كان الأطباء- الكهنة يتولون عملية التحنيط الحساسة.

كان المخ يُزال بإبر عبر الأنف بعد إذابته بأحماض، فيما كانت كل الأحشاء تقريبًا تُخرج عبر القفص الصدري للجثة بعد ممارسة

عمليـة شـق بطنهـا، كل مـا كان يتم اسـتخراجه، بمعنى آخر، الكبـد والطحال والرئتيـن والأمعـاء، كان يُحنـط هـو الأخـر ويوضـع فـي أوانٍ كانوبيـة[79]، كل منها محمي بحارس إلهي خاص على الغطاء، رأس تشـبيهية[80] للكبد ورءوس حيوانيـة (قـرد البابـون للطحـال والكلـب للرئتيـن والصقـر للأمعـاء)، كانـت هـذه الآنيـة توضـع بجانـب تابـوت الميـت، أمـا القلب علـى الرغـم من هذا فـكان يتـرك فـي صـدره ليظـل هنـاك حتـى يُحاكـم ويُسـأل ويزنـه أوزوريس واثنـان وأربعـون قاضيـا بمحكمة مـا بعد المـوت. لوزن القلـب كانت توضع ريشـة إلهـة الحقيقـة "ماعت" فـي ناحية وقلـب الميت في الناحيـة الأخرى، القلـوب المتحجـرة لم تكن تنجح في هذا الامتحان، قسـاة القلوب لم يكونوا ليُبعثـوا، بـل سـيعودون إلى الأرض في صورة حيوانات قـذرة، ولكن ليس قبل أن يلتهمهـم الوحـش المرعـب الذي يمتلك رأس تمسـاح وجسـم فـرس النهر ومخالـب الأسـد، صحيح أن عبور المحاكمة النهائية فـي العالم الآخر لم يكن أمرًا سـهلًا، ولكن الموتى كانوا يحظون بمسـاعدة الـ"مجاوبين"[81] السـحرية، للـرد بمكـر علـى كل أسـئلة "أوزوريـس" و"تحـوت"، كانـت هـذه التماثيـل تدفـن مـع الميـت وبمـرور الوقت كان يـزداد عددهـا، بجانـب الـ"مجاوبين"

79- أوعية كانت يستخدمها المصريون القدماء لحفظ أعضاء معينة من أحشاء الموتى بها وكانت تصنع إما من الفخار أو الحجر الجيري.

80- أي على هيئة بشرية.

81- الـ"مجاوبين" أو الـ"أوشبتي" هي تماثيل صغيرة على شكل مومياوات كانت توضع في مقابر المصريين القدماء ويفترض أن هيئتها كانت تشبه تلك التي يخص الميت لتساعدهم في الإجابة على أسئلة المحاكمة النهائية. تشتق كلمة "أوشبتي" من الفعل المصري القديم "وشب" ومعناه "يجيب".

كانـت هنـاك أيضًـا عـدة تمائـم مثـل الجعـران الفرعونـي الـذي كان يوضـع فـوق القلـب، هـذا بخلاف أن الصلـوات المخلصة كانت تجعـل عملية الإدانة مسـتحيلة، يقـدم كتـاب الموتـى (والـذي أدركنـا عبـره كل تلـك الممارسـات مـع هـؤلاء الراحليـن) صلاة لكي لا يخوننـا قلبنا أبـدًا وتقول: "قلبـي، يا جزء مـن أبـي، قلبـي يـا جـزء مـن أمي، يـا قلب تحـولات حياتـي، لا تنهـض ضدي كشـاهد، لا تتهمنـي فـي المحكمـة، لا تتحـدث عنـي أمـام مسـئول الميـزان، أنـت قـوة حياتـي الموجـودة في جسـدي وخنوم[82] الـذي يشـفي أعضائي"، كانـت مثـل هـذه الصلـوات تُدفـن أيضًا وسـط أربطـة المومياء فـوق الصدر فـي مـكان القلـب كمذكـرة أو تميمـة لإنعـاش الذاكـرة فـي الحيـاة الأخـرى، فمـن الجيـد أن يتعلـم القلـب، قبـل محاكمتـه أمـام الآلهـة، الكـذب بعـض الشيء.

كان بعض رحالة العصور الوسطى يظنون أن أهرام الجيزة هي مستودعات الغـلال التوراتيـة ليوسـف؛ البنايـات التـي خـزن فيهـا الحصـاد الضخـم فـي سـنوات البقـرات السـمان الجيـدة والتـي أفرغـت فـي السـنوات العجـاف التاليـة، مـرت قـرون طـوال حتـى اكتُشـف مـا هي عليـه حقًـا، مقابـر ملكية وأكثـر قدمًـا بكثير مـن قصة هذه الأحلام وتفسـيرها، يقـول أندريس أولجين فـي كتابـه (مذكـرات مصريـة): "الحضـارة المصريـة مهووسـة بالمـوت وهذا

82- أحد آلهة الحضارة المصرية القديمة وطبقًا للمعتقدات القديمة قام بخلق الإنسان من طمي النيل.

الهوس، الذي تولد منه ديانتهم الفوضوية، كان السبب الذي دفع المصريين للتحنيط والتحلي بالأمل"، يمكن تصنيف الأشخاص، ليس عن طريق النوع أو اللون أو السن أو المولد، بل أكثر من هذا عبر طريقة تفكيرهم في هذا الموضوع الإشكالي، الموت وما يحدث بعده، وإذا كان القيام بهذا الأمر ممكنًا مع الأشخاص، فإنه يعد أساسيًا لتفهم الثقافات والشعوب، تحدد ثلاث قناعات مختلفة مسألة التعامل مع الموت، هل يوجد شيء بعد الموت؟ أم أن كل شيء ينتهي؟ هل يوجد شيء قبل ولادتنا؟ أم أننا نولد لمرة واحدة ووحيدة؟ هناك عقيدة التجسد التي تؤمن بوجود عالم آخر قبل الولادة كأحد أشكال المعيشة نحو الخلف والتي تذهب أيضًا نحو الأمام، هناك أيضًا الإيمان بوجود حياة بعد الحياة؛ معيشة تعقب موت الجسد أو الروح أو كليهما، هذا الأمر يشكل عنصرًا أساسيًا في عقيدة الديانات الثلاثة التوحيدية الكبرى التي لا تزال باقية (ديانة إخناتون اختفت)، اليهودية والمسيحية والإسلام، هناك فكرة أقل انتشارًا ولكنها مستمرة منذ القدم ودُوفع عنها بقوة على الأقل منذ أيام إبيقور[83]، حتى عادت لتظهر في كتاب لوكريتيوس[(84)] العظيم (على طبيعة الأشياء)، نحن البشر نموت بشكل نهائي وقدرة أرواحنا على النجاة مثل قدرة أرواح بعوضة أو ميكروب على القيام بالشيء ذاته، بل والأكثر من هذا- وأقولها

83- فيلسوف يوناني قديم

84- فيلسوف وشاعر روماني.

بصوت كونراد لورينتس[85]- أن روحنا ليست فقط فانية بل إنها أكثر فناءً من الجسد ذاته، هذه المعتقدات أو انعدامها بخصوص شئون الروح أو شئون الجسد والروح بعد الموت هي الحائط الأساسي الذي يفصل الشرق عن الغرب، الآلهة والديانات وُلدت في الشرق لتموت في الغرب أو كما قال ألبرتو سافينيو[86] ذات مرة "الغرب هو المكان الذي يموت فيه الرب"، يظهر شغف مصر بالأجل وشعائر الموت الضخمة جليًّا وبالتفصيل في (كتاب الموتى) الذي يقص كل ما سيحدث لأجسامنا وأرواحنا في العالم الآخر الافتراضي، ربما يعد هذا الشغف هو الأكثر قدمًا وثبوتًا في التاريخ، تلك الآثار الضخمة الخاصة بالحضارة المصرية القديمة هي آثار مخصصة للموت، قبور وجبانات ومصاطب وأهرام هائلة لاحتواء جثة واحدة ممتازة؛ مومياء لا تفسد تتحدى عفن الأرض، وزن القلب هو المحاكمة الأخيرة، يوزن القلب لتحديد إذا ما كنا عادلين أم ظالمين وبعدها نعرف إذا ما كنا نستحق الحياة الأبدية أم لا، هذه الفكرة أكثر من كونها مسئولة عن نقل الأرواح سعت لتقمص كل الديانات المتلاحقة، على الرغم من كل هذا، إلا أنه يمكننا العثور في مصر القديمة على أحد أنواع الإيبقورية[87] حتى قبل أن يظهر هذا الاصطلاح، لا يتعلق الأمر بنفي وجود العالم الآخر، بل إظهار الشك والاشتباه بأنه ربما بعد

85- عالم نمساوي حاصل على جائزة نوبل ويعد أحد مؤسسي علم السلوك الحيواني

86- كاتب وصحفي وموسيقي ومؤلف وملحن ورسام إيطالي توفي عام 1952.

87- مذهب فلسفي منسوب لإبيقور طرح أفكارا خاصة بالزمن والموت فريدة من نوعها ويدعو في أغلبها للاستمتاع بلذة الحياة.

الوفـاة لا يوجـد أي شـيء وأن الأمـر الوحيـد المؤكد هـو الحياة، أحد أشـكال الـ"كارب دييـم" المصريـة، هـذا هو مـا يظهر علـى الأقل في قصيـدة غنائية تعـود للمملكـة الوسـطى، عنوانها (أنشـودة عـازف القيثارة فـي مقبرة الملك أنتـف)، وتقول:

"ها هي أجيال من البشر

تمضي جيل وراء الآخر

سُنة العالم منذ بدء الخليقة

منذ كان في الوجود آلهــة

هؤلاء من كانوا ملوكًا

باتوا راقدين في أهرامهم

بين نبلاء وسادة

مضوا إلى الفناء مع غـيرهم

ما شيدوه من بيوت

اندثرت كلها، أين ذهبت الآن؟

سُمِعت أحكامٌ من إمحوتب وجدف حور

بقت كحكم

ودامت أكثر من البقية

أين هي جدران عمائرهم؟

سقطت جدرانها، وأفنى الزمن أطلالها

لم يعُد إلينا أحد من هناك

ليخبرنا عنهم وما جرى لهم

لتتيقن قلوبنا

حتى نرحل حيث رحل هؤلاء

فطمئن فؤادك كي لا يخاف

وانتفع من النسيان

وانعم بما تحب ستحيى

ويحيا الفؤاد

عطر بالمُر جبهتك

وارتدي الصوف الناعم

واغتنم نصيبك من مسراتك

ولا تجعل اليأس يُغمي قلبك

أكمل مصيرك على الأرض

لا تطفئ شرارة قلبك

حتى آخر بكاء جنائزي عليك

لا تسمع بكاء القلب المرهق

البكاء لا ينقذ أحدًا في القبر

اغتنم سعادة أيامك

لا تهرب منها

لا أحد يرحل بشيء معه

وليس بين من رحلوا

من عاد ثانية".

يبـدو أن ليـس كل البشـر خالديـن بالنسـبة للمصرييـن القدمـاء، بعضهـم فقـط هـم مـن كانـوا يحظـى بهـذه الميـزة؛ وأولهـم الفرعـون وكهنتـه الكبار وحاشـيته، قلـة فقـط هـي من كانـت تقدر علـى الشـعائر ومتطلبـات النجاة مـن مرحلـة مـا بعـد المقبـرة، قلة فقط هـي من كانـت تصل إلـى أوزوريس إلـه البعـث، مفتـاح العالـم الآخـر هـو الثـروة ومعرفـة الإجابـات النموذجية والأسـئلة والغـذاء والهدايـا وعمليـات التحنيـط، لـم يكـن بإمـكان المزارعين والخـدم والطبقـات الدنيـا الطموح نحو الخلـود (كما تُرفض هـذه الاحتمالية فـي بعـض الـدول المسـيحية اليـوم بالنسـبة للماشـية والـكلاب)، بـل وكانـوا بطريقة ما أقل درجة من بعض الحيوانات المقدسـة التي كانت تُحنط لتنجو مـن المـوت، مـع مـرور القـرون بدأ بعـض أبناء الطبقـات الدنيا فـي الطموح نحـو هـذا الخلـود وهذا هـو ما تشـهد عليه زيـادة الكتابات الموجـودة على التوابيـت الأكثـر تواضعًـا بجانب تضاعف عـدد الكتب التي تقـدم التعليمات بالنسـبة للعالـم الآخـر أو (النصـوص الجنائزيـة)، سـواء كانـت منحوتـة على الخشـب أو مرسـومة علـى لفافات البـردي المكتوبة والمصحوبـة بالصور، إن

هـذا المفهـوم، الـذي تبناه لاحقًـا اليهود والمسـيحيون والمسـلمون، أي ذلك المتعلـق بـأن النجـاة فـي الحيـاة الأخـرى مرتبطـة بالأفعـال الصالحـة التـي تفعلهـا فـي الحيـاة الدنيـا، كان تطـورًا للديانـة المصريـة القديمـة وبالمثـل عمليـة إكسـاب الأبديـة طابعًـا ديمقراطيًـا يتسـع لكل البشـر.

بعـض أبـرز المسـاجد والآثـار في القاهـرة عبارة عـن مقابـر، مدافن ودور عبـادة لأولئـك الذيـن شـيدوها فـي حياتهـم لتمجيـد الـرب علـى أن تحتضن لاحقًـا أجسـادهم يـوم مماتهـم، لكـن ربمـا يُعـد الأمـر الأكثـر إثـارة أن عددًا مـن أزحـم وأكبـر الأحيـاء فـي قاهرة اليـوم كانت في الأسـاس ولا تـزال أحياء للأمـوات، سأفسـر الأمـر، منـذ عـدة قـرون نمـت فـي المسـاحة التـي كانـت تعـد سـابقًا خـارج أسـوار القاهـرة؛ فـي منطقة رمليـة تصل حتـى الانحدارات الأولـى لجبل المقطـم، مدافن ممتدة للمسـلمين المؤمنين وذلك في ظاهرة تجعـل كلمـة مدينـة الموتـى تسـتعيد دقـة اشـتقاقها اللغـوي، هنـاك وبنـاء علـى هيبـة كل ميـت وقدرتـه الاقتصاديـة، بـدأت مقابـر صغيرة فـي الظهور وأخـرى أكبـر (بغـرف واسـعة للميـت بـل وأيضًـا بيت صغيـر يمكـن للأقارب الإقامـة فيـه لعـدة أيـام في العـام الواحد لكـي يؤنسـوا موتاهم بأجسـادهم الحيـة وصلواتهـم)، لـم يقتصـر الأمـر علـى هـذا بل شـمل الأمر بنـاء مدارس قرآنيـة ومسـاجد وأضرحة (غالبًا مـا تكون مدافن للخلفاء أو بالأدق سـلاطين المماليـك) يتمتـع بعضهـا بجـودة معماريـة وفنيـة واسـتثنائية (مثـل ضريـح قايتباي وضريح الشـافعي ومدرسة السـلطان برقوق التي أنشئت في 1401)،

بشكل مبدئي كان من الطبيعي أن يعيش بعض الأشخاص في هذه المدافن الواسعة وبالأخص حراسها الذين كانوا يقيمون في الغرف المشيدة بجانب أو فوق الأضرحة، ولكن في نهاية حقبة الستينيات وفي ظل أزمة السكن بمدينة تعاني من إيقاع نمو ديموغرافي لا يمكن احتواؤه، بدأت جموع الفقراء والمهاجرين الجدد في غزو هذه المدافن القديمة رويدًا رويدًا، استمروا في وضع أيديهم على البيوت الملحقة بالمقابر وبنوا تخشيبات وبيوتًا مزرية (من الطوب اللبن) مدعومة برخام المدافن، تجاهلوا الموت وتبجيل الموتى والصعوبات التي يعنيها العيش في مكان بدون مياه أو كهرباء أو أي شكل من الخدمات العامة ومع أشباح السراب والأمراض المحتومة، يعيش حاليًا في "مدينة الموتى" هذه مئات الآلاف من المواطنين، واضطرت الدولة أمام الأمر الواقع للاستسلام والشروع في توفير بعض الخدمات الدنيا لهذه المساكن الخارقة للطبيعة.

لم ينصحونا بزيارة "مدينة الموتى" هذه بمفردنا، حيث قصوا علينا بعض حالات سوء المعاملة للأغراب وأيضًا بعض حالات السرقة والاعتداء التي رأيناها غير محتملة من قبل الأحياء الذين يتشاركون مساكنهم مع الموتى، لأننا كنا نعرف أن القاهرة، على الرغم من جموعها وبؤسها، تعد واحدة من أكثر المدن الآمنة، لهذا توغلنا في المدافن في أحد العصاري مع أشرف، لا يسكنها أشباح بل أطفال يلعبون الكرة بين المقابر، كان هناك مقهى يوفر الشيشة بجانب مدفن شبه مهجور وإسكافي يحيك

مرتكـزًا بمقعدتـه على شـيء أشـبه بشـاهد القبـر، أثناء سـيرنا بيـن الحواري المتربـة ارتسـمت فـي الإضـاءة الخلفيـة بعـض القبـاب والمـآذن ولكـن أكثر مـا أثـار انتباهنـا (أو أربكنـا) كانـت الرائحـة، بسـبب تأثرنـا بالمعلومـات حـول ماهيـة المـكان أو موقعـه، اعتقدنـا أننـا نتنفـس رائحة المـوت أو جثة متحللـة، ولكـن فـي الواقـع مـا كنـا نتنفسـه هـو نتانـة ميـاه الصـرف التي لا توجـد بالوعـات كافيـة لها لتذهب بهـا نحو المجاري العموميـة، كان الأطفال يجعلـون كرتهـم تقفـز فـوق ميـاه الصـرف السـوداء فيمـا كانـت حيوانـات ودراجـات ناريـة وأخـرى هوائيـة وسـيارات أجـرة تتنقـل حولنـا فـي المكان، مـر شـاب حامـلا صينيـة ضخمـة عليهـا خبـز خرج تـوًا مـن الفرن فوق رأسـه بينمـا طـارت خلفـه سـحابة مـن الذبـاب، المدافـن لهـا احترامها، علـى الأقل فـي مـا يتعلـق بالبنـاء الـذي ينتـوي المـرء أن يحفظ فيـه جثمانـه، ولكن كل شـيء آخـر جـرى الاسـتيلاء عليه مـن قبل جمع من البائسـين الذيـن لا مأوى لهم .

سـارت (آ) بجانبـي بحـذر بينمـا حيًّـا أشـرف مجموعة مـن المـارة، توجهنا حتـى ضريـح قايتبـاي لأننـا كنا نعلـم أنه واحد مـن أهم أعمال الفـن العربي فـي القـرن الخامس عشـر، ولكن حينمـا وصلنا للسـاحة الصغيـرة التي يوجد بها المبنى قيل لنا إنه مغلق للصيانة، عدنا سـيرًا عبر شـارع مختلف، سلسـلة أخـرى مـن المقابـر وسلسـلة أخرى من البيوت، أخبرنا أشـرف بأنـه في العيد يصبـح هـذا الحـي أكثـر ازدحامـا لأنـه غيـر الأمـوات والأحيـاء الذيـن غـزوا المـكان، يأتـي أيضًـا الأقارب لزيارة أسـلافهم الراحلين بل وفـي بعض الأحيان

أيضًا يقررون المبيت، أثناء خروجنا ببطء تذكرنا أيضًا ما كان يحدث وبدأ يحدث في مدافن مدينتنا، فرضت المافيا خلال حقبتها المزدهرة بمدينة ميديين عادة في مقابر سان بدرو القديمة تتمثل في مرافقة الموتى بموسيقى مستمرة، كان يجري تعيين عدة أشخاص لإبقاء الأغنيات والأزهار التي كان يفضلها الميت حية، ما يحدث في سان بدرو يحمل صبغة أجواء حانات القرى، ولكن هناك شيئًا آخر يحدث في المقابر الجديدة، مثل مقابر (كامبوس دي باث)، التي تبدو كحدائق أكثر من كونها مدافن في ظل وجود عدد قليل من شواهد القبور المتراصة فوق النجيل، أصبحت المساحات الخضراء أقل بمرور الوقت في المدينة، لذا فإن الكثير من ساكني الأحياء الشعبية يتوجهون يوم الأحد للمقبرة في نزهة للترويح عن النفس فيما يلعب الأطفال بين المقابر لأنه ليس لديهم حديقة للملاهي، هل سيأتي اليوم الذي قد تتسبب فيه أزمة السكن في غزو مقابرنا؟ عدد النازحين من الريف الكولومبي[88] يدفعنا للقول بأنه قد نصل نحن أيضًا لهذا، ربما يُعد أكثر شيء لا يمكن تفسيره في القاهرة، حتى هنا في "مدينة الموتى"، أنه وسط كل هذه القمامة والعفن الذي يصدمك في كل ركن بعيد عن الطرق المجهزة لرحلات السائحين فإن سكانها لا يزالون يحتفظون بطابع شديد اللذة قائم على

88- السبب الرئيسي وراء نزوح أعداد كبيرة تقدر بالملايين من الريف هو صراع الحكومة مع الجماعات المتمردة وأشهرها القوات المسلحة الثورية الكولومبية (فارك) وجيش التحرير الوطني (إلن) والجماعات شبه العسكرية وعصابات المخدرات.

الاحتـواء والمـرح واللطـف، الأمـر ذاتـه لاحظـه كفافيـس ونقله فـي قصيدته التـي كان يحتفـل فيهـا بسـعادة المصرييـن غيـر المفهومـة والتـي لا يمكـن هزيمتهـا حينمـا قال:

"الشمس تحرق

مصرنا الذابلة

بسهامها المرة البغيضة

تحرق مصرنا العطشى

لكن هناك مصر أخرى

بسعادة أسواقها

تتحدى طغيان الشمس

تبيع ببهجة

لتشتري الزينة

وتنسى لعنتها"

يبـدو أن القاهرييـن يعيشـون بحالـة مزاجيـة جيـدة للغايـة، كما لو أن أيًّـا مـن كل الأشـياء التـي تضايقنا مـن حر وصخب وتلـوث، لا تؤثر فيهـم، لا تؤثـر فيهـم حقًـا، فهم يعيشـون ويلقـون التحية ويبتسـمون ويلعبـون كأنهـم يحتفظـون داخـل أنفسـهم بسـر مـا، جيـن سـعادة

لا يقبل التحول ومحصن ضد هجمات الواقع، الكرات التي تقفز وترتد بين المقابر هي أفضل صورة لانتصار هذه السعادة في مساحة مخصصة في الأساس للموت، هناك رجل واحد سيئ المزاج عرفته في هذه الرحلة، الهارب الفظ حامد أبو أحمد، الذي عدت للاتصال به بعد زيارتنا للمدافن، بدا مكفهرًا أكثر من أي وقت مضى وأخبرني بغضب أن أتوقف عن الإلحاح، وبأنه في يوم ما سيُعلمني متى سنلتقي، لم يعد هذا الحوار يسليني بالفعل، لأنه حوار هاتفي وخاطف ومع شبح.

أركاديا والبازار

في بلادي المليئة بالمهربين ورجال المافيا، نحن خبراء في حداثة النعمة، نحن أشقاء مصر في هذا، وأيضًا في مسألة الانتماء للعالم الثالث، شاهدت ما يشبه قذارة القاهرة في قرانا بمنطقة الساحل ووسط ميديين خصوصًا في ليالي السبت، فقر القاهرة مثل فقرنا، وإن كان ذلك الذي يخصها أكثر كرامة ولا يزال يحتفظ، حتى في أكثر حالاته مأساوية، بنوع من الاحترام، ما لا يصب في صالحنا هو مسألة العنف، إذا ما كانت الأبواق في القاهرة لا تتوقف (وهذا الأمر يصيب أكثر العقول حكمة بالجنون)، فإنها في ميديين لا تسمع لسبب أسوأ، الخوف من أن يقدم مجنون غاضب على قتلك إذا ما استخدمت بوق سيارتك معه، عمليات السرقة بالإكراه والقتل؛ الخبز اليومي الذي نتناوله كولومبيتنا الحبيبة المنتمية للعالم الثالث، هي الأمور التي لو حدثت في القاهرة ستصبح استثناء أو فضيحة.

على النقيض، هم يتفوقون علينا أحيانًا في حداثة النعمة، وربما تفيد مظاهر الترف المبتكرة في تلك الأراضي رجال المافيا في بلادنا وتصبح مصدرًا لإلهامهم، على سبيل المثال، لم يكن سبق ورأيت لهّاية رُضّع مصنوعة من الفضة مثل تلك التي شاهدتها بالقاهرة في الكاتدرائية الجديدة لزماننا الحالي؛ دار العبادة التي

لا تخلـو منهـا أي عاصمـة فـي عـام 2000، المركـز التجـاري، لـم يجـدوا هنـا اسـما أكثـر كلاسـيكية ورداءة مـن هـذا، "أركاديـا"، رواده المصطفـون مـن مسـتهلكين مستأنسـين يعيشـون في فردوسـهم الزائف يشـبهون كثيرًا زبائن أي مركـز مماثـل بأي مـكان في العالم، إنها نفس المتاجـر ولكن مع تغييرات شـرقية ظاهـرة؛ مثـل لهايـة الرضيـع الفضيـة على سـبيل المثـال، ولكن هناك أيضًـا نفـس المتاجـر الرائجـة التـي يفرضهـا السـوق العالمـي، نفـس أماكـن تنـاول الطعـام أو بيـع الأحذيـة أو أحـدث صيحـات الموضة للرجال والنسـاء والملابـس والملحقـات الرياضيـة والأثـاث، عملية توحيـد ذوق معين وفرضه علـى النـاس قائمـة هنـا أيضًـا؛ في هـذه البوابـة الافتراضية للشـرق.

يخـرج كل شـيء هنـا عـن المنطـق القائـم خـارج جدرانـه، الأسـعار فـي أركاديـا ثابتـة (بشـكل شـبه دائـم، هنـاك محـل بـذل تقليديـة واحد شـهدت فيـه اسـتثناءً) وتنتشـر العلامات التجارية الدولية، يسـود نظـام صارم وتُعرض البضائـع بمعاييـر نموذجيـة وبطريقـة مثاليـة فـي فاترينـات وواجهـات المتاجـر الزجاجيـة، هنـاك تبايـن ضخـم بين هـذا السـوق العالمـي الرهيب بأضوائـه اللامعـة وطوابقـه البراقـة وعلاماتـه التجاريـة الأصليـة والحيويـة المبهجـة والفوضويـة والمثيـرة للارتبـاك الخاصـة ببـازار خـان الخليلـي، التوجـه إلـى البـازار عقـب قضـاء عـدة سـاعات فـي المركـز التجـاري يعـد درسًـا حـول مـا هـو حـي ومـا هـو ميـت، الذهـاب إلـى المكانيـن أمـر ضـروري، لكـي لا ننسـى أن العالـم يميـل نحـو التحـول إلـى مقبـرة البضائـع

المتماثلـة البـاردة الموجـودة فـي المركـز التجـاري، داخل إطار تلـك الحملة الجديـدة المدمـرة التـي تحـدث عنهـا سـاراماجو. بعـد جولـة فـي مشـرحة (أركاديـا) التجاريـة، طرنـا بسـيارة الأجـرة مجـددًا نحـو مقهـى الفيشـاوي الحبيـب وشـارع صائغـي الفضة ومتاهـات بائعي الملابـس القديمة وأصوات سـكاكين الحرفييـن، هنـاك وفـي نهايـة رحلتنـا، حظينـا بمغامرتنـا الحقيقيـة الوحيـدة كمشـترين التـي سـتظهر فـي الصفحـات التاليـة.

"سوفينير"

حدث هذا قبل رحيلنا بيوم، بعيدًا عن الحقائب المليئة بالملابس المتسخة أو الأحذية المغطاة برمال الصحراء أو الذكرى الضبابية للمدينة أو أي بضائع رخيصة، كنا نرغب في تذكار حقيقي من القاهرة؛ شيء يحمل صورة دقيقة لجمالها المبهم والخفي، لم يكن البحث في أكثر أزقة خان الخليلي ازدحامًا في البداية مجديًا، مشغولات باهظة يطابق كل منها الآخر تقريبًا وسجاجيد تستحق سعرها حقًا ولكنها فوق إمكانياتنا وصناديق مرصعة بعرق اللؤلؤ الذي لم يكن حقيقيًا في الكثير من الأحيان، بل مجرد بلاستيك دهني لامع، استسلمنا في النهاية بشراء بعض أحجار اللازورد المنحوتة بشكل جيد والتي يمكن تعليقها في عقد أو تثبيتها في سوار من ذهب مقاطعة تشوكوه[89] الأبيض على يد صائغ من مومبوكس[90]، لكن لدى خروجنا من متجر اللازورد وبسبب محض نزوة قررنا فعل هذا الأمر من الباب الخلفي الذي كان يفضي إلى زقاق مظلم معبأ بدخان الشيشة، الرائحة الجميلة والبديعة للتبغ المعطر كانت تنافس رائحة الكركديه والقهوة التركية بعبيرها الباعث للاشتياق وخليط القهوة العربية مع

89- مقاطعة كولومبية تقع في شمال غرب البلاد وتشتهر بإنتاج الذهب.
90- بلدة في شمال كولومبيا تشتهر بوجود أمهر الصاغة بها واسمها بالكامل هو سانتا كروث دي مومبوكس.

الحبهـان، سـرنا خلـف الدخـان كما تتبـع اليراعات الضـوء المتقطـع في غزل مـن نـوع خـاص، أو كمـا يتبع الذكـور هرمونات الإنـاث في فتـرة التزواج من علـى بعد عـدة كيلومترات.

كان الليـل قـد فـرض سـطوته بالكامل دون أي بقايا لشـمس الغـروب، كان تجـار هـذا الشـارع أكثـر بـرودًا وكسـلًا وتركيـزًا فـي تدخيـن أراجيلهـم عـن عمليـة البيـع للسـائحين، كانـت سـاعة الـذروة بالنسـبة للعمـل قـد ولـت، نظـروا إلينـا ولـم يعرضـوا شـيئًا، كانـوا فـي عالمهـم الخـاص، بـدوا كأنهـم غارقيـن فـي أنفسـهم وهائمين بين سـحب الدخـان وأفكارهم، أمسـك طفل صغيـر فجـأة بيـد (آ) وكنـت أرغـب فـي أن يتركهـا سـريعًا، لأننـي كنت أظن أننـا سـنقع مجـددًا فـي تلـك المصيـدة الاعتياديـة، أوراق البـردي المـزورة الفظيعـة وطُـرح القطـن والبوليسـتر التـي لا تنتهي وتماثيل تـوت عنخ آمون المصنوعـة مـن النحـاس الأصفـر والتماسـيح المضـادة للتعاويـذ المصنوعـة مـن بلاسـتيك متنكـر فـي هيئـة مرمـر، ولكـن شـيئًا مـا جعـل (آ) تثـق فـي الطفـل؛ ربمـا حالـة الارتبـاك التـي حدثـت بسـبب اسـمها، في تلـك المرحلة كنـت قـادرًا علـى تفسـير بعـض العبـارات مـن العربيـة التـي يحتاجهـا أي مسـافر وحينمـا سـألها الطفـل، "اسـمك إيه؟" أجابتـه (آ)، "آنا"، فكـرر الطفل السـؤال مجـددا، "اسـمك إيـه؟ اسـمك إيه؟"، لأن إسـم "آنـا" بالعربيـة ينطق مثـل كلمـة "أنـا"، لهـذا السـبب ضحكـت أنا مع "آنـا"، أنـاي الأخـرى، (والتي كانـت (آ) حتـى هذه اللحظة) بسـبب الارتبـاك وتبعنا الطفل الذي سـار بين متاهـة متسـخة وعفنـة تقـل فيها الأضـواء، ولكننا رددنـا مع أنفسـنا بعبارات

قصيـرة مـا قرأنـاه عـدة مـرات فـي كل الكتـب ومـا تحققنـا منـه طـوال أكثر مـن شـهر فـي مصر وهـو أنه بعيـدًا عـن إرهـاب المتطرفين الإسـلاميين فإن القاهـرة تعـد مـن أكثـر عواصـم العالـم أمنًـا، وربمـا أقـل المـدن الكبرى في معـدلات القتـل، هـي أكثـر أمنًـا بكثيـر مـن باريـس ومدريـد ونيويـورك فـي كل الأحـوال.

زادت شـكوكنا أكثـر حينمـا قادنـا الطفـل، عقـب دوراننـا بعـد إحـدى النواصـي، عبـر سـلالم ضيقـة انتشـر ضـوء باهـت وبائـس ومائـل للاحمـرار علـى درجاتهـا، قلنـا لأنفسـنا إن هـذه الأضـواء تتعلـق بعـرض مـا؛ تخيلنـا أن الأمـر يرتبـط بعـرض رقـص مزري وباهـظ الثمن تحييـه راقصـة متواضعة من البلقـان أو "ترافيسـتي" محلي متنكر لصالح السـائحين غيـر الحذرين، حينما كنـا نرغـب فـي العـودة، وجدنـا أن الطفـل قـد اختفـى بالفعل ليظهر شـاب ملتـح رحـب بنـا بالإنجليزيـة، كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون لا تشـوبه شـائبة وقـال لنـا أن "الجـدع" ينتظرنـا، بالفعـل ربمـا كان هنـاك خلط فـي الأمر ولم نكـن نحـن المدعويـن، حاولنـا توضيـح الأمـر ولكـن لـم تكـن لـدى الشـاب رغبـة فـي فهمنـا وواصـل السـير بنـا أعلـى السـلالم، وصلنـا فـي النهايـة إلى بـاب انفتـح كما لـو كان بفعل السـحر لنجد أنفسـنا في قاعة مضيئـة ومليئة بأنيـاب أفيـال ضخمـة؛ بعضهـا مصقـول والآخـر لـم يمس.

تجـارة العـاج غيـر قانونيـة، لـذا فـإن هـذا بـكل تأكيـد كان متجـرًا خفيًـا، كانـت المنحوتـات ناعمـة للغاية وكانـت هناك أغـراض قديمة

مـن العـاج أيضًـا، ولكـن بعـد دخولنـا أخبرنـا الشـاب بأننـا لسـنا من عشـاق العـاج؛ وفـي هـذه اللحظة ومن البـاب ذاته الـذي جئنا منه، دخـل "الجدع"، كان ضخمًـا وذا هيبـة وخلفـه رجـل أسـمر سـمين عمـلاق ذو بطـن ممتلـئ أقـدم علـى إغـلاق البـاب بلف المفتـاح مرتين قبـل أن يعلقه فـي رقبته كأنه عقـد، شـعرنا بأننـا وقعنـا فـي مصيـدة غيـر واضحـة وليـس لهـا أي معنـى، تحـدث "الجـدع" معنـا بالفرنسـية واعتـذر عـن عدم تمكنـه مـن الإنجليزية، قلنـا لـه، "نحـن كولومبيـان"، وللحظـة بـدا عليـه الاندهـاش (تاهـت نظراتـه كأنهـا تبحـث عـن إجابـة بيـن الجـدران) ولكنـه سـيطر علـى نفسـه سـريعًا وغيـر مـن ملامحه، واصل حديثه بالفرنسـية وسـألنا إذا ما كنـا مهتمين بقطع عاجيـة وقبـل أن نتمكـن مـن الـرد قدمـوا لنـا مشـروبات سـاخنة؛ نوعًـا مـن الشـاي الـذي لـم تبـد رائحتـه مثـل الشـاي والـذي توقعـت (أ) وهـي تهمس لـي إنـه قـد يكـون مخلوطًـا بالسـكوبلامين[91]، مـن الشـائع فـي كولومبيا أن يخلطـوا مشـروبك بالسـكوبلامين لمهاجمتـك، السـكوبلامين يصيـب العقـل بالارتبـاك وبصـورة مـا تصبـح إرادتـك بيـن يـدي مـن يحدثونـك، تحـت أثـره فـإن أي قصـة تصبـح قابلـة للتصديـق (أنـك فـزت باليانصيـب وأن الذهـب فضـة وأن البلاسـتيك أو العظـام هـي عـاج أو أن قطـع الزجاج المكسـور هي قطـع مـن الألمـاس)، كان "الجـدع" يراقبنـا ونحـن نشـرب الشـاي وحينمـا كنـا نحـاول فتـح أفواهنـا للحديـث كان يهدئنـا بإشـارات مـن يديـه قائـلا

91- عقار متعدد الاستخدامات ومن ضمنها كونه عامل بنج ممهد للتخدير ومعالجة التشنج المعوي وغثيان السفر.

"لا، لا، لا داعـي للسـرعة، انهيـا مشـروبكما أولا"، اضطررنا لتناول المشـروب، كانـت هناك عيون ترشـق شـفاهنا بنظراتها وطعم أشـبه بالتـراب في أفواهنا وأجـواء محكمـة الغلـق ورجـل أسـمر ضخم يعقـد ذراعيـة أمام صـدره وهو ينظـر إلينـا بتعـال والمفتاح يتدلى مـن رقبته.

لـم أشـعر بـأي أثـر غريـب، كل مـا شـعرت بـه فقـط كان طعنـة مـن العار ولكـي أخـرج مـن هـذا الوضـع قلـت لـه، علـى الرغـم مـن أن أولويتنـا لـم تكـن العـاج بـل الأفيـال، أننـا قـد نكـون مهتميـن وأشـرت لـه علـى بعـض القطـع الصغيـرة، كانـت أشـبه بأعمـال بوتيـرو[92] ولكنهـا أقـل وزنًـا فيمـا يتـراوح ارتفاعهـا مـن ثلاثـة إلـى أربعـة سـنتيمترات وتُعـرض فـوق أحـد الألـواح المعلقـة علـى الحائـط، هـي فـي الأسـاس فواكـه صغيرة مـن العاج، تفـاح وكمثـرى ورمـان بـل وحتـى عنقـود مـن التمـر، كانـت تشـكل معـا توليفـة مـن الطبيعـة الميتـة والتـي كانـت حقًـا تُذكر بأعظـم أعمـال بوتيرو وأكثرهـا إثـارة، كانـت بيضـاء ولامعـة ومـرروا فوقهـا زعافـة من ريـش النعام لنفـض غبـار القاهـرة الأبـدي مـن عليهـا لكـي نراهـا بصـورة أفضـل، كانـت بعـض الفواكـه الموضوعـة فـوق هـذا اللـوح الصغيـر منحوتـة بشـكل جيـد للغايـة بذلـك الحـس الجسـدي الـذي يتمتـع بـه العـاج المصقـول، كنـت أيضًـا قـد أجريـت عمليـة حسـابية صغيـرة مع نفسـي توصلـت فيهـا إلى أن

92- فرناندو بوتيرو: فنان كولومبي دائمًا ما يظهر الأشخاص في أعماله بأحجام كبيرة أو إن صح التعبير "سمينة".

هـذه بـكل تأكيـد أرخـص قطع فـي القاعـة، وأنـه إذا مـا وصلت الأمـور لهذا المنتهـى فسـنقدم علـى شـرائها، لكنهـا لـم تكـن رخيصـة وحاولـت التفكيـر فـي بعـض قطـع شـطرنج ظهـر أنهـا كانت أغلـى. ذهبت بنـا قطع الشـطرنج السـوداء إلـى طريـق آخر، خشـب الأبنـوس، "أرى أنك تقدر خشـب الأبنوس أيضًـا"، هـذا هـو مـا قالـه لـي "الجـدع"، الـذي كان يفضـل الحديـث معـي، أي الرجـل، أمـا (آ) فحـدث هـذا فـي مـرات قليلـة حينمـا كان يوجـه لهـا مجاملـة قـد تأتـي علـى هيئـة انحنـاء مفاجـئ مصحـوب بتلميحـات كانـت تبـدو لـي جنسـية بعـض الشـيء، كان يعاملنـا كمليونيريـن أوروبيين، سـألنا عـن أصـل عائلاتنـا وسـر بشـرتنا البيضـاء (بيضـاء بالنسـبة لـه، بشـرته كانت أكثـر قتامـة مـن بشـرتنا الهجينـة، قلنا له إن البشـر فـي كولومبيـا موجودون بـكل الألـوان)، ألـح بعدهـا فـي السـؤال عمـا إذا ما كنـا حقـا كولومبيين لأنه يؤمـن بـأن لـون بشـرة الكولومبييـن يجب أن يكـون مثل تينو أسـبريا (لاعب الكـرة) وأصـر أيضًـا علـى معرفة السـبب وراء حديثي بالفرنسـية، ومعرفة إذا مـا كنـا مـن نسـل أحـد الفاتحين؟ شـرحنا له كل شـيء علـى قدر المسـتطاع لأن قدرتـي علـى إجـراء حديـث بالفرنسـية تماثـل العربيـة، كنـت أفكـر في جيوبنـا، الكولومبيـة جـدًا، وبدأت فـي توقع إحباطـه الرهيب حينما سـنقول لـه كلمـة: "لا" وبأنـه لا يمكننـا شـراء أي شـيء مـن المنمنمـات أو القطـع وأن الشـيء الوحيـد الـذي قـد نتمكـن مـن شـرائه ويعـود للأفيـال إذا ما كان موجـودًا لديـه هـو شـعر الذيـل الـذي يصنـع ويباع علـى هيئة أسـاور.

ذهبـوا بنـا إلـى غرفـة مجـاورة، إذا كان كل شـيء فـي تلـك الأولـى

يبـدو أبيـض اللـون باسـتثناء قطع الشـطرنج السـوداء، فإن اللون الأسـود كان هـو المسـيطر هنـا، كانـت هـذه هـي غرفـة خشـب الأبنـوس، قـال الأسـمر السـمين الضخـم شـيئًا بالعربيـة وترجمـوه لنـا، إن هـذه الأشـياء تصنـع فـي قريتـه الواقعـة بعـد جنـوب مصر؛ تحديدًا فـي أقصى جنوب السـودان وذلك فـي منطقـة لـم يتمكنـوا مـن تحديـد اسـمها لنـا لا بالإنجليزية أو الفرنسـية، قالـوا كلمـة مثـل "الكوريسـيتية" أو شـيء مـن هـذا القبيـل، كانـت الأغراض المصنوعـة مـن الأبنـوس مبعثرة دون نظـام أو ترتيب مغطـاة بالتراب والرمل وبجانـب أقنعـة رهيبـة ودمى ذات رءوس سـوداء يبدو أنهـا مصممة لطقوس سـحر الفـودو، كانـت هنـاك أيضًـا صناديـق مصنعـة بحرفيـة وبعـض قطـع الأثـاث الجيـدة وبعـض المنحوتـات التـي قـد تثيـر الاهتمـام بسـبب قيمتهـا المتعلقـة بوصـف الأعـراق البشـرية أكثـر مـن تلك الفنيـة، منحوتـات يمكن رؤيتهـا فـي الكثير من متاجر الأغـراض الأفريقية بالولايـات المتحدة وأوروبا، كانـت مهـارة حرفيـي أفريقيـا حاضرة هنـاك وبقوة؛ بقـوة كبيرة حقًـا ولكنها كانـت سـوقية أكثـر مـن الـلازم، أقنعـة ملفتـة للنظـر وتماثيل مبتكـرة ولكن فـي الحقيقـة لـم يعجبنـا أي شـيء، لأنـه لـم يبد لنـا أنـه يوجد أمـر مختلف عمـا يمكـن مشـاهدته فـي أي متجر أفريقـي موجـود بالغرب.

كانـت (آ) هـي أول مـن رأت الغـرض المنشـود مخفيًـا بيـن عـدة قطـع بـلا قيمـة، ربمـا كان ملقـى أو مخبئًـا فـي أحـد أركان الغرفـة، أشـارت

نحـوه بإصبعهـا وهـي تهمس لي بلكنـة مقاطعـة أنطيوكيا[93]، "انظـر! انظر!، هـذا هـو!"، كان الغـرض نفسـه يوجـه بتباهي بصـره إلينا بنظرة عكـر التراب صفوهـا، أشـحنا بنظرنـا بعيـداً لكـي لا نظهـر اهتمامنـا، نحـن معشـر أبنـاء أنطيوكيـا تجـري دمـاء تجـار الشـام فـي عروقنـا ونعـرف أن القاعـدة الأولـى فـي عمليـة الشـراء هـي أن تنظـر نحـو الجانـب الآخـر، كانت قطعـة فريدة، عمـل نحتـي لا تشـوبه شـائبة مصنـوع بشـكل مثالـي فـي قلـب شـجرة أبنـوس يجـب أن تكـون قديمـة للغايـة فحجـم الوجـه والجـذع كان طبيعيًـا بصـورة كبيـرة، تظاهرنـا بالاهتمـام بقطعـة مماثلة بهـا فكرة مشـابهة ولكنها فقيـرة الصنـع وخاويـة الـروح علـى العكـس مـن فينـوس الأخـرى؛ الموناليزا السـمراء الحزينـة، التـي كانـت تنبـض بالحيـاة وتتنفـس وتتابعنـا بنظرهـا دون أن ترمـش، حيـة وصامتـة مثـل موميـاء بعثـت مـن جديـد، كان سـعر العمـل النحتـي الآخـر (النسـخة الفقيـرة مـن عذرائنا السـمراء) مبالغًـا؛ أكثر مـن 2000 دولار ولكننـا تمكننـا مـن خفضـه حتـى 700 دولار، كان هـذا الرقـم هائـلا بالنسـبة لميزانيتنـا ولكـن شـرارة الطمـوح كانـت قـد اشـتعلت بالفعـل، عدنـا لغرفـة العـاج دون أن نبيـن أننـا شـاهدناها؛ أننا شـاهدنا تلك القطعـة الفريـدة والمختـارة وأفضـل عمـل فنـي صادفناه في مصـر الحديثة، توصلنـا بيـن عـدة همسـات بلكنـة أنطيوكيـا السـريعة أنـه لكـي نتمكـن مـن شـراء الموناليـزا، فسـيتوجب علينـا ارتـكاب جريمـة شـراء قطـع غيـر

93- مقاطعة كولومبية تقع في وسط شمال غرب كولومبيا وعاصمتها هي مدينة ميديين، مسقط رأس الكاتب.

نافعـة مـن العـاج، كانـت هنـاك بيضة مـن العاج المصقـول التي قـد تقدرها عمـة مـا، كانـت باهظـة الثمـن ولكـن مـرة أخـرى تمكننـا من خفض السـعر إلـى النصـف، أخذنـا ثلاثـة مـن الفواكـه الصغيـرة المنحوتة بأسـلوب بوتيرو، أصبـح أمامنـا العمـل النحتـي الـرديء وتحتـه البيضـة والرمانـة والكمثـرى والبلـح، ادعيـت اهتمامـي مجـددًا بقطـع الشـطرنج وابتعـت فـورًا خمـس أسـاور مـن شـعر الفيـل وقلت إنها من أجـل الأطفال، ولكن "الجـدع" أهداها لـي بشـيء مـن الاسـتخفاف، لـم يكن مـن الطبيعـي أن تذهب بـكل فجاجة مـن أبهـظ الأشـياء إلـى أرخصها.

أثنـاء تجولنـا فـي قاعـة العـاج شـعرنا بمغناطيـس يجذبنـا مـن الغرفـة الأخـرى، أضـاءوا غرفـة الأبنـوس مجـددًا وأثنـاء تظاهـر (آ) بإبـداء اهتمـام متوحـش بقنـاع محـدب، أمسـكت أنـا بقطعتنـا المنشـودة بحنـان لـم يلمسـها أحـد بـه منـذ سـنوات وداعبـت رأسـها بيـدي وتحـت غبـار القاهرة الأبـدي كان شـعرها مضفـرًا فـي نسـيج مثالـي، كان وزنهـا ثقيـلا؛ ثقيـلا للغايـة، كأنهـا جسـد قـد فارقتـه الحيـاة، كان الرجـل الأسـمر لا يـزال فـي غرفـة العـاج وسـألت "الجـدع" عـن سـعر هـذه الجثـة التـي كانـت تُبعـث بيـن يـديَّ، بـدأ بسـعر أعلـى بقليـل مـن العمـل النحتـي الـرديء، كان الأمـر يبـدو سـخيفًا بالنسـبة لقطعـة مثـل هـذه، ولكن إذا لـم نطلـب تخفيضًا كان ليشـك فـي الأمـر، وضعتهـا فـي مكانها مجـددًا بنـوع مـن الازدراء المصطنع، خفـض "الجـدع" خمسـمائة دولار لتقـول (آ) بصـوت مرتعـش أول جملـة تسـمعها أذنـاي منهـا بالفرنسـية " Ça va bien"، دنـس "الجـدع" بيديـه

الموناليـزا الخاصـة بنـا وأخرجهـا مـن الغرفـة دون حتـى أن ينظـر إليهـا، أنـا واثـق مـن أنـه لـو كان نظـر إليهـا لـو حتى لجـزء من الثانيـة، لكان نـدم على قـراره، حينما رأى الأسـمر "الجـدع" وهو يخرج بنحت الموناليـزا الحزينة بين يديـه، أطلـق عبـارة دهشـة بالعربيـة، اقتـرب منهـا وأخذها بنفس الخشـوع الـذي كنـت أحملهـا بـه، تحـدث بالعربيـة بـلا توقف فـي ظل دهشـة كبيرة وكان يبـدو أن كل مـا يقولـه يضـع "الجـدع" فـي مـزاج سـيئ جعلـه ينهـره بصـورة أسـوأ، كان الأسـمر يبـدو حزينًا وبعدهـا محبطا ثم استسـلم وتحدث بنبـرة مختلفـة للغايـة واسـتمر فـي التحـاور بكلمـات لـم نكـن نفهمهـا ولم نـدرك وسـطها مـا كان يحدث، ولكن الأمـر كان يبدو خطيرًا فـي كل الأحوال، سـلمه "الجـدع" العمـل المنحوت واحتضنه الأسـمر كما لـو كان غريقًا يتعلق بلـوح خشـب ثـم توجـه نحو البـاب ونـزع المفاتيح مـن حول عنقـه ليفتحه وخـرج مـع فينـوس، ذلك العمل الأسـتاذ، الموناليـزا الحزينة الخاصـة بنا التي كنـا حددنـا سـعرها بالفعل.

نظـر "الجـدع" لنـا بشـكل عدائـي، كان جليًّـا أن لديـه رغبـة فـي إلغـاء الصفقـة ولكنـه كان سيخسـر كل شـرفه كتاجـر جـاد إذا مـا كسـر كلمتـه، "قلـت لكمـا ألفًـا وتسـعمائة، وحتـى لـو لـم تكـن لـدي رغبـة فـي ذلـك، فأنـا ملتـزم ببيعهـا لكمـا، إنهـا قطعـة خاصـة، الأكثـر خصوصيـة، لقـد أخبرنـي مانقوقـول[94] الآن بهـذا، هل السـيدة

94- طبقا لوصف الكاتب للشخصية فيبدو أنه من جنوب السودان وكان اسمه مكتوبا كالتالي بالأحرف اللاتينية "Mangogul".

خبيـرة؟"، أشـرنا برأسـنا بالنفي ليرد "حسـنا، عليكما باختيـار أخرى، أي قطعة سـتأخذونها سـتدفعان ألفًـا فقـط مقابلهـا"، عدنـا لهـز رأسـنا لرفـض العرض، "كيـف سـتدفعان؟"، أجبنـاه بأننـا سـنلجأ لاسـتخدام البطاقـة الائتمانيـة بكل تأكيـد؛ فـلا أحد يحمل معه هـذا المبلغ نقدًا، وجد "الجدع" مهربه المنشـود ورفـض وهـو يهـز رأسـه قائـلا: "مسـتحيل"، كنت أحمـل كل الـدولارات معي فـي الحـزام ولكـن الحسـاب كان يقترب من ثلاثة آلاف وكنـت أعلم أن كل ما معـي يتـراوح من ألفين وخمسـمائة إلـى ألفين وثمانمائة ولا شـيء أكثر من هـذا، كنـت أدرك أيضًـا أننـي إذا مـا طالبـت بأقل خصـم ممكن فـإن الصفقة قـد تفسـد، قلـت لـه: "نقـدا وبالـدولار؟" فهـز رأسـه موافقًـا، فتحت سـحاب بنطالـي وأخرجـت كيـس القمـاش السـخيف الـذي حاكتـه لـي عمتـي، كان يحتـوي علـى ألفيـن وسـبعمائة وخمسـين دولارًا، قـام "الجـدع" بعدهـا فـي الوقـت الـذي قمـت فيه أنـا و(آ) بجمـع كل الجنيهـات المصريـة التي كانت معنـا والتـي كانـت تكفـي بالكاد لمقاربـة خمسـين دولارًا كانـت تنقص، قام "الجـدع" أيضًـا بعـد الجنيهات المصرية واستسـلم، ولكنه قبلهـا وفي محاولة أخيـرة أجبـر العامـل على فحص كل الـدولارات دولارًا تلو الآخـر، كمن ينتظر العثـور ولـو علـى ورقـة واحـدة مـزورة، كانـت كلهـا سـليمة وكنـا دفعنـا مـا جـرى الاتفـاق بخصوصـه، لـم يكـن لديه أي عـذر لإلغـاء الصفقة.

أمـر الشـاب، الـذي لـم يفتـح فمـه مجـددًا، بحزم الأشـياء ليبـدأ في لـف النحـت الـرديء ببـطء، كان "الجـدع" يخـرج أنفاسـه بصـوت

مرتفـع ثـم أطلـق شـخيرًا وفتـح البـاب وهتـف بشـيء مـا فـي فـراغ السـلم، اقتربـت خطـوات ثقيلـة بعدهـا وكان عملنـا المنشـود بيـن يـدي الأسـمر، لـم نتعـرف عليـه فـي البدايـة، علـى الرغـم مـن أنـه كان أكثـر جمـالًا مـن ذي قبـل، ظننـا فـي البدايـة أنهـم غيـروه بآخـر مـن الحجـارة ولكـن هـذا لم يكـن صحيحًـا، كانـت (آ) ترتعـش وقالـت إن الشـاي جعلهـا متوتـرة، كانـت عمليـة تنظيـف القطعـة المنشـودة قـد انتهـت، جـاءت مثاليـة ولامعـة بـكل تحـدٍ وإثـارة للعواطـف كحجـارة مـن الخشـب؛ كغـرض مقـدس؛ كإلهة سـامية، وضعهـا الرجـل الأسـمر دون ينظـر إلينـا علـى المكتـب، ليقـول "الجـدع" بعدهـا تحديـدا بالفرنسـية "C’est la dernière sculpture faite par son père، Elle représente sa soeur, qui était enceinte, et qui est morte en couche"، كان والـد مانقوقـول هـو مـن نحـت هـذه القطعـة بـكل شـغف وألـم تخليـدًا لذكـرى ابنتـه الراحلـة واضطـر الأخيـر لتسـليمها مـع شـحنة مـن البضائـع ولكنـه دائمًـا مـا كان يخفيهـا فـي أحـد الأركان مغطـاة بيـن الأتربـة لكـي لا يبتغيهـا أحـد، كان هـذا هـو مـا شـرحه لنـا "الجـدع" بنبـرة صادقـة وحزينـة فـي الوقـت ذاتـه، نظـرت أنـا و(آ) كل منـا للآخـر ولكـن الطمـع في امتلاك العـذراء السـمراء كان قد أنـام ضميرينا، كان الأمـر الوحيـد الـذي نشـعر بـه وبـكل قـوة هـو الرغبـة فـي حيازتهـا بغـض النظـر عـن أي أحاسـيس أخـرى، إذا مـا أخذنـا الموناليـزا السـمراء فالأمـر أشـبه بالسـرقة، ولكننـا فـي الوقـت ذاتـه كنـا نشـعر بأننـا اشـتريناها وأنهـم قدمـوا لنـا عرضًـا، قبلنـاه فـي النهايـة، قلـت لـ"الجـدع"، " إذا لم تكن

قـد بعتهـا أو أهديتهـا لمسـاعدك، فإننـي لا أرى سـببا يدفعنـا للقيـام بهـذا، نحـن لا نعرفـه ولسـنا علـى ثقـة من صحة هـذه الرواية"، كنت قاسًـيا، شـعر "الجـدع" بالإهانـة وطلـب منا الرحيـل نهائيًا بل وأمر الأسـمر بغضب أيضًا أن يرحـل هـو الآخر، خـرج الأخيـر، عملاقًـا مهانًا ومحني الرأس، شـعرنا باسـتياء لـم نعتـرف بـه في حينها، سـواء أنـا أو (آ) التـي كانت غارقة في نشـوة هذه الصفقـة، كان الجشـع يجذبنـا مـن ناحيـة والتعاطف من ناحية أخـرى ولكننا لـم نفكـر فـي الأمـر كثيـرًا بعـد أن هيمـن علينـا طموح حيـازة أفضـل قطعة فـي سـوق القاهـرة، غلـف الشـاب الموناليزا بنفـس الورق الأبيـض الذي لف بـه الأغـراض الأخـرى ووضعنـا كل شـيء فـي حقيبتيـن مـن الخيـش وخرجنا محنيـي الـرأس مثـل مانقوقـول وشـعرت برعشـة فـي السـاقين، كانـت (آ) شـاحبة، شـاحبة للغايـة كأحـد تأثيـرات الجـلاء والقتمـة لألوان كانـت تواجه فـي رأسـي السـواد العميـق للموناليـزا الخاصـة بنا، كنا نشـعر بأننا أسـوأ من اللصـوص؛ كمـا لـو كنـا صياديـن من الغـرب أبـادا آخر نمـور البنغـال، ولكننا فـي الوقـت ذاتـه كنا نشـعر بحمـاس اصطياد هـذا الوحـش العظيم.

كان مانقوقـول يقـف، عنـد البـاب الواقـع علـى حافـة السـلالم الضيقـة التـي صعدنـا عليهـا مـع الطفـل، منتصبـا كتمثـال حـيٍّ عاقدًا ذراعيـه فـوق صـدره، كان ضخمًـا وكان غاضبًـا، لـو كان يرغـب لـكان دمرنـا بذراعـه العملاقـة، شـعرنا بالخـوف وكنا نظن أنه سـينقض علينا ولكنـه لـم ينطـق بكلمـة واحـدة وشـاهدنا نعبـر بعينيـن مفتوحتيـن دامعتيـن ولكنهمـا فـي الوقـت ذاتـه فاقدتيـن للحيلـة، بـدأت (آ) في

الركض بصورة فورية وتبعتها متعرقًا بين مجموعة من متاهات غير مفهومة في هذا القطاع من خان الخليلي، وصلنا بعد دقائق قليلة إلى شارع أفضل من ناحية الإضاءة وأوقفنا سيارة أجرة من أمام مسجد الحسين لنركبها دون نطق أي كلمة، كنا أنفقنا كل ما في حوزتنا (كل مدخراتنا وقيمة الحجز الموجود باسمنا لقضاء بضعة أيام في مدريد بل ومبلغ كنا سنشتري به سيارة لدى عودتنا لكولومبيا) ولكن لم نكن حينها نشعر بنفس ذلك الإحساس الجيد الذي تملكنا بحيازة هذا الغرض الذي أصابنا بالجنون والذي بدأ يلقي بثقله علينا كلعنة، كان الوقت متأخرًا للغاية حينما وصلنا للفندق ووضعنا الحزم المغلفة دون رغبة كبيرة في الحقائب، هذا التوحش سيكون نوع من الهدايا، نزعنا التغليف من على التمثالين، المتواضع والمثالي ووضعناهما جنبًا إلى جنب فوق المكتب واستلقينا للنوم للمرة الأخيرة في فندقنا، (كوزموبوليتان)، أطفأنا الأنوار ولكن لم نتمكن من النوم، كانت الموناليزا السمراء تنظر إلينا بعمق وبتأنيب حزين، وحتى لو لم نكن نراها، فإنها كانت ترغب في العودة للسوق ونحو مالكها الشرعي، كانت الطائرة ستقلع نحو مدريد في اليوم التالي في الحادية عشر صباحًا، لم نتحدث أنا و(آ) معا ولكن كنت أدرك أيضًا أن النوم يجافيها، كنت أدرك هذا من حركة قدمها الإيقاعية ومن تنفسها الذي لم يهدأ بعد، كانت العذراء السمراء تنظر إلينا بحنق، كان غضبها ملحوظًا كحيوان متوحش وضع خلف قضبان أحد الأقفاص، بدأنا في الحديث معا فجرًا، بعد أن شعرنا

بالاستياء من سماع التفاف كل منا للآخر على الفراش وتنهداته، لم يكن بإمكاننا أن نأخذها معنا، كان يجب أن نعيدها لمالكها الوحيد والأصلي، مانقوقول، ولكن لم يكن يصح أن نخسر أيضًا النقود كان يجب أن نعثر عليهم ونعيدها ونسترد الدولارات.

قررنا النهوض مع الشروق والعودة في أبكر وقت ممكن إلى خان الخليلي للبحث عن المتجر وإعادة النحت، هذه القطعة التي لا تصدق والتي على الرغم من سدادنا لثمنها لم تكن من ممتلكاتنا أو لم نكن نشعر أنها من ممتلكاتنا، كانت سرقة ودهاء ونهبًا من نوع آخر لأفضل ما يوجد في أفريقيا للطيران به نحو مكان آخر، لم يكن خان الخليلي صباحًا شيئا يُذكر، وككل شيء في القاهرة، كان السوق يستيقظ ببطء وحينما وصلنا، أي في السابعة، كانت هناك حركة بسيطة بالكاد، بخلاف هذا لم نتذكر الزقاق الذي ذهب بنا إلى هذه السلالم، عثرنا على متجر اللازورد والموناليزا بين يدينا في الحقيبة المصنوعة من الخيش ولكنه كان مغلقًا، لهذا كان يجب علينا تحديد مخرج الباب الآخر بإجراء عملية حسابية صعبة، لأن البنايات في الخان ليس لها رسم هندسي يمكن منطقته، تهنا مثل كلاب ضائعة لأكثر من ساعة حتى وجدنا في النهاية بداية السلم الذي صعدناه في صمت لنطرق الباب، فتحه مانقوقول ونظر إلينا مندهشا، كان وحيدًا وأخبرناه عبر الإشارات لأنه لم يكن يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية بأننا نرغب في إعادة النحت، أفهمناه أيضًا بأننا نرغب في استرداد النقود، كانت الخزانة مغلقة ولكن مانقوقول تمكن

مـن فتحهـا بكماشـة، كانـت دولارتنـا داخلهـا وسـلمنا ألـف وتسـعمائة ثـم احتضننـا وصاحبنـا مجـددًا حتـى سـيارة الأجرة وقبـل تركنا قبلنا بحنـان وقام بإشـارة شـكر غريبـة بيديـه، انطلقنـا بـكل سـرعة لجلـب الحقائـب ووصلنـا للمطـار فـي العاشـرة تقريبًـا، لحسـن الحـظ كانـت الرحلـة تأخـرت لسـاعة، سـلمنا متاعنـا الملـيء بالبضائـع الرخيصـة والحماقـات دون الـ"سـوفينير" الوحيـد الـذي كنـا نرغب فـي امتلاكه حقًـا، النحـت المتواضع الآخـر يتواجد الآن فـي منزلنـا كذكـرى منسـية مبهمـة؛ مجـرد كاريكاتيـر أحمـق أو محاكاة سـيئة للروعـة، بالنسـبة للموناليـزا السـمراء الأصليـة، فإنهـا سـتُعرض في يوم مـن الأيـام حينمـا يرحـل مانقوقـول ليراهـا الجمهـور فـي أحـد المتاحـف المصريـة، إنهـا قطعـة فريـدة ولا تُنسـى، السـعي لرؤيتها مجـددًا ربما يكون أحـد الأسـباب التـي قـد تدفعنـا للعـودة للقاهـرة، هـذا ديـن يجـب سـداده لعيوننـا وذاكرتنا.

قبـل صعودنـا للطائـرة، تابوت (مصر للطيران)، لمسـت صـدري لأتأكد من جـواز سـفري لا يـزال فـي مكانـه وعثرت في جيـب قميصي على شـيء آخر، بطاقـة اتصـال هاتفيـة، كيـف يمكننـي أن أنفقهـا، تذكـرت مجـددًا حامد أبو أحمـد الـذي لـم أتمكن أبدًا مـن رؤيته، ذهبـت إلى كابينـة الهاتف واتصلت بـه.

قـال لـي بنبـرة فرحـة وأكثـر ودًا مـن أي وقـت سـبق :"كنت أفكـر اليوم فـي الاتصـال بـك"، قبـل أن يضيـف بإصـرار: " مـا رأيـك فـي أن نتقابـل غـدا أسـفل تمثـال زميلنـا العظيـم مصطفـى كامـل؟"، لأجيبـه بحمـاس

بـدا حقيقيًـا بالفعـل، "بـكل تأكيد! يـا لها من فكـرة جيدة! الحادية عشـر يبدو لـك موعـدًا جيـدًا؟" ليـرد: "حسـنا، هـذا أمـر جيـدا للغايـة، سـنتقابل إذن فـي الحادية عشـر أسـفل ظـل مصطفـى كامل".

أغلقـت السـماعة ثـم سـمعت النـداء الأخيـر علـى رحلتنـا مـن مكبـرات الصـوت وفـي الوقـت ذاتـه بثـت الميكروفونـات صـوت آذان الظهـر، أخـرج الموظفـون والحـراس سـجاجيدهم الصغيـرة المخصصـة للصـلاة بينمـا أمسـكتني (آ) مـن يـدي لنسير في الممر المـؤدي للحافلة، صعـدت للطائرة دون نـدم، الحيـاة مليئـة بالمكالمـات والمواعيـد التـي لـم تتـم أبـدًا، ارتفـع موديـل (دي سـي 10) القديـم دون الكثيـر مـن الاهتـزازات، شـاهدت دلتـا النيـل مـن النافـذة الصغيرة وبعدها الصحـراء الكبيرة أثنـاء اقترابنا من البحر المتوسـط، أحـد مهـارب مصـر الأخـرى ولأننـا كنـا فـي الهـواء فـإن البحـر لم ينشـق لنـا، حاولـت تحديـد فـي أي لحظـة انتهت رحلتـي وبأي شـكل ينتهي الكتـاب، إذا كانـت الرحلـة تبـدأ قبـل الرحيل فإنهـا تنتهي أيضًـا قبـل العودة، ربمـا أيضًـا انتهـت قبـل أن نذهـب إليها، هناك عدة أيام سـابقة يكـون المرء قـد قـال فيهـا كلمـة الـوداع بالفعـل وكل مـا يتبقى هنـاك هو جسـده فقط، تنتهـي الكتـب أيضًـا قبـل الصفحـة الأخيـرة، هذا شـيء يُشـعر به ومـا يتبقى حينهـا ليـس سـوى كتابـة منهكـة لا تحتسـب، مجـرد دفعـة نهائيـة تخبـو طاقتهـا حرفًـا تلـو الآخـر، كنت أفكـر في هذا وأنـا أرى الشـاطئ الذي يفصل البـر عـن البحـر دون إدراك أن عينـيَّ تغفـوان وأننـي سـقطت في النـوم، لم أتذكـر بالفعـل متـى أو أيـن اسـتفقت مـن نومي.

المراجع

- "تاريخ المصريين" لإسحق عظيموف والصادر عن دار (أليانثا) في مدريد عام 1993.

- "رسائل من مصر" لهانز جورج بيرجر وهيرفي جيبير والصادر عن دار (إي دي تي) في تورينو عام 1999.

- "المسلم" لباولو برانكا والصادر عن دار (المولينو) في بولونيا عام 2000.

- "الأدب والشعر في مصر القديمة" لإدا بيرسياني والصادر عن دار (إيوناودي) في تورينو عام 1999.

- "على ضفاف النيل" و"مصر في زمن الفراعنة" لإدا بيرسياني والصادران عن دار (لاتريتسا) في روما عام 2000.

- "القلب السري للساعة" لإلياس كانيتي الصادر عن دار (موتشنيك) في برشلونة عام 1987.

- "المومياوات، رحلة نحو الخلود" لفرانسواز دينو وروجر ليكتنبرج والصادر عن دار (تمز أند هدسون) في لندن عام 1998.

- "مصر، الرحالة"، أحد أدلة (روتار) السياحية الصادرة عن دار (سالفات) في برشلونة عام 2000.

- "مصر، دليل العالم" الصادر عن نادي التجول الإيطالي في ميلانو عام 1998.

- "رحلة في الشرق" لجوستاف فلوبير والصادر عن دار (كارلو مانكوسو إديتوري) في روما عام 1993.

- "قصص متناحرة" لخوان جويتيسولو والصادر عن دار (ألفاجوارا) في مدريد عام 1998.

- "قصة هيرودوت" لهيرودوت، ترجمة جورج راولينسون ومتوافر في (الأرشيف الكلاسيكي للإنترنت) عبر الرابط التالي http:// classics.mit.edu

- "مذكرات مصرية" لأندريس أولجين والصادر عن دار (فالنسيا اديتوريس) في بوجوتا عام 1982.

-"القاهرة" لأندرو هامفريز والصادر عن (لونلي بلانيت) في هاوثورن عام 1998.

-"الشعر الكامل" لقسطنطين كفافيس عن دار (أليانثا) في مدريد عام 1984.

- "65 قصيدة مستعادة" لقسطنطين كفافيس والصادر عن دار (إيبيريون) في مدريد عام 1985.

- "روائح الرحلات" لروديارد كيبلينج والصادر عن دار (إيبيس) في كومو عام 2000.

- "رحلـة بيـرى أنطونيـوس جونزاليـس 1665-1666 فـي مصـر"، ترجمـة عـن الهولندية مـن المعهـد الفرنسـي لعلـوم الآثـار صدرت فـي باريس عـام 1977.

- "النيـل، قصـة حيـاة نهـر" لإيميـل لودفيـج والصـادر عـن دار (ذي فايكنـج بريـس) فـي نيويورك عـام 1937،

- " كان صرحًـا مـن خيـال" لسـليم نصيب والصـادرة عن دار (إديتسـيوني إي أو) في رومـا عام 1996.

- "القاهـرة، المدينـة المنتصـرة" لماكـس رودنبيـك والصـادر عـن دار (فينتـادج) في نيويورك عـام 1999.

- "صيـد السـاحرات فـي مصـر" فـي مجلة (نيويـورك ريفيـو أوف بوكـس) بتاريخ 16 نوفمبر عـام 2000.

- "الإسـلام" لإريـك سـانتوني الصـادر عـن دار (أثينتـو اديتوريـال) فـي مدريـد عـام 1993.

- "سـقوط رحلـة مصـر للطيـران رقـم 990" لإلين سـكاري فـي مجلة (نيويـورك ريفيو أوف بوكـس) بتاريـخ الخامـس من أكتوبر عـام 2000.

- "مصـر، خلـف آثـار الفراعنة" لجـان فيركوتير الصـادر عـن دار (إديثيونيس بى) في برشـلونة عام 1997.

- "القاهـرة" مـن تحريـر جـون رودنبيك وتحديث أنطوني سـاتين عن (ديسـكفري) و(إيـه بـي إيه بابليكيشـنز) في لندن عـام 2000.

-"كليوباترا" لأوسكار فون فيرتيمر الصادر عن دار (دالوليو) في ميلانو عام 1974.

- "في المغرب" لإديث وارتون عن دار (فرانكو موتسيو اديتوري) في بادوا عام 1997.

- "الصدمة الثقافية، مصر" لسوزان إل ويلسون عن (تايمز اديشنز) في بورتلاند عام 2000.

إكتور آباد فاسيولينسي

الشرق يبدأ في القاهرة

ترجمة: محمد الفولي

"مدينة القاهرة الحبيبة، كنت أحب وجهك أكثر قبل أن أراه. عن جسدك، لا يمكنني التفوه بشيء حتى الآن، لأن رداء سميكًا وقاتمًا من الغبار يخفيك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، لكن ما زلتُ أرغب في الوصول والنظر إلى عينيك ونزع أحجبتك وتمرير يدي الفضولية فوق ظهرك الذهبي والتحدث عنك أو معك. أفضل العودة للماضي وتذوق قضمة أخرى من زمن الليالي التي تسبق العيد، فتلك أفضل من يوم العيد نفسه، فرهبة الاشتياق أكثر لذة من الاحتفال ذاته. مدينة القاهرة الحبيبة، دعيني أنزع أحجبتك واحدًا تلو الآخر".

إكتور آباد فاسيولينسي

إكتور آباد فاسيولينسي: كاتب وروائي وصحفي كولومبي، مواليد مدينة ميدين عام 1958. من أشهر أعماله (النسيان) حول حياة ومقتل والده إكتور آباد جوميز. حصل على عدة جوائز أدبية من ضمنها جائزة الصين لأفضل رواية أجنبية في 2005 عن رواية (أنجوستا) وجائزة بيت أمريكا في البرتغال عن رواية (النسيان) والجائزة الوطنية الكولومبية للقصة. قررت إسبانيا منحه جنسيتها في 2017 لكونه "أحد أفضل المؤلفين باللغة الإسبانية".

Cover design by: Alaa Elnewery




ISBN 978-977-821-049-1
9 789778 210491